

رواية

البطلين

وما هو الا القول يسري فتغتدي
لهُ غررٌ من اوجه ومواسمُ
يُرى حكمة ما فيه وهو فكاهة
ويكدي الفتى في دهره وهو عالمُ

طبعت في بيروت في المطبعة الادبية سنة ١٨٨٩

مقدمة الرواية

طالما حدثت النفس بان اقتحم هذا المجال الذي طالما اقتحمه رجال العصور واستفرغ من اوقات القوم ازماناً يتفننون في ابوابه و يبرعون ـ كل هذا في البلدان الاجنبية دون ان يصيب بلادنا العزيزة منه الا اليسير واكثر هذا اليسير بل جميعه من المنقول لا من المعقول ـ ولا يدرك مقدار اعتبار فن تأليف الروايات عند الامم الاوربية سوى من خالطهم وادرك مشاربهم وعرف اميالهم

الاجدر بي ان اقول في هذا المقام ان بين احسن وارفع تماثيل نبغة الرجال وكرامهم في البلدان الاجنبية تماثيل الشعراء وكتبة الروايات لا اقول هذا تحريضاً لابناء اللغة العربية على تشييد التماثيل لكتبتهم في هذا الفن ولكن الغاية المطلوبة هي توجيه انظارهم الى مركز هولاء الفطاحل واهميتهم عند اهل اوربا البلاد التي نتتبع خطوات اهلها في كل الامور تقريباً وان كنا في ذلك « نرد بضاعتنا الينا »

وما اخرني عن ولوج هذا الباب الا تقصير عظيم كنت اراه في كتاباتي فاكتب الكتاب الواحد حتى اذا اعدت عليه النظر اعرضت عنه وبدأت ثانية الى ان مللت الكتابة و الاهمال فعن لخاطري اخيراً ان اعرض على اهل الادب بضاعتي المزجاة من حيث الوفاء بالغرض ونقص اللغة الخ لا اذكر هذا كطالب عذرٍ تصاغراً وهو يظن من نفسه الكفاءة ٠ بل اقراراً بقصوري وعجزي وعدم اقتداري على الوفاء بالغرض المطلوب ٠ ولا اقول هذا ايضاً ترويجاً لبضاعتي وطلباً لاشفاق القوم عليَّ ليسدّل ذيل المعذرة على هفواتي ترفقاً بحالتي ٠ كلا لعمري انما

القوله وانا شاعرٌ بوجوب الاقرار معرضاً نفسي في نفس الوقت لانتقـاد كل بصير رافعاً الى كل منتقد جزيل شكري وثنائي سائلاً اولي الفضل عذراً وبذلاً والعفو يعطاني مجاناً علماً بالواجب على مواطنيّ الكرام ان يعفوا تنشيطاً لي ولمثلي من ابناء البلاد

ولا اخفي هنا عن قرّاء كتابي انني فتىً اكاد اعبد فن كتابة الروايات ·وقد جرى بيني وبين احدى الجرائد الاوربية مناظرات ومناقشات بشان الروايات والنسق الذي يتبعه ارباب هذا الفن في كتاباتهم الى ان وافقتني تلك الجريدة انه يجب على كل كاتب روايات ان يشخص في كتاباته حالة الامم كما هي وكما يجب ان تكون·«كما هي» تلطيفاً للرواية وتقريباً لها من اذهان القراء ولكي تحسن في عيونهم وتروق لخواطرهم بمجانستها حياتهم فعلاً ·«وكما يجب ان تكون»فكاهـة لاهل الادب الذين لايلزمهم من يساعدهم وينبههم في المبادىء الادبية او في المجاري والعوائد وما شاكل ـ هذا اذا لم يكن للكاتب غرض تضمين روايته بعض الشذرات التاريخية التي لايمكن مطالعتها بلذة كتاريخ مجرّد فعندها يجب على الكاتب ان يدخل التاريخ في الرواية ويؤلفها من الحوادث التاريخية والغرامية فيسبكها في قالب واحد بحيث لاتلاحظ عليه محاولة ذكر التاريخ مغطىً بحوادث الغرام والفكاهة بل يجب ان يكون منسوجاً نسجاً بحوادث الغرام حتى يشرب القاري التاريخ كما يشرب التفكه بحوادث الغرام ولا يشعر بنفرة من التاريخ

اني لاعلمُ باتخاذي على نفسي في هذا المقام مسؤولية عظمى وانني قدوضعتُ نفسي في مركزٍ حرجٍ غير انني اقول اذا اصبتُ كانت الغاية المطلوبة والا فقد حاولت الاصابة واذا خاب الأمل فما كنتُ اول سارٍ غرّه قمرٌ

ثم انني ارفع في هذا المقام شكواي (كما شكا سواي من قبلي) من افتقار لغتنا (على غزارة مادتها واتساع نطاقها وسلاستها وسمو قوتها وجمالها)

الى عباراتٍ يحتاجها فن الروايات خصوصاً يستطيع الكاتب بمساعدتها ان يحصر معانيه ويعبر عن افكاره بعبارات اصطلاحية تغني وتفيد
ـ اقول هذا الا عن افتقاري الى مطالعة تآليف عربية بهذا الفن فقد طالعت معظم كتب القوم فيه وكنتُ اثناء المطالعة اتنسم شكواهم بادية خلال كل سطر وطالما رايتُ هذهِ الشكوى مرقومة بحروف امرّ من الصبر واحرّ من الجمر

واقول ـ لا بغية احتقار كتب الوطن (بل ملاحظةً ممن لهُ فؤاد لا يحن الاَّ الى اللغة العربية ونفسٌ لا تودّ الا الفناء في سبيل نجاح بني وطنه) ـ

ـ ان اكثر ما كتب من الروايات العربية (بقطع النظر عن بعضها) لا يزيد الصب الا ولهاً والفتى تهتكاً فليس القصد من الروايات التفنن والتيه في اثواب الغرام والخلاعة الخ ··· بل رسم خطة الحياة بابوابها فيتعلم القاري منها استهجان القبيح ـ بطريقة رقيقة لا ينفر منها الذوق بدون تصريح ـ· واستحسان المليح ـ حتى يصبو فؤاد القاري الى تلك السجايا الحسان وينغرس في فؤاده (او في فؤادها) حب الفضيلة· فتكون الروايات والحالة هذه مؤدباً يزجر عن ارتكاب الرذائل ولقماناً يصحب ناقلها لتشديد عزمه وتشجيعه في تحصيل الادب واحتمال المصاعب

هذا قصدي في ما سأكتبه في هذه الرواية او سواها من مثلها مستنيراً بمنارة الحق غير قاصدٍ الا التلذذ بفلسفة هذا الفن ـ وفي نيتي لدى تصديَّ للتاريخ ان استند على اصدق الروايات وادق الكتب مباحثاً لكي تكون الفائدة لي ولمطالعي كتابي حقيقية والله عوني وهو نعم الوكيل

« ذاك »

القسم الاول

الكتاب الاول

فصل اول

وكانت روحه حارّة وعزمهُ وطيداً لا يبالي بالرزايا ولا تحط همة الاحوال
(اللورد مكولي)

تبتدي روايتي في حانوت من حوانيت بيروت . لاحد عاملي الاحذية الافرنجية . مركزه بجانب دير العازرية قرب ساحة السور في شارع ضيق منحدر قذر يدعى شارع الاربعين . اما الحانوت المذكور فكان على زاوية الشارع للطرف المنتهي في شارع ابي النصر . ففي سنة ــ ١٨ دخل هذا الحانوت فتىً في زهوة الصبا متناسب الاعضاء تدل امارات وجهه على الحذاقة والذكاء الممزوجين بعزة النفس والشهامة وكان في الحانوت المذكور غلام في الرابعة عشرة من سنه منهمكاً بدق مسامير حذاء بيدهِ تارةً ينزل المسمار بضربة واحدة قوية واخرى لطيفة وتارة يكاد يغضب للزوم ثلاث او اربع ضربات . و بينما هو يرفع الشاكوش حانت منه التفاتة فراى صديقنا الفتى في باب الحانوت فحيى احدهما الاخر . وكان السابق بافتتاح الحديث الغلام الزائر فقال

« اين معلمك منصور؟ »

فتفرس فيه واجابه ولسان حاله يقول «ما مراد هذا الفتى من السوال»

« ذهب الى السوق عن قريب يأتي » « راح على السوق وقوام بيرجع » قال هذا وتفرس في محتويات الدكان فراى صندوقاً بجانب كرسي معلمه وعليه بعض الاحذية المفصلة فقال

« ارفع هذه التفاصيل عن الصندوق واجلس عليه حتى ياتي المعلم»

فاطاع صديقنا الاشارة وجلس .اما الولد فرجع الى شغله . وبعد ان جلس القادم برهةً نظر يميناً وشمالاً فلم يرَ سوى بعض الاقيسة هنا وهناك ملصوقةً بالحائط ولجهةٍ اخرى واجهةً فيها بعض الاحذية الحاضرة وراى الى جهة اخرى « كبران المعلم »وبجانبه طربوش (الطربوش الجديد) فلما انتهى من فحص محتويات الحانوت التي لم تكن كثيرة نظر الى الباب فراى رجلاً داخلاً وبيده «طاقٌ من الجلد » وبعض الاوراق المرزومة فوقف مسلماً وما وضع الرجل هذه الحاجات من يده حتى اخذ الكرسي ونظر الى صديقنا وقال متبسماً

« ماذا تريد ياولدي»(هذه اللطافة غريبة من عامل احذية في بيروت).اما صديقنا فكان مرتبك الاحوال تارةً يحمرُّ وجهه خجلاً وطوراً يبتدي بالحديث ويسكت وبعد تردُّدٍ ليس بقليل اجابه

« حضرتك المعلم منصور بهرج؟»

« نعم ومن انت؟ وابن من؟ وما شأنك؟»

ــ ولا اخفي عن القراء ن المعلم منصور المذكور كان يعد نفسه من الفلاسفة ــ

« داعيك كريم معلوف وقد ارسلتني عمتي اليك حتى ...»فقاطعه منصور

« آه .نعم .نعم . انت ابن اخ السيدة فريده . لقد جاءت الى هنا اليوم واخبرتني عنك وانك تريد تتعلم صناعة الاحذية اهلاً وسهلاً بك ياكريم . اترك الصندوق الان واذهب الى سوق الحدادين واسال عن محمود المغربل ومتى وصلت الى حانوته قل له بعلامة« الميزان » يقول لك منصور ارسل له الكرسي»

فبرقت اسرة كريم وشكر منصوراً كثيراً .وذهب في ماموريته

وقد زال عن صدره حمل ثقيل وكان في طريقه يكرر اسم «محمود المغربل» حتى لا ينساه ولكونه كان يعرف الكتابة كتب الاسم على ظهر يده بقلم كان معه اخذ يهدس في عمل الاحذية مسروراً من عدم رفض منصور تعليمه لانه علم ان المذكور كان من مهرة «الصناع» الحاذقين. ولم يدر ان عمته عزمت على المجيء الى منصور بنفسها لتوصيه به وما علم انه قُبِلَ قبل وصوله بزمان وان منصوراً اعدّ له مكاناً وان سبب تغيبه عن الدكان كان ليوصي على كرسي له. فبعد ان سال عدة مرات وصل الى حانوت محمود وذكر له العلامة وانثنى راجعاً مسروراً بكرسيه يرفل في اثواب الامل مرددًا في نفسه حسن مقابلة منصور وملاطفته ناسياً تلعثمه عند تلك المقابلة المهمة فوصل الى الحانوت وكان قد مرّ بطريقه على ساحة الخبز العتيقة وسوق العطارين وبجانب الكنيسة ولما مرّ بمعمل المعكرونة في نهاية سوق العطارين وقف هناك برهةً معجباً بجمال الكتابة على باب ذلك المعمل قائلاً «هل نقشت هذه الكتابة يد طرّاش او يدٌ اخرى ولكنه مرّ في نهاية سوق ابي النصر الواسع الاطراف حيث يبيع بعضهم خضرة و بعضهم «خردة» وتعجب بجمال تلك البقعة خصوصاً لان الرائحة المنبعثة منها كانت كافية لتشق الصدور قبل الانوف ولم يطل الزمان حتى وصل الى «الدكان» واجتهد ان يخفي سروره واذ ذاك راى ان الولد الاخر قد رفع عن جانب الطاولة الداخلي قطع الجلد التي كانت منتشرة على الارض فعلم ان هذا مكانه فوضع كرسيه هناك وكله اعين تراقب اي الاعمال تعطى له ليشتغل بها اولاً. ولكن طال انتظاره ولم يؤمر بعمل شيء ما فضاق صدره وخاب امله ظناً منه ان توصية عمته التي كانت من زبائن منصور القدماء لم تجد نفعاً ولا تضمن له الشغل حالاً فمضت الساعة الاولى دون ان يحدثه احد بكلمة فذبل خيبةً واحنى راسه على كتفه وفيما هو على

هذه الحالة ناداه منصور فانتصب على رجليه طرباً ظنـاً منه انه سيعطى « طاق الجلد » ليقد منه قدداً للعمل ولكن لم تكن المناداة سوى ليسمع هذه العبارة

« شوف ياحبيبي بلزمك ان تنظر الى رفيقك كل الوقت وتلاحظ حركاته ومن النظر الدائم يمكن انك تتعلم » قال هذا وخرج الى حانوت جاره

« شوف ياشريك المعلم غريبة ساعة يحكي نحوي ساعة بسيط ولكنْ لما يجي لعنده زبون من اليسوعية او الكلية خوذ على نحو انا بصير بدي موت من الضحك »

« لا اريد ان اسمع هذه النمة فانا جديد هنا ولا يهمني الا الشغل »

« صحيح اه انت ايضاً نحوي . عدم المواخذة » قال هذا ورجع الى الشغل بدون ان ينطق بكلمة واذ ذاك دخل منصور الحانوت وقال لتلميذه الجديد « قم ياعيني واذهب الى البركة وملي البريق »

فذهب المسكين غير عالم ان اول منالة انما هي « قم ياعيني ملي البريق » ولكن لما رجع هذه المرة راقت احواله اذ وعده منصور انه اذا راقب رفيقه كيف يستعمل الشاكوش وكيف يضع الحذاء على ركبته وكيف يمسك المسمار وكيف يدقه الخ يعطيه شغلاً بعد الظهر فاخذ كريم يراقب يوسف رفيقه وينظر كيف يضع المسمار في محل العلامة ويخبط فاخذ يقول في نفسه ما اهون هذا العمل انني باقل من ساعه اتمكن من الشغل مثل يوسف . بالحقيقة انه لا يوجد ادنى صعوبة مطلقاً وما زال يفكر في مثل هذه الامور حتى قرب الظهر واذ ذاك ترك منصور محله وذهب للغذاء وخلا المحل ليوسف وكريم فقال كريم

« بالله عليك يايوسف اسمح لي ان اجرب مسماراً واحداً لارى

اذا كان يمكني ان اصنع ما تصنع انت باصابة «فابي يوسف اجابته اولاً ولكن بعد الالحاح الزائد سلمه الحذاء ليجرب فيه مسماراً ولكن «عند العقدة عرق النجار» فراى صديقنا ان الخبر ليس كالخبر وان لابد اولاً من التمرين ثم العمل فعوضاً عن ان ينزل المسمار باحكام كما يجب ادخله طولاً بعرض وكاد ان يشق الجلد شقاً فرد الحذاء ليوسف خجلاً وهو لايدري باي لسان يقدم عذره غير ان يوسف كان لين الطباع فلم يذمه كثيراً بل خلص المسمار من الجلد وملأ الشق شمعاً فلم يظهر في الحذاء عيب ابداً . اما كريم فصبر على مضض وعلم ان المهارة لاتكون بالعجلة والطياشة بل بالمراقبة والتأني والصبر والملاحظة

فصلٌ ثانٍ

صرنا نحاول ردّ بضاعتنا اليها غير ان الصعوبات كانت كبيرة
(لاحدهما)

بيروت مدينة ذات موقع طبيعي على غاية من الجمال كانها جنة غناء او روضة يانعة فيحاء يحيطها من الشمال والغرب والجنوب الغربي بحر الروم بلونه البديع الفاتن وشرقاً وجنوباً جبال لبنان القديمة العهد البديعة النظام الطبيعية المركز وقممها بالغة عنان النجم رفعةً موشحة بالاثواب الخضراء تحيط بقراها الكروم والبساتين فتزيد رونقها بهاء . جمالٌ طبيعي لم تمرّ عليه يد التصنع . وفي نواحي بيروت احراشها الصنوبرية الشهيرة وهنا وهناك ايضاً بساتين التوت والبرتقال وبقية الفواكه تتخللها طرق تصلها بقرى لبنان العديدة فتجعلها فسحات بهية المنظر تجلو عن القلب الصدى . وعلى مسافة من بيروت صحراء الشويفات مؤلفة

من اشجار الزيتون النضة التي تجمل ضاحية بيروت مع باقي البساتين وبقع الرمل ومناصب التوث وقصب السكر والفسحة الكائنة بين بيروت ولبنان كلها بستان زاهٍ زاهر تغرد فيه الطيور على افنانها بانواعها وتزيد في بهجة هذا الموقع والمنظر اضعافاً

وفي بقعة ساعلى مركزاً من بقية البقع في بيروت جيدة المناخ نقية الهواء مدرسة جامعة فيها من الفنون والعلوم ما يرغبه العقل الصحيح ويصبو اليه الصدر الواسع اما هذه المدرسة فقد زادت في آن كتابة روايتي هذه عدد طلبة العلم الشريف وصارت ميداناً تتسابق فيه الطلبة ومسرحاً تظهر فيه الاداب وتصح المبادئ وصارت المدرسة الجامعة واسطة عظمى لزيادة شان تمدن بيروت وترقية شبانها اذ تقاطر اليها الفتيان من انحاء البلاد فوجدوا اساتذة مهرة يتلقون عنهم العلوم ويكتشفون معهم خبايا كنوزه الثمينة ولهذا خرج منها ابطال علمٍ جندوا جيشاً يصد هجمات الجهل ويدحر اعداء الفضل ونبغ منها اذكياء وادباء تألف منهم عقد جيد مدنية البلاد يفتخر بهم العصر اكثرهم شبوا من زوايا الفقر الى ساحةٍ هذبهم فيها الزمان فصاروا من عمدة البلاد السورية وغيرها من البلدان الشرقية — اما باقي شبان بيروت وسوريا فلهم من المدارس العالية ما لا ينكر فضلها ولا يمكن القلم ان يصمت عن ذكر محامدها غير ان غايتي ان احصر كتيبي في هذا الكنز من كنوز البلاد العلمية فلا اتصدى لذكر غيره الا اذا اقتضى المقام

ومن اقسام هذه المدرسة قسم طبي مركزه للجهة الشرقية منها وكم من عليل في سوريا ومصر وغيرها يعالجه الان اطباء مهرة احرزوا معارفهم في هذا القسم وكم من جريح ضمدت جروحه بايادي جراحين مارسوا هذه الصنعة الشريفة في غرفه الواسعة — اما تلامذة هذا القسم في وقت حوادث روايتي فكان اكثرهم خارجيون (اي ينامون

و ياكلون خارج المدرسة) وكانوامتفرقين في انحاء البلدة يقصدون مدرستهم الجامعة في اوقات تلقن الدروس ويرجعون الى البلدة بعد ان يمارسوا بعض العمليات في احدى مستشفيات البلدة ٠ مستشفىً كم افاد فقراء البلاد وكم انعم عليهم ٠ اما بعض التلامذة المتقدمين بالسن فكانوا يذهبون لمناولة طعامهم في فنادق داخل البلدة عند ساحتها المسماة (البرج) ٠ ومنهم من كان ياخذ كتبه معه وبعد الطعام يمرنون انظارهم على بعض النبذ من دروسهم تسهيلاً للدرس في اوقات فرغت اجوافهم من الطعام وكانت ادمغتهم اشد قوة على الدرس ـ وكان احد التلامذة يتردد دائماً الى مكان خصوصي يلقى فيه ما يرضيه من الماكل ويعود الى بيته للدرس المهمّ ٠ فحدث انه ذهب مرةً الى هذا النزل (لوكندة) فرأى هناك فتى جديداً تلوح عليه دلائل الهمة والقدرة والدراية في اعماله عاري الارجل بشوش الوجه يلاطف الزائرين بكل تأدب وكان يوجه لطفاً زائداً نحو التلميذ المذكور ويجلس غالباً وراء كرسيه وهو يدرس مثائله الطبية يتأمل في حالة التلميذ هادساً مفتكراً ٠ فيوماً ما نادى التلميذ الولد المذكور وبعد ان تفرس فيه قليلاً خاطبه قائلاً

« ما اسمك ياصديقي؟ »

« كريم معلوف »

« اعذرني على السوال عن اسمك غير انني ارى فيك من ملامح الذكاء ما جرّأني على السوال »

« اذاً والشيء بالشيء يذكر اعذرني انت على السؤال اظن ان حضرتك تدرس الطب لانني ارى في كتابك صوَر بعض اعضاء الجسد هذا اذا كان ظني في الصوَر صادقاً »

« ظنك في محله انني اتلقن الطب ٠ واراك حديث الدخول في هذه الخدمة هنا »

« نعم انني مستخدم جديد . وكنت اتعلم سابقاً عمل الاحذية وبعد ان صرفت في ممارسة الحرفة ستة اشهر وتقدمت في الصنعة رايت مع انها سهلة العمل ومع انني كنت قد ابتدأت ان اكتسب قليلاً من الدراهم زيادةً عما حصله غيري في مثل هذه المدة القصيرة انها لاتناسبني لانني لا ارى فيها الا « دق مسامير » هذا الحذاء وخياطة ذاك واصلاح اطراف نعل هذا ولا لذة خصوصية في الصنعة لتشغلني فيها دائماً بل رايت بعد الاختبار القليل ان الانسان فيها معرض دائماً لطعن هذا وشتيمة ذاك تارةً يقال له « حذائي لم ينفع لانه لم يلبس رجلي جيداً » واخرى انه « بطال لانه لم يبقَ جديداً في رجله الا اربعة اشهر » ـ كانه يلزم بقاءه الدهر هكذا ـ وذاك يضيق صدور الخدمة لحارفته ولوسع او ضيق حذائه فضلاً عن الذين يقتنون الحذاء ولا يدفعون ثمنه الا بعد الجهد الجهيد وبعد ان تزوره الف مرة « مع المبالغة القليلة » تتقاضاه ايفاء الدين فرايت انها حياة كثيرة الاتعاب بدون فائدة تذكر لم يلذ لي فيها المقام . ولكنني الان اخشى ان اكون قد اقلقتك حتى نفد صبرك او كاد »

وما انتهى من هذه العبارة حتى سمع الطرق على زجاجة « كباية » يدعوه وزبوناً يامره بالاسراع لخدمته .. فقبل ان يذهب نظر الى التلميذ بتضرع وقال

« ارجوك اذا امكنك ان تبقى هنا قليلاً فاعود اكلك ان لم يكن كلامي مملاً جداً » .

« كلا . بل انتظر قدومك بكل سرور وكلي اذان لاستماع نهاية حديثك لعلي اشير عليك »

« ماذا تامر سيدي ؟ »

« عندكم كبة بالفرن ؟ »

« نعم سيدي »

« هات لنا « صحناً » من الكبة مع قليل من اللبن والفجل والخبز »

« حاضر »

وبينما كان التلميذ يطالع جريدة رفع نظره منها فراى كريماً بجانبه فسأله اذا كان خدم زبونه الجديد

« نعم ولكن . هاقد اتى آخر وذاك يريدماء ساذهب اليهما وارجع بسرعة »

ولم يمض برهة طويلة حتى رجع كريم وخاطب التلميذ هكذا .

« الان اظن انه يمكنني ان اختم الحديث معك اظن بضعة دقائق تكفي » قال هذا وبقى منتصباً على اقدامه ويده على الطاولة « قلت لك انني سئمت عمل الاحذية لانني رايت انه عمل متعب بدون لذة ولهذا اتيت الى هنا اخدم في هذا المكان . ومع انني على يقين ان هذه المهنة ليست باحسن كثيراً ففخر الفتى العمل ولهذا فضلتها على البطالة »

« لا باس من ترك عمل الاحذية ولكن لماذا لا تطالع في الليل حتى تتمكن يوماً ما من خدمة احد التجار فعليك بدرس الدوبيا ولغة من اللغات »

« ولكن وقتي لا يسمح لي ليلاً ولا نهاراً ومع هذا فانظر هذا كتاب باللغة الافرنسية والعربية اطالع فيه ما امكنني فقد اشار عليَّ بذلك احد زبائننا واسمه المعلم نوفل ولكنه لم ينصحني هذه النصيحة حتى استخدم عند احد التجار بل لاتمكن من محادثة من ياتينا من الزبائن الاجانب . اما الان فارى رايك احسن »

« ليس هذا فقط يا كريم بل عليك ان تطالع اللغة العربية وتدرس بكل نشاط ليلاً ونهاراً ما امكنك . اما ليلاً ففي الحي الصيفي مدرسة مخصوصة لهذا الشان واذا شئت فرئيس هذه المدرسة صديقي ويمكنني ان احادثه بشان قبولك »

« كثر الله خيرك انني اصير ممنوناً جدًّا »

« لا يكون عندك ادنى فكر اما الآن فصار وقت ذهابي اسعد الله مساك»
« وانت اسعدتَ مساءً »

قال كريم هذا وتبع التلميذ بانظاره حتى غاب عن عينيه واذ ذاك بهت برهةً يفتكر فيما قال وما قيل له وربما بقي برهة طويلة في بحر من الافكار لولا ان تقدم اليه صاحب الفندق يامره بخدمة احد الزبائن

« ماذا تريد سيدي »
« ت بصحفةٍ من الكوسى «المحشي» ولكن اياك ان تكون مكسره »
« على راسي سيدي حاضر» وذهب فناداه الرجل مغضباً
« انت يا ولد هاي (ياصبي) هل يوجد عندكم كباية احسن من هذه اظن انكم لم تغسلوا هذه منذ تاسيس اللوكندة»

فاجابه كريم « مسكين » انه يغسلها مع انها كانت مغسولة جيدًا ولكن زبوننا المحروس اراد ان يظهر لمن حوله انه تعود النظافة من صغر سنه مع انه لا اظن كان عندهم كباية في بيتهم - غير ان بعض الشبان يريدون اظهار هذه الملاحظات . اما بعضهم فمحقون لان بعض كؤوس الماء في ساحة البرج تبقى بدون ماء شهرًا او ما يقارب الشهر

فصلٌ ثالث

المحبة الفة رحمانية والمام شوقي اوجبها كرم الاله على كل ذي روح وهي في الانفس بقدر مراتبها عند اربابها فيا احدالا وعاشق لامر يستدل به على قدر طبقته في الخلق

(سيد طائفة الجنيد)

(الحب روحٌ تدخل حياة كل بشر ولا تحجب الا قلوب الله

(لاحدهم)

في بيروت بيوت كثيرة اشتهرت إما بالغنى او بالعلم او بالتجارة وكلها

بيوت عرفت في الشرق وامتدت شهرتها الى الغرب بيوت تعتمد البلاد عليها علماً او تجارةً ٠وكان بين بيوت بيروت هذه بيت امتدت شهرة افراده الى اقاصي البلاد وتبادل روساؤُه الاشغال على انواعها مع رجال الشرق والغرب وكاتبوا اعمد الحكام والعلماء والاغنياء الى اقصى الكرة الارضية ٠ وكان بين افراد هذه العائلة سيدة لطيفة المبسم رشيقة القوام هيفاء القد ساحرة العينين اذا نظرتها عشقت كامل تركيبها ورايت ان في وجهها سحرًا خصوصياً لاتعلما لا اذا تحصت سببه وتتبعت مصدره واذ ذاك يمكنك ان تعلم ان مصدره العيون الساحرة وما ادراك ما يفعل هذا السحر يثمل العاشق فيصبح كالمخمور و ينتقل به الى عالم فيه الجمال راس الفضيلة٠ والسحر امُ الاقدام كيف لاوفي تلك العيون سيال ليس لي عبارات كافية لا صفه بها٠ وزد على سحر العيون فمها وهو كانه صيغ من الذهب وابدع من الجوهر فم كانه ابدع لينطق بالدر و معاني السحر وليظهر من جمال الخلق اما قامة تلك الهيفاء فكانت كانها صورة للكمال واية للجمال اعضاءها غاية في التناسب اما شعرها فكان حالك السواد شبيه بلون عينيها ولون وجهها فلم يكن ابيض ناصعاً بل كان حنطياً فاتحاً مملوءًا من نور الحياة وروح الصبا وكفاني ما ذكرت من جمالها الخارجي فانه لم يكن الجاذب الاكبر فيها لانها كانت فائقة الوصف بذكائها سريعة الخاطر حادة الفكر مطلعة دارسة تلقت اكثر العلوم الطبيعية والرياضية والعقلية واتقنت اللغات العربية والانكليزية والافرنسية فصارت تتكلم باللغات الاجنبية كالعربية ــ وكانت ايضاً مزدانة بحلي الادب كل التزيين مكملة بالفضيلة يرهب سطوتها الادبية كل شاب وهذا كان على ما اظن سبب عدم تجاسر احدهم على الاقتراب منها بطلب نوال يدها واكتساب قلبها لانها معما كانت عليه من الجاذب الطبيعي كان فيها ما يبعد عنها كل شاب لانفرة او كرهاً او لعدم اعتبار كاف بل هيبةً ورهبةً ووقارًا لان الناظر اليها

كان يخالها ملاكاً خلقت لتُحب لا لتحب وقد يظن القراء انني اغالي في وصفها ترغيباً لهم بالرواية كلا فانهم اذا دققوا النظر بين سيدات بيروت راوا ان بينهنَّ من تطابق من وصفت اومن اردت ان اصف واذ ذاك اما ان يرشقوني بسهام الملام للمبالغة او ان يقروا بفوتي على وصف الحقيقة بتدقيق — وهنا ارجو ان لا يكون قدفرغ صبر القاري من طول الشرح ولكن اذا كان هذا كذلك فاني اقول لذاك القاري ضع امامك حاجة مكملة بجمالها ول يسعك ان نصفها هكذا« حاجة مكملة » . ؟ . ؟ . الحق بيدي على ما اظن — اما اسمها « لاتصدق انني سأذكر اسمها الحقيقي » فكان افلين . وكانت وقت هذه الحوادث في السادسة عشرة من سنها . سنٌ تبتدي فيه علامات الكمال بالظهور وتظهر فيه دلائل البلوغ والرقة سنٌ يمتلي فيه الوجه من امارات الكياسة والحب . فهل يصعب علينا اذا راينا افلين المحبوبة يوماً ما غارقة في ابحر الحب تائهة في فيافيه لا لعمري «فالحب لا يتحاشى الا قلوب البله»

فصلٌ رابع

لا تقل اصلي وفصلي ابداً   انما اصل الفتى ما قد حصل

(ابن الوردي)

كان بين بيوت بيروت ايضاً بيت اشتهر ونبغ منه من الافراد من يخل الزمان بمثلهم — وكان بينهم فتىً ليس كاخوته الباقين بل كان معجباً بنفسه مفتخراً على ابناء جنسه لايعرف حق المعرفة الا تعداد فضائل افراد عائلته ولا يسهل عليه الا ذكر اعمالهم كانهم من افضل مخلوقات الله . عادة يمجها الذوق السليم وينفر منها كل اديب ومع هذا فكان صديقنا واسمه « اديب »متداخلاً في بيوتات بيروت . يذهب

اينما شاء وتقبلها السيدات بوجوه باشة لانه كان يسعى جهده في مرضاتهن وذلك بذكر النكات المستظرفة وانتقاد هذا وذاك بطرق لطيفة . اما ذوقه في الملابس فكان لطيفاً جداً وكان ذا مقدرة فائقة على مذاكرة السيدات في انواع الملابس وما شاكل . ولم يكن ينفرن من شروحه لانها كانت منسوجة بقالب رقيق لطيف — وكان ياتي على وصف حسن الملابس بهيئة دقيقة يبين فيها لهن تناسب الالوان بعضها للاخر مطبقاً شروحه وافكاره على نواميس طبيعية فلسفية وبالاجمال كان « بابوج عشري » على حسب المرام . غير انه لم يكن فيه فضيلة تذكر وبالاحرى لم يحوِ الا لساناً طلقاً واصلاً جيداً . ولم يكُ يودّ التقرُّب من سيدة خصوصية ولهذا لم يكُ له محبوبة او سيدة خصوصية موضوعاً لتعشقه وتغزله بل كان يشغل نفسه بحب كل جميلة طالباً التفكه بمشاهدة الحسان في كل مكان . وكم من مرة رايته متقن التزين راكباً عربة مع احد اصدقائه او وحده وكم من مرة سالني الذهاب معه الى الحازمية او الحرش او البحر وكنت لما اساله لماذا يقول « للتلذذ بمشاهدة الحسان » وكنت على قدر امكاني انصحه ان ينفرد بمحبة سيدة واحدة يكتسب قلبها ويطلب يدها فكان يفيض عليّ بما يسكتني « لانه لم يكُ قادراً على اقناعي » وكم كان يردد على مسامعي قول الشاعر

ياقلب لاتهوى مليحاً واحداً تختار فيه تحبباً وتدللا
فاهوَ الملاح جميعهم تلقاهمُ ان صدَّ هذا كان ذلك مقبلا

فكنت اسكت كما سبق ظناً مني انه ربما كان المصيب خصوصاً وانني ممن لا يريدون التمسك بارائهم . لانني اظن هذه خلة لا يتمسك بها الا كل جاهل فلكل انسان راي يعتبره واذا صُدّ نفر وغضب . ولهذا ايضاً لم اكُ اريد النصح على صديقي اذ كنت اخشى معاداته اذا نصحته لانني عثرت يوماً على كتابٍ من الحكم رايت فيه هذه العبارة

«اذا شئت ان تعادي فاصحب» اما اديب وهواسم صديقنا كما سبق فكان كيساً قوي البنية ولم يك من الذين يمكنك ان تلومهم وتذكرلم سبب الملام بل كان فتى لا يعرف هزله من جده وهذا السبب في ما ذكرت٠ وكان هذا الشاب من اصدقاء عائلة افلين وكان يتردد عليها من حين الى حين

فصل خامس

وقلّ من جدّ في امرٍ يحاوله واستصحب الجدّ الاّ فاز بالظفرِ
(لبعضهم)

هذه اعمال يذكرها المتاخرون (لاحلم)

«كريم قد مضى الان ثلاثة اشهر على مقابلتنا الاولى واراك قد عرفت شيئاً من اللغة الافرنسية واخبرتني انك تعلمت الدوبيا وقد شهد لك المعلم حبيب انك صرت قادراً على «مسك دفاتر» اي «محل تجاري كان»

«نعم سيدي وصرت ارغب في ترك هذا المحل اذ ارى انني لم اخلق لاخدم في مثل هذا المقام — ونفسي تحدثني بامور اخرى . وخشية ان تضحك عليّ اذا افشيت لك سري سابقي المراد حذاء الفؤاد»

«اضحك عليك يا كريم ؟ وقد قلت لك غير مرة انك قد اخذت بمجامع فؤادي عندما رايتك لاول وهلة قل ما شئت فصدر صديقك واسع لاستيعاب غاياتك ومطالبك»

«ولكن يعرض دون مطالبي شؤون لابد من تغلبها ولذا ترى النفس تكاد تضيق على صاحبها الفضاء فقد سئمت نفسي نقل الصحون والركض من خدمة هذا «الزبون» الى ذاك واي مستقبل يرجوه خادم مثل هذا النزل — فانني لا اؤمل نجاحاً عظيماً ولو كنت صاحب اهم نزل في

هذه البلدة فكيف وانا خادم في اصغرها »

« ولكن لماذا لاتنبئني بعزمك فربما اساعدك »

« غرضي انما هو تعلم الطب فما ر....»

« تعلم الطب ؟ »

« نعم اولم اقل لك انني اعرض نفسي للتهكم ان ابديت مثل هذا الاقرار فها أنك تعجبت وكدت تضحك »

« اضحك عليك يا كريم ؟ معاذ الله فانت جدير بان تنشط من كل انسان فثق انني اول منشط لهذه الافكار »

« اذاً اعذرني اذا اثقلت عليك يبعض الاسئلة »

« تفضل »

« ما هي الامور الاولية التي تطلب من طلبة الطب ؟ »

«يطلب منهم درس لغة اجنبية ودرس الفلسفة واللغة العربية وبعض الجبر والهندسة وكل الحساب والجغرافية »

« وكم يلزم لهذا من الزمان ؟ »

« على الاقل سنة كاملة »

« سيدي انني مطلع قليلاً على اللغة الافرنسية وبعزمي ان ادرس اللغة الانكليزية فمن يدرسني العلوم التي ذكرتها »

فبعد ان بهت صديقنا جابر برهة قال

« انا ادرسك »

« انني غريق بحار مكارمك وساقبل ما تكرمت به علي بدون اعادة الحديث»

« ولكن هل من وقت كافٍ قبل انتهاء الفصل المدرسي القادم »

« لم يزل امامك نحوٌ من اربعة اشهر»

« او هل يمكنك ان تدرسني بدون معاناة مشقات تحرمك من الدرس الكافي والتنزه اللازم »

« نعم يمكني والا لما عرضت نفسي »

« اذاً اعيد القول مختصراً انك المفتاح لحياتي واني ذاكر لطفك وكرم اخلاقك ما حييت

فسابدأ بالدرس من الغد بدون ان اترك عملي الحالي واسأل الله ان ياخذ بيدك ويدي فينيلنا جزاء نياتنا . وفي هذا المقام اسالك افادتي عما يلزمني ابتياعه من الكتب فان لديّ بعض الدراهم انفقها في هذا السبيل »

« عزيزي كريم انا لا احوجك الى انفاق مالك اليسير لان عندي من الكتب ما يلزمك واقدمه لك غداً »

« هذا برهان اخر على كرمك واني اترك احسان جزائك الى الله عن عملك الخيري »

« انك جدير بمساعدة كل وطني غيور وتأكد انني لم ادفع اليك الا بمحبة اخوية فثق بصداقتي واقبل دعاي بنجاحك الدائم »



الكتاب الثاني

فصلٌ اوّل

وحسن دراريّ الكواكب ان ترى طوالع في داج من الليل غيهب
(للبحتري)

ثمرة السعي والاجتهاد الفلاح والتقدم · ونتيجة الكسل التاخر والهوان
(لاحدهم)

مضى على الوقت الذي ذكرناه في الكتاب الاول ما يزيد عن سنة · والان نسير بالقاري الى قاعة الاحتفال السنوي في المدرسة الجامعة الانفة الذكر

كان في ساحة المدرسة الخارجية عربات عديدة وكان تلامذة المدرسة متجمعين هنا وهناك اجواقاً يتداولون الاحاديث· بعضهم تحت هذه الشجرة والبعض الاخر متوسدون الارض بين اشجار الصنوبر الصغيرة وجماعة اخرى على اعتاب البوابة للجهة الشمالية الغربية من القسم العلمي وكان في محل اخر عدد من التلامذة يمرنون اعضاءهم في مرتع التمرين الخاص «الجمنستيك» و يتناظرون بقوة الذراع والساق الخ

وكان القسم الاكبر يقصون على بعضهم ما جرى لكل منهم في امتحانه هذا يقول « كدت اختنق لما رايت ان القضية الرابعة داهمتني ومع اني درستها الدرس الكلي لم يخفَ على الاستاذ تلعثمي غير انه عاملني باللطف وسهل عليّ الامر» وذاك يقول «ان الفحص الخطي لاهون عليّ من اخذ القسم الحجري من عظم الصدغ تنقب معرفتي فيه وعنه من مثل الدكتور ق · · رجل عالم دارس بهذا الفن »واخر يقول« لولا الشجاعة لكان

الدكتور م٠٠٠(مع ماهوعليه من اللطف) غضب على ترددي» وبالاجمال كانت ساحات المدرسة غاصة بالتلامذة واهلهم وباقي جماعة المدعوين حتى اتى وقت الاحتفال فزحف القوم نحو القاعة ولما كل الاجتماع فتح باب العمدة في الطابق السفلي من القسم العلمي وخرج منه الاساتذة بملابسهم الرسمية وما زال الجمهور بانتظارهم حتى دخلوا القاعة باثوابهم السوداء الخصوصية فخفقت قلوب التلامذة لقرب ميعاد اظهار اسماء الممتازين وما لبثوا برهة حتى قرأ احد الاساتذة فصلاً من كتاب الله ثم جرت بعض الامور المصطلح عليها وانتصب الاستاذ — وبيده الشهادات— وقال بصوت جهير «قد امتاز فلان في الدروس الفيسيولوجية» فتقدم المذكور بين تصفيق التلامذة والحضور وتناول شهادة الامتياز بيد راجفة وما انقلب راجعاً حتى ذكر امتيازه ثانية بعلم اخر فصفق له الجمع بحرارة اكثر وروح احرّ — ثم تقدم استاذ اخر وقال « قد امتاز في الكيمياء كريم افندي معلوف» فنظر القوم يميناً وشمالاً لمعرفة المسمى فراوه فتىً حديث السن قوي البنية — ولما كان امره معروفاً عند اكثر التلامذة اخذوا يصفقون له حتى كادت القاعة ان ترتج — اما كريم فسار بقدم ثابت وروح متواضع وتناول شهادته والقوم يصفقون له جميعاً — وبينما هو عائد الى مكانه اوقفه رفيق له وقال ان اسمك يعاد فارجع واحصل على الامتياز الاخر فخجل كريم لعدم سماع اسمه بنفسه غير انه كان معذوراً اذ كان يسير بين غوغاء التصفيق. فعاد وتناول الشهادة والقوم يزيدون اظهار فرحهم و تلامذة صفه افرح الناس بامتيازه مع ان ذلك الامتياز كان عليهم اما فرح العموم به فكان اولاً لحسن سلوكه الخارجي والداخلي — وثانياً نظراً للظروف الشخصية التي كان فيها وهذا سبب رضى الجميع عنه اما اعتبار ابناء صفه له فكان اعتباراً عملياً قد نشأ عن قوته العقلية في ادراك القضايا العملية والعلمية ولتواضعه بينهم ورغبته في

مساعدة كل فرد منهم بلا طلب

ثم ان احد الحضور سال تلميذاً بجانبه «من هذا كريم ؟»

« هذا فتى اقام نفسه من بين العامة بطريقة غريبة قيل انه كان عامل احذية اولاً ثم خدم في نزل ولقي هناك احد تلامذة الطب الذي ساعده على الدروس الاستعدادية ومن الغريب انه تلقى هذه الدروس المطلوبة باربعة اشهر وكنت حاضراً في فحصه وسمعته يجيب اجوبة لاتقل في مكانتها العلمية عن تلك التي يجيبها من درس سنوات عديدة وكان فائزاً في بحر السنة و يساعد الطلبة في دروسهم كافةً كانه درسها من قبلهم»

« اعجب من هذا الفتى اوهل كلامك واقعي ؟»

« اي والحق اولى ان يقال . وزد على ما سبق ان تلامذة القسم العلمي كانوا يطلبون مساعدته في حل القضايا الهندسية والفلسفية وطالما كنت اسمع شروحه الرقيقه اللطيفة لهم . فكاني به استاذ لتعليم الرياضيات والفلسفة . وزد على هذا ايضاً انه كان لم يزل يتعاطى اشغالاً تخصية متعبة لتحصيل ما يقوم باوده اليومي — وهو ثاقب الفكر اديب المعشر (مع انه ربي بين العامة) ولهذا ترى سرور التلامذة بنجاحه مملوءاً من الحماسة والمحبة لانه يقال فيه انه «ابن سعيه واجتهاده» . وقيل انه درس الانكليزية في مدة اربعة اشهر وقد رايته مرة يطالع فيها كتباً علمية عالية وكان يفهم اللغة جيداً »

« ما شاء الله يظهر لي مما تقول انه نابغة »

« هذا امر محقق بالاختبار وقد صار معلوماً بين الاساتذة والتلامذة اجمع »

جرى هذا الحديث بين صديقنا والاساتذة يوزعون شهادات الامتياز وغيرها حتى وصل الدور الى الذين انهوا دروسهم في القسم الطبي

والعلمي فاصعدوا الى منبر القاعة قسماً وراء قسم وتناولوا شهاداتهم النهائية بعد ان خطب فيهم الرئيس الدكتور ... مبتدئاً بهذه العبارة « قد درستم واجتهدتم ونلتم فاذهبوا وافلحوا وتلذوا الخ » وبعد اخذ الشهادات انفض الاجتماع وذهب كلٌّ في سبيله واكثرهم يسألون عن اسماء التلامذة الذين امتازوا و يصغون بلذة فائقة لاستماع تاريخ حياة كريم صديقنا لانه تاريخ مقرون بسعي واجتهاد وتعب واهتمام وما طال الزمان حتى صار كريمنا موضوع حديث البلدة والقوم يثنون على همته و يشكرون من ثباته وتقدمه ـ اما كريم فذهب الى بيته يتامل باحوال الزمان خصوصاً في كيفية صرف الفرصة الكبيرة ـ ولكنه وجد عملاً كافياً في درس العلوم العديدة التي لم يسمح له الزمان بدرسها من قبل . وهكذا انصب على العلم بعزم لا يكل وقوة لا تمل وكان في اثناء هذا يتعاطى بعض الاعمال الشخصية ليكتسب من الدرهم ما يقوم بمصروفه في السنة المدرسية القادمة

فصل ثانٍ

ان الذين ترونهم احوانكم يشفي غليل صدورهم ان تصرعوا
(عنترة بن الطيب)

آفة الحسد الاشتقاق وآفة الاشتقاق الخراب العام (المعصم)

عند الساعة الرابعة بعد ظهر احد الايام قرع ناقل الرسائل البرقية باباً في شوارع نيو يورك في الولايات المتحدة ففتح الباب . وقال الرجل للخادمة

« هل الخواجه دونج هنا ؟ »

« نعم »

« هذه رسالة برقية له ارجوك ان تقدميها له سريعاً »

قال هذا وقفل راجعاً دون ان يهب دقيقة «لقبض البخشيش او لمناولة فنجان قهوة »

فاغلقت الخادمة التي تناولت الرسالة الباب وصعدت سلماً درجاته ثمينة واعمدته (الدرابزون) من النحاس الاصفر البديع والقاعة التي دخلتها في الطبقة الاولى من البيت كانت قاعة بديعة الزينة ثمينة الرياش فيها من الاواني ما لا يعد وكلها مرتبة بذوق هندسي لطيف لا يشوبه عيب وكان هناك سيدة لطيفة على كرسي من المخمل البني وبجانبها ابنة في السادسة عشرة من سنها تلعب باطراف ثوب والدتها والام تحرك اناملها على جبينها وكان بيد الابنة كتاب تقراء فيه لوالدتها

فقالت الخادمة بعد ان قرعت الباب ودخلت

« الخواجه دوتج هنا ؟ »

« لا واظنه في مكتبه »

« كثر خيرك » قالت هذا واغلقت الباب وذهبت الى المكتب في الطابق السفلي فقرعت الباب . فقال صوت من داخل تلك المكتبة « ادخل »

فدخلت الخادمة وبيدها صينية من الفضة عليها الرسالة البرقية المذكورة وقالت « تفضل سيدي » فتناولها الخواجه دوتج وخرجت الخادمة

فلما فض ختامها وجد انها من بيروت واتماماً للفائدة نقدم صورتها للقاري العزيز ولو كنت بذا انقض عهداً عقدته مع الذي سلمنيها

« بيروت . اني اقدم استعفائي من التعليم في المدرسة الجامعة بناء على »

« بعض الاسباب التي تصلكم بتحرير مخصوص » الامضاء . . (ترجمة)

فوضع الخواجه المذكور انامله على جبينه وقال ها قد تم ما اخبرت به ولست ادري سبباً لذلك الا رسالة من رئيس تلك المدرسة وقد سها عن بالي مضمونها قال هذا وذهب الى خزانة في المكتبة واعاد نظره

على الرسالة فراها لاتفي بالغرض ولكن قرر انه بعد مواجهة كل العمدة يرسل تلغرافاً للاستاذ ن٠٠٠ بقبول استعفائه٠ولكي لا يصعب فهم المسالة على القاري نقدم له صورة التحرير الذي ارسله رئيس المدرسة الى الخواجه المذكور رئيس عمدة المدرسة الجامعة المقيم في نيويورك

« بيروت المدرسة الجامعة٠٠٠٠ في ١٦ ايلول سنة ــ ١٨

«عزيزي قدمت لك خلافه افيدك فيه عن وصول التحاويل التي ارسلتها وارسلت لك وصلاً فيها٠احوال المدرسة جيدة بعون الله وقد اخبرتك خصصاً عن نتيجة اعمالنا عن سنة ــ ١٨ وارسلت العمدة تقريراً عمومياً لكم بذلك ٠

«اما الان فقصدي الخصوصي بهذه الرسالة ان اوجه انظارك لبعض الامور المهمة بتاريخ مدرستنا وهي ان الاستاذ ن٠٠٠ خالف المبدأ المرسل لاجله كل المخالفة٠وذلك لبثه في صدور التلامذة بعض التعاليم المنكرة وايضاً لتعلقه ببعض العوائد المذمومة٠ولهذا قررت العمدة ان تخاطبه مع احد اساتذتها النافذي الكلمة ناصحاً له ان يستعفي حتى لا يرفض رفضاً من العمدة٠وكل هذه امور تقررت رسمياً هنا ولكون وقت الاجتماع العام لم يزل بعيداً اجرت مخابرت الاعضاء جميعهم شخصياً ٠فاذا تقدم لكم من الاستاذ المذكور رسالة برقية او تحرير بطلب الاستعفاء فالرجا ان تقبلوا ذلك الطلب وسنقدم لكم تقريراً عمومياً يبري ساحتنا في هذا الطلب والمحبة في الختام صديقك المخلص

(ترجمة) (فلان)

اما الخواجه دودج فلم يرَ بدًّا من قبول الاستعفاء بناء على ما في الرسالة ولكنه لم يشأ ان ياتي بعمل ما الا بعد مشورة العمدة جميعها ومع انه كان منهمكاً بعدة امور اخرى شخصية اخذ قلماً وقرطاساً وكتب تحريراً هذه صورته

«دونج فيله بشارع وشنطن تشرين ثاني سنة ـ ١٨ »

«عزيزي راندولف

حدثت امور مهمة تستدعي اجتماع العمدة فارجوك ان تجمعها بالرسائل الخصوصية المعجلة نهار غد الساعة الخامسة بعد الظهر و يلزم تنبيههم ان الامر مهم يلزمه عدد كاف للحكم النهائي السريع»

«صديقك دونج»

« الى كاتم اسرار عمدة المدرسة الجامعة في نيو يورك »

ولما كانت الساعة الخامسة من نهار اليوم التالي كنت ترى في قاعة كبيرة (في احد شوارع نيويورك) عدداً من الخواجات مجتمعين حول طاولة مغطاة بالاوراق والدفاتر والاقلام والقراطيس. اما القاعة فكانت محتوية على الطاولة المذكورة وكراسي نفيسة عديدة حولها وكان على جدرانها عدة من صور مشاهير اميركا خصوصاً الذين افادوا في جمع الدراهم للاعمال الخيرية في الشرق. و بعد اجتماع طالت مدته حتى الساعة الثامنة خلت القاعة من العمدة وذهب كلٌّ منهم في سبيله

. . . .

فصلٌ ثالث

لو كنت اعجب من شيء لاعجبني	سعي الفتي وهو مخبوءٌ له القدرُ
يسعى الفتي لامور ليس يدركها	فالنفسُ واحدة والهمُّ منتشرُ

(كعب بن زهير)

ولله درّ الحب ما اعظم فعله (لاحدهم)

كان تلامذة المدرسة في دروسهم كلٌّ يسعى وراء الامتياز على

رفاقه وكل فتى يكد الليل كالنهار في دروسه منهم لزيادة لذة بدقائق العلم ومنهم من كان يدرس ارضاء لشيبة والد او حباً بمسرة والدة او لمجاراة ابناء العصر اولكسب ما يقوم برفعة الشان ومنهم من كان يدرس لنوال وظيفة مهمة بين الوظائف المدنية ليرقى بواسطتها معارج الفخر والشرف ومنهم من كان يسعى وراء الشهرة ارضاء لناعمة خد وبديعة قد . ومن هولاء من كان يكد ويجد الليل مع النهار لتصل اخبار اقدامه الي محبوبته فترغب فيه ويزيد اعتبارها له ومنهم من كان يسعي دارساً لكسب حرفة ما ينال بواسطتها المال للقيام بمساعي ومطامع تمتد رؤوسها للعلاء . علي هذه الحالة كانت المدرسة الجامعة فيها نفوس تكاد تبلغ عنان النجم عزة و بين شبانها افراد لاتدنس ادابهم اكثر حوادث الارض تغريراً وكان السواد الاعظم من التلامذة يؤلفون الجمعيات ويلقون الخطب و يتباحثون في مباحث العصر العلمية والصناعية والطبية حتى كاد يخال لفاحص تلك المدرسة انها اية الدهر وغرة في جبين العصر

وكان صف الكيمياء للمبتدئين في القسم الطبي في الشهر الثالث من السنة التابعة للحوادث التي ذكرتها في الفصل الاول من الكتاب الثاني يمرن ذاته بعمليات كيمية مدهشة ويكشف عن خبايا علم يتنزه العقل في ربوعه بلذة لاتوصف . يقسمون اجسام الكون الى عيال والعيال الى افراد والافراد الى دقائق وهناك يقفون معجبين بتركيب الكون ووجود الكائنات ويعرفون بواسطة هذا العلم الشريف مادة ذاك النجم وهذا السيار ويدخلون الى جوف الارض ينقبون في معادنها و يتفحصون ماهيتها وكيف تتكون كيماوياً وكانوا يلتذون زيادة باعطاء كل عائلة اسماً تعرف به وكانوا يزدادون عجباً لما يتاملون بتركيب الجواهر وتقربها من بعضها وابعادها تجري عليها الاعمال الطبيعية بحيث تغير في شكلها ولكن لاتغير في نوعها اذ تقف هناك مقرة بالعجز خاضعة لرب الكائنات . بهذه الامور

كان يتثقف الصف الاول من القسم الطبي حتى فاجأته المصيبة الاتي ذكرها فشتتت شمله وفرّقت جمعه

فصل رابع

ابغي الوفاء بدهر لا وفاء به كانني جاهلٌ بالدهر والناس
(ابي فراس)

ومتى التفتيش به ثانيةً قولي له ما فعل الزمان بقلبي
(اللورد ليتون)

« هذا جوابٌ لتلغرافي الذي ذكرت لك عنه فقد أزف الوقت الذي فيه اترك هذه البلاد المحبوبة التي طالما اجهدت النفس في تلقين افرادها العلوم ظناً مني انني اقيم بين ظهرانيهم الى الابد (فان حبي لابناء البلاد دفعني الى المجاهده وحبب اليّ التدريس وليس الظن بالبقاء فقط) بغيةَ ان اشاهد ثمرات اتعابي واتمتع باجتنائها من اغصان دانيات القطوف »

« خفض عليك عزيزي ن.. فان هذه احوال الدهر تتقلب بالافراد وتغير استعدادهم فيصبحون وهم لا يدرون ما يصنعون »

« ه.ه هذه نتيجة خدمة سنوات عديده ان يجبر الاستاذ على الاستعفاء « حتى لا يطرد » ولعمري انني غير عارف كيف يكون تاثير هذا النبا الصادع على التلامذه فالوقت قد ضاق وليس لي سوى عشر دقائق لمدة التدريس ولا ادري ما اقوله لهم ولا ما اخاطبهم به»

هذه محادثة تبادلها الاستاذ ن... واحد اصدقائه ولما كانت الساعة التاسعة من صباح ذلك اليوم ـ الاثنين ـ الواقع في .. شهر كانون الاول ـ ١٨ بينما كان تلامذه الصف المبتدي بانتظار الاستاذ ن

دخل حضرته عليهم وبدلاً من تلك الملامح الساميـة ومظاهر الابتسام الاعتيادية ظهرت على محياه دلائل الاهتمام المقرونة بعزة النفس تكتنف تقاطيع وجهه علامات الصبر على بلواه

فبهت التلامذة وشخصت الانظار واحدقت به العيون مظهرة العجب العجاب لعدم ابداء تحياته كالعادة المألوفة ثم اشتغلت خواطرهم في التفكر بالاسباب كلٌّ كما شاء خاطره وشاء الحدس والتخمين الى ان فض الاستاذ ذلك السكوت بان امرّ يده على جبهته برهة كمن هو غارق في بحار التفكر والامعان ثم اخرج من جيبه ورقتين وقال

«لاغرو ان تعجبوا ايها الاعزاء من تصرفي خصوصاً وقد دخلت اليكم بدون التحية العادية وحبذا لو امكنني ان اخفي ما اقاسي غير ان الفواد عصى العقل ومن ذا الذي لا يذل لانفعالات النفس ٠ فانا انبئكم بذلك الامر وقد عصيني الجنان وخانني الصبر لاسيما عندما ردّدت الى خاطري الذكرى ان هذه المرة هي الاخيرة التي اشاهدكم بها على هذه الصفة وان هذا الاجتماع هو اخر اجتماع ادخل به عليكم بصفة استاذ بل هـذا المقام اخر مقام اراًسكم فيه ابثُّ في افئدتكم روحاً ترقى بكم اسمى درجات الفخر

«أجل اعزائي الجأتني الظروف اضطراراً لا اختياراً الى تقديم استعفائي لعمدة المدرسة في اميركا وهذه صورة تلغرافي « واراهم اياه وقد سبق ذكره في الفصل الثاني من الكتاب الاول»

« وهذا جواب العمدة »

«ن ٠٠٠ بيروت سوريا»

« قبلت العمده استعفاءكم فاعتبروا ذاتكم منفصلين الامضاء العمدة»

ترجمة

« فيا ايها الاحباء الذين ارضعتكم من ثدي العلوم زمناً طويلاً

البانا زادت في قوة عقولكم وادابكم . اودعكم الان وداع اب لاولاده واخ لاخوانه الوداع الذي لا ارجو بعده لقاء . ولست اودعكم انتم فقط بل وجميع احبابي التلامذة الذين تلقوا العلم كما تتلقونه انتم والذين سبقوكم الى خدمة وطنهم . اودعكم والقلب يأبى ذلك غير ان الضرورات تبيح المحظورات وابت الظروف الا ان تحكم بما حكمت والاحوال جائره كما تعلمون

«اخواني واعزاي وتلامذتي ربما اكون في غضون اقامتي بينكم قد اسأتُ معاملة احدكم ان سهواً وان عمداً فالعفو اسأله الفاً من ذلك الفرد ولتبقَ بيننا علاقات الوداد النقية التي لا تشوبها شائبة ولا يكدرها مكدر متينة شديدة وثيقة العرى مستحكمة الاتصال

«هذه خاتمة كلامي وارجوكم ان لا يغرب عن بالكم صديقكم وملقنكم العلم واذكروني بالخير لاصدقائكم التلامذة السابقين وتيقنوا انني باقٍ مدى العمر حليف ودادكم لا انسى بلادكم وبلادي بل انا افتخر بهذا القول فبلادكم ملكة الدهر وان كانت الان تنحط عن بعض البلدان سواها فانها اساس مجد الدول وعنوان تقدمها اما اذا عارضكم احد في هذا القول وقال لكم ما يخالفه فكذبوه انه جاحد المعروف كافر بالنعمة

انتهى

« هل علمت سبب الاستعفاء يانجيب ؟ »

« نعم عرفت ولو لم ينحب حالاً بعد هذه الكلمات الدرية التي فاه بها لكنت القيت نفسي عليه وقبلته »

« وقد شعرنا كلنا بهذا . وانما قص علينا سبب الاستعفاء »

فقصَّ عليهم ما علم مما اشرنا اليه اشارةً وكل يزيد اسفه كلما تقدم نجيب بحديثه

« والله اننا بلينا بهذه المصيبة لتعاسة شخصية دُهمنا بها »

« نعم كيف لا وليس بوسع العمدة الان ان تعين لنا من هو ببراعته

لانه قد صرف سنين طوالاً وهو يدرس هذه الفنون »
فتفرقوا و بعضهم يقول «ماادراك انا سندرس بعد» والبعض الاخر «سياتيك
با لاخبار من لم تزودِ»

فصلٌ خامس

ولا بدّ من امل للفتى تمام المنى ابداً حاملُ (للرضي)
• والاّ فصبرًا من الله طويلاً اطلب
(الاصم)

«هذه احوال الزمان وافعال الدهر يسير الفتى نحو امرٍ تتوجه اليه قواه فتطرا عليه العوارض وتقوى المصاعب فتلجئه للانقلاب عن عزمه وتغير في انموذج مسيره فيصبح لايدري كيف تتقاذفه تيارات العوامل ولا يفقه ما اذخره له الدهر . ليتني بقيت عامل احذية لا تعمل على مستقبلي اغراض هذا وسياسة ذاك وحبذا لو بقيت خادم نزل فلربما كنت اؤمل بلوغي رتبة طاهٍ اطبخ مواد الطعام ولا تطبخني مواد الاوهام . كنت في رغدٍ اطارد الدروس على مصاعبي واسعى وراء العلم على بلادتي وكنت راضياً بما قسم لي ظناً مني ان الزمان يمنّ عليّ برتبة طبيب فاسعى جهدي لانتشال نفسي وعائلتي من وهدة الفقر ولكن ابى الدهر الا معاكستي وآلت الظروف الا معارضتي .... اين اين وجهكِ ايتها الفتاة المحبوبة انتِ يافريدة الخصال .. انتِ ياكريمة الاخلاق . كنتِ السبب في تركي العالم الدني وطلبي العالم الاعلى ... رايتكِ اولاً وثانياً تمرّين امام محلي وانا اعمل الاحذية فسعيت لترك ذلك المكان لما علمت بعلوّ مقامك وارتفاع درجتك عني . صرفت ماء الحياة يامصدرها ـ حتى

رقيت الى درجة طالب علم وما ذلك الا ليهون عليّ طلبك من اهلك متى قدرت ·ولكن ····· في هذا الصدر دفنت غاياتي· وفي هذا الفؤاد قفلت على مطامعي . وانتِ لا تعلمين· كنت ايام العمل الصناعي بعيداً عن الوصول الى معرفتك ولكن سهل عليّ الله يا اكرم خلائقه . ان ادنو من شخصك وكم من ساعةٍ صرفتها اتلذذ باستماع شروحك الفائقة الفاتنة وكم من مرةٍ سمعت عن لسانكِ ذكر قصتي وما كان ذلك الا ليحيي في نفسي حاسة الامل لانني كنت في كل آن اتنسم من مقابلتكِ انك تعتبرين ما انا عليه وقلبكِ بعيد عني جداً ···· افلين افلين انا واثق كيفَ كانت ظروفي اني لست اهلاً لاحلّ سيور حذائك ولكن ابن روحك لا اراها واطلب منها ان تفيدك انني بدونكِ اكون كسمكةٍ في جوف ·الرمل و بدون امل مبادلة حبك ولو دون الاقتران اعيش فريداً عن العالم .وان كنتِ تقبلين فامنحيني . ياعشيرة الصبا املاً يحيي الفؤاد الطاهر و يزيد في القوة العقلية والجسدية لاقتحام الاهوال ومنازلة المصائب

« افلين ، ماذا اصنع لكي ارضيك ؟ ارى ان ابواب النجاح قد اقفلت في وجهي فابقِ انت سنداً لي ولا تعرضي بوجهك البسام عني وباب الله واسع يا حياتي·····»

لا يخفى على القارئ ان مناجي نفسه لم يكُ الا صديقنا كريماً ويحق له ان يندب حالته لانه اقسم ايام متاعب المدرسة التي نتجت عن انفصال الاستاذ ن . .وغيره ألاّ يرجع اليها إلا اذا وقعت عمدة تلك المدرسة على شروط خصوصية · فلم يرجع تمسكاً بذاك القسم مع علمه انه اذا بقي مصرًّا على رايه يلقي نفسه في وهدة خراب تلبك حالة مستقبله وعلم انه متى ذهبت نشوة الصبا وظهر لهُ العالم بما هو عليه يندم على مافعل غاية الندم .ولكن عزة نفسه وشهامته الشخصية كانا امرين مانعين له عن نكث وعد الوفاء والرجوع بقسمه امام عددٍ يزيد عن

الاربعين . وكان عالماً حق العلم انه اذا تمسك بذاك القسم يخسر مستقبلاً حسناً و يحرم رضى فئة عظمت سطوتها في البلاد وامتدت قوتها بين العباد ولو بين افراد طائفة خصوصية – و بينما هو على هذه الحالة من انشغال البال دخل عليه صديق له وبعد ان حياه قال

« على مَ عزمت ايها الكريم ؟ على الرجوع اوعدمه »

« كيف ارجع وقد اقسمت ان لا اخون رفاقي ولا انقض عهد الاتفاق معهم »

« ما اجهل الشباب يا كريم . وانت فتىً يرجى لك نجاحاً في مهنتك وقد شهد لك التلامذة والاساتذة بعلو الهمة وارتفاع درجة العقل . وكل يقرُّ لك بالموهبة التي خصصت بها من لدنه تعالى . فعليك بترك الجهل ومتى تقدمت في العالم ترى ان انسحابك من اتفاق كهذا لا يعد اهانة »

« انني افقه كلامك ايها «الاديب» واعترف انك لتقدمك في السن اخبر مني في أحوال الزمان وانني على رايك من حيث جهالة العمل كله ولكنني فتىً احب الموت شريفاً ولا الحياة ذليلاً . قد يمكن ان ارشق بسهام الملام في مستقبل الحياة لعملي هذا او لغيره غير انني ساجتهد العمر حتى لا اعرض نفسي لسهام ملام الكون . واذا رشقت وانا واثق ببرآءة نفسي احتقرت ذاك الملام باطناً وضربت صفحاً عن الاحتقار ظاهراً . انا اعلم ان وراء صنيعي هذا مشقات ومتاعب لا تحصى غير انني ارى ان لا لذة في الحياة الا بالمغالبة وخير الامور ما حصل بالمجاهدة والتعب والا فما فضل للانسان اذا تدفقت عليه الخيرات والملاذ دون جدٍّ يذكر اوتعبٍ يشكر »

« في كلامك بعض الحقيقة ولكن لا ارى بدّاً من القول ان في عباراتك فقرات مملوّة بحماسة الشباب التي تذهب بتقدم الايام واقول لك ان هذا لا يفيدك فانا ناصح لك والايام تظهر لك

صدق نصحي »

« سيدي اقول لك للمرة الثانية انه لا يمكنني ان اقنع النفس بالانسحاب عن امور اری نفسي مصيباً بطلبها. نعم كان يجب عليّ ان لا اطلبها وانا اثق بعدم نوالها . غير ان الانسان حرٌّ ان ينادي باوجاعه اذا ظلم ولو كان النداء لا يفيد الا بزيادة الظلم : فما قولك ؟

« لا اقول الا انك فصيح وتكاد تقنعني بعباراتك السامية من حيث المبدإ الادبي غير ان الظروف مخالفة ما تتوهم : فعليك بالخضوع لها ولو كلفك ذلك تضحية ادبية . او لست تدري انني عارف باسرار اجتماعاتكم على الرمل وعلى شواطيء البحر وفي بيوت بعض التلامذة و... »

فقاطعه كريم قائلاً

« انت عالم بهذا وواقف على اسرار اجتماعاتنا وتلومني على الخطة التي اتخذتها ؟ بالله عليك ان تكف الملام والا فمرني ان اخضع عواطفي لغير الحق فذلك اهون عليّ من ان اراك مجتهداً في تضحية الحقيقة للوهم — اما نحن فلا نقصد ترك الدروس بل سنلازمها في بيوت الاساتذة والعلم لا يجنى في القصور الشاهقة وحدها »

« اقول لك يا كريم — قول مختبر — ان دروسكم لا تفيدكم على هذه الطريقة وانني واقف على كل ما تسعون وراءه واعيد قولي باسف انها لا تدوم واراهنك على ذلك وعند اللزوم يذكر احدنا الاخر »

قال هذا صديق كريم وخرج من غرفته بعد ان ودعه . فاخذ كريم يتأمل بما قاله صديقه ورای ان في ارائه اصابة كلية . غير انه كان قد صمم النية على سلوك الخطة التي اتخذها فصارت فيه علة لا تقبل دواء

———

فصلٌ سادس

ما كتب ما استطيع كتابته الان واتغزل فيما يمكنني ان اتغزل ٠ (ده سافيته)

« اين سهرتم امس ايها العزيز حليم ؟ »

«سهرنا في بيت ... .وكانت سهرة حافلة»

« من كان هناك من الاصدقاء ؟ »

كان سليم عزيزك وكانت السيدة .. .والسيدة ... وكان الافندي ... .وو »

« ماذا كان الراي بشان مركزنا الحاضر؟ »

« الكل كانوا يحامون عن حقوقنا غير انه يخشى على ما سمعت ان بعض التلامذة ينقضون العهود و يرجعون »

« هذا غير ممكن »

« ليس شيء على وجه البسيطة غير ممكن يا كريم »

« ولكن الاقسام ... . الاقسام ؟ »

«ما كل من قال القصائد شاعرٌ هيهات يطعن كل من حمل القنا»

«اليك عن هذه الامور واخبرني كيف صرفت مساء البارحة ؟ »

« كنت اكتب في موضوع . ..حتى الساعة التاسعة ثم ذهبت الى بيت ...وكان هناك فلان .وفلان وفلان . وصرفنا السهرة بالمحاورة الجارية بين الجريدة ...وبين .... »

« ونحن ايضاً صرفنا بعض السهرة بهذا الحديث وا عجب كيف ان رجال العلم في هذه البلاد يبارون بعضهم بذم احدهم الاخر وما ذلك الا فعل الحساد المحيطين بكل فئة من فئات رجال العلم وهم الذين يوغرون صدور اولئك الافراد و يغرونهم على القذف كلٌّ بزميله

وهم ينظرون »

«وهذا ما يقلل عزمي ياحليم فكم قد سعى اصحاب الجريدة ٠٠٠٠ في حياتهم لتقدم انفسهم ـ بحجة تقدم البلاد ـ وكم قد كتبوا ٠ والان لمجرد توهم غلطهم قامت عليهم القيامة والكل يصرخون ـ اصلبوه ـ فهل يمكنا نحن ان نصنع اكثر مما صنعوا لنخلو من الغلط»

« ولكن عزيزي حليم حسبنا ما قاسى غيرنا من الاهوال فتأكد انه لايتم نجاح في الكون الا بالمجاهدة ٠ وارى ان العلم والعلماء يهانون اذا تقلد امورهم ابناء الزمان الذين لايدرون من العلم الا الاسم ومن المعرفة الا الرسم ـ فما يعني البشر من انتقاد اصل ذاك الكاتب وفصله اذا كانت المناقشة في العلم ـ او ليس هذا من التمسك بالعرض دون الجوهر؟ »

« نعم كريم وهذا يضيق بوجهي فسيح هذه البلاد لانني لا ارى فيها من المناظرات الا ما ينفر منه سمع كل اديب ويمجه ذوق كل فاضل او لست ترى ان من يسود عندنا ليس الا ابن ذاك الغني ٠ وصاحب تلك الوظيفة المهمة بنفسها بقطع النظر عن الاهلية الشخصية ؟ ٠ كنت اول البارح في بيت فلان ولكوني فارغ الجيوب قابلني اهل المكان بكل برودة وكان هناك فلان يبحث في امور لاتطابق مبدأ من المبادىء الطبيعية او البشرية او الادبية ولكوني كنت الاحظ على بعض اقواله ملاحظات لطيفة كانت تقوم عليّ القيامة ويختلف القوم عليّ بين مضاد ومعارض ـ ولكن بدون برهان ـ كل يقول « الحق بيد فلان ٠٠٠٠ كيف تعارضه كيف؟ » فكنت الزم الصمت غير مقتنع دون ان انطق ببنت شفة »

« هذه امور عرضية في بابها ياحليم فالزمن طويل ولا بد من اظهار فضل الفاضل ولو بعد حين »

« كيف يمكن اظهار فضل الفاضل ونرى الجاهل ـ في ايامنا هذه ـ

صاحب السطوة ورب النفوذ»

«لكل عصر دولة. ولكل بداية نهاية الا بداية الكون فلا نهاية لها فدعنا نصبر على مضض الايام والا فلسنا رجالاً »

«كلامك صدق ولكن يعزُّ عليَّ ان اري النفوذ موكول الى اصحاب المال دون غيرهم

«الا تعلم ياصديقي ان اصحاب المال يعشى اليهم في كل حال اوَ لست تدري ان الغاية في دفاع البعض عن الاغنياء انما هي للارضاء طمعاً بالحصول على المساعدات في حينها اوَ لست تدري ان نصف المدافعين عن الاغنياء في بلادنا مديونون لهم ,فثق واعقل واعلم ان قوة المال في صدر كل قوّة»

« انني عالم بهذا كله ولكنه يجب على اصحاب المبادي ان يكونوا احرار الضمير والاَّ فاين المبادي ولماذا وجد هذا الاسم اذا كان المسمى مفقوداً »

«المبدأُ ابن الظروف ياحبيبي والظروف طوع القوّة والقوة هنا وغير هنا للمال . للمال . فعليك بطلبّ ما انت راغب فيه من اسباب الحياة دون ان تذهب وقتك بمثل هذه الامور»

«عزيزي كل هذه الامور علمتها منذ حداثتي ولكنه يجب على اصحاب البيوت عندنا ان يراعوا الاصول ولا يقابلوا هذا بوجه باش ويضحكون ولكن لا يمرُّ ساعة حتى يصير اسمه «بعد ذهابه» مغضة في الافواه وعرضةً لسهام ملام لا ترشق الا على ابناء الازقة فهذه امور معروفة بين الافراد ولذا ترى الاخلاص بعيداً والنميمة حليفة كل فرد والاستغابة حليته »

«ولكنه ليس كل البيوت هكذا فاختر لنفسك البيوت المعروفة بالادب فبيروت غاصة بها»

« نعم ليس كل البيوت على هذا المنوال ولكن ما قولك في من لا يعرف الا بيوتاً تهزأ بكل انسان حتى بأكبر العلماء ورجال الفضل الادباء قوم يلعبون بأسم كل بشر كأن البعض خلق ليكون موضوعاً لملذات البعض الاخر ... »

« هذه افة ليست في بلادنا فقط ايها النجيب بل على كل بلاد فهل يمكننا نحن ان نقوم باصلاح الكون؟ عن قريب سنكون مثل هولاء الذين نذمهم الا تعلم ان فراغ الجعبة من الامور المفيدة يقود البشر للتفكه بانتقاد هذا وذاك وانتقاد ملابس هذه وتلك ؟ فمتى فرغنا من الدروس والاهتمام بها نصير مثل غيرنا فعليك بالسكوت الان لئلا يكون سقوطنا عظيماً »

« والله يا كريم »

« اسكت لا تنطق باسم الله باطلاً »

« اذاً وعزّة النفس انني احتقر من اتكل على غيره ان في قيادة الذوق او في الخضوع الادبي اما من حيث الحسد (الذي اراك تريد الالماع اليه) فلا يخلو منه احد اما انا فوحرمة الادب افرح اذا سمعت بنجاح هذا وتقدم ذاك فكيف انتقد . مثلاً . اعمال فلان اذا كان فيها بعض الخطإ او النقص فمن الواجب عليّ وعليك ان نغض الطرف في مثل هذه الظروف فالتقدم لا يتم كالبرق والنجاح لا يحصل كالصباغة ؟ اما من جهة اعمال الناس مع بعضهم فهذه امور اقصها عليك لانها حدثت معي شخصياً . تعودت منذ حداثتي ان اشارك القوم في احزانهم وافرح لافراحهم وذلك من صميم القلب لغاية لا يشوبها كدر او نقص ولكن لما كنت افرح كنت أحزن حتى نفس الذين كنت اشعر معهم ــ حتى نفس الذين كنت ابكي لبكاهم واضحك لضحكهم ولما كنت أحزن كنت أفرح وكان القوم « على حداثتي » يسرون بسقوطي و يتكدرون لنجاحي فهذه

احوال البلاد اما انا فسابقى كما انا وليصنع الناس ما يصنعون ويشاؤون»

«كلامك حق ولكن لولا الانتقاد لما عرفت الحقائق وما ظهر للعالم فساد هذا المبدا وصدق ذاك اما من حيث الحاسات الاخرى فكلها معروفة»

«حسن ولكن اذا اخطأ صاحب الجريدة الفلانية مثلاً في علم من العلوم او في مسألة من المسائل لا يعلمها الا الافراد المعدودون يصير ابناء الازقة المحكمون وبأي الامور بامر لبسه ·وابن من هو وكم عنده الخ ··»

اذا اخطأ كاتب فعلى رجال العلم ان يصلحوا اغلاطه بطريقة لطيفة ادبية · حتى لا يصير العلم والعلماء العوبة في ايادي العامة»

«عزيزي حليم على م تحتقر العامة كأنهم ما خلقوا بيد العزة فهم قوم لا يمكنهم الآن يبحثوا في ما يعرض امام انظارهم يسمعون مثلاً ان العالم الفلاني انتقد فلاناً ولكونهم يعتقدون بقوة المنتقِد على المنتقَد فاذا قال قد اخطأ فلان بالمبدا الديني الفلاني وذلك من وجه كفر» ينادون بكفر المنتقد وهذا ما تدركه عقولهم فهل تطلب منهم زيادةً عما يعرفون· وليس هذا فقط ولكن اذا اخطأ فلان مثلاً خطأً واحداً في المبدا الفلاني (العلمي) ينتقده احدهم «ويكون كالاول باعين البعض فيقول مثلاً» « قد اخطأ فلان في تبويب المسألة الفلانية واذا نظر فيها من حيث المنطق رأينا انها لا تطابق المبدا الصحيح فذلك جهل » فلا يفقه العامة من الخطاب الا كلمة الجهل فينادون بجهل الكاتب ويقبحون عمله كأن الانسان خلق لتكمل صفاته ولا تحد معرفته · فهل تريد ان يكون جميع الناس فلاسفة ؟

« بالله عليك يا كريم ان تتركني من هذه المواضيع فانها لا تزيدني الا بلاءً اما الان فقد صار الوقت للذهاب الى التنزه فهل ترافقني؟

« الى اين ؟»

« الى الحازمية »

« حسن »

« اذاً فلنستأجر عربةً »

«انا افضل المشي»

« عليك بالعدول عن المشي فالطقس حار والغبار كثير»

« سمعت ان البلدية ترطب الطريق (ترشها)

«عزيزي البلدية ترش بعضها « واسبه رش» ولكن البلدية فقيرة ولا يمكنها ان ترش الطريق كلها»

الراي ما اشرت فاذهب كيف شئت

فتوجها الى الحازمية وكانا بطريقهما يمران بشاق « الغبار الى ركبهم» وبراكبي عربات وفرسان بين سيدات ورجال والسواد الاعظم بالثياب الافرنجية المرتبة والبعض في بحور سروجهم تتدلى على اطرافها اثوابهم الشرقية البديعة لبس الملوك القدماء التي بدلت بسواها . اما الاخرون « على ظهور الخيول » فمنهم من كان « يهد ويقد » كانه عنترة الزمان وهو لا يدري من الركب الا « اعتلا صهوة الجواد » اما بعضهم فكانوا على خيولهم كانهم خلقوا ليزينوها وهذه منحة اخص بها الباري رجال بلادنا والبعض بالعربات تنهب خيولها الارض نهباً وصوت اسواط الساقة يصم الاذان

« فقال كريم لصديقه»

«وحياتك انني لا ارغب التنزه في مكان كهذا فهو يذكرني بمجد عيشة فاخرة لا ارغبها خصوصاً واني بعيد عنها من حيث الاقتدار المادي واذا اتيت زاد كدري

« زاد كدرك ؟ هه ، هه ، كريم انحسد هولاء القوم وانت من ابناء

المبادي »

«هل تفهم من كلامي انني احسدهم كلاّ فهم اغنياء اعطاهم الله غناهم . وانا لست من الجمهوريين اولاً لاحسدهم ولا من محبي الشرف . ولكنني لا ارغب ان يظهر لي فقري بمرآة مكبرة»

« كريم . كريم . عدم المواخذة على مقاطعتك » انظر هذا ابن . . . مدخوله السنوي نحو عشرون الف ليره . وانظر تلك الغادة مع اخيها « في العربة الثانية » هذه محط امال الفتى السابق ذكره « صاحب الالوف » ويقولون ان عندها نيفاً واربعين الفاً انظر كيف يرفع لها قبعته « سوق ياعربجي شوي بزيادة » انظر يا كريم الى احمرارها لما مرت عربتها حذاء عربته هل لا يمكنك ان تسوق بزيادة يا . . شو اسمك »

«سعيد سيدي »

« ياسعيد»

« حاضر تحت امرك »

« ما بالك ياحليم تخبط خبط عشواء ساعة تحادث السائق واخرى تحادثني فقد ملات راسي بذكر الدراهم« الوهمية »والقبعات والاحمرار الخ ، ما لنا و للبشر فلنتحادث عما يفيدنا و دعهم يتمتعون بما عندهم ولهم »

« ولكن هل يضرنا ان نتمتع برؤية الغيد الملاح فهن لكل ناظر»

« . نعم . نعم . نعم (قال هذه الكلمات صديقنا بتلعثم)

« ما بالك تعيد كلمة نعم وقد زاد تلعثمك كثيراً »

«لا شي ماذا كان موضوعنا »

« التمتع بالجمال الخ هه . هه . من هذه السيدة التي تحييها ورفيقها »

« هذه اڤلين . . . . والاخر اخوها . . . .

«هذه آية في الجمال يا كريم»

« وماذا يهمنا جمالها »

« لا يهمك جمالها وتدعي الرجولية »

« انني ادعي الرجولية ولكن الظروف لا تسمح لي ان اتطوح في محبة الجمال فعاقبة هذا لا تحصر باعتبار الجمال فقط بل تطوح اصحابها الى ما وراء الحب النقي »

« بش . بش . ها . ها . هل تظن ان هذه الحالة ستدوم معك او لا تظن ان الاداب صورة مقتبسة تزول بالتجارب فعليك «هل معك قش نفط؟» فعليك ان لا تتظاهر بمثل هذه المبادي لئلا يظنك البشر مرآئي» « كثر خيرك على الولعة هل تدخن انت »

فلم يجب كريم بل كان يفتكر فيما قاله حليم حتى كاد ان يغضب غير انه تظاهر بالسكون واجاب

« عزيزي حليم انا عالم بصدق مبداك خبير بحسن سلوكك عموماً لكنني اشك في بعض الاحيان في ثبوت مبادئك ـ قل صدقها اذا شئت ـ فاسمع مني ما اقول سيان عندي ما يفتكر العالم بي ان كريماً وان لئيماً ـ فاذا قلت في المبادي شيئاً او فهت بما يعزز الاداب لا يكون ذلك لغاية اكتساب مديح البشر . وهل تظن انني اتشح بثوب الرياء مرضاة لزيد وحباً بعمرو وهما نفسهما يقران انهما لا يحافظان على نفسهما محافظة ادبية كاملة . الا يسوغ لي اذ ذاك ان اجول بين رفاقي واشاركهم بما يتحادثون واكون محبوباً منهم عوضاً عن ان اكون عرضة لسهام ملامهم وهدفاً لمظنة الرياء . ولكن خير لي ان يقال عني انني مرآئي والف مرآئي (توهماً) من ان اكون ممن يعتمد الشر والخيانة ولو مرة واحدة وسترى فيما بعد انني لا استحي بما اصنع هذا اذا كبا بي الجواد الادبي ـ وانا اقيس البشر بصفاتي ليقيسوني هم بصفاتهم ايضاً . فعندي ان الاديب يظن ان الجميع مثله والعكس بالعكس . ولقلما نرى ان اقوال كثيرين

من رجال الادب تذهب شتات الرياح وتفسر حسب الاهواء وما ذلك الا لسوء ادابهم. فكيف يفقه الدني الفضيلة وكيف يرى الشمس من عينه رمداء — ولكن اياك ان تظن اني ادعي النقاوة والكمال فالجميع تحت التجارب غير اني انصح لك ان لا تتورط في المباديء التي تبثها في صدري والا فسوف ترى ان عاقبتها وبال عليك »

« عاقبتها وبال عليَّ: هههه: الا تعلم ياعزيزي ان الاتشاح بالادب افة المتشحين به. تقوم عليهم الحساد ويكثر مبغضوهم وتنظر اعمالهم بالنظارة المكبرة فيصيرون عرضة للانتقاد والتهكم في كل مكان وزمان اولست تعلم ان التظاهر بمثل مبادئي يكثر الاصحاب ويزيد في عددهم (ولكن الى حين ...) انظر انظر هذه القبعة قال لي ابن خالة لابستها انها من باريز — اخر مودة — وان ثمنها ٢٠٠ فرنك»

« دعنا من القبعات الان وانظر فيما قلت هل تظن ان اعداء الادب والادباء يدومون او لا تظن انه ياتي يومٌ فيه يعود الاعداء اصدقاء معتبرين خصوصاً متى ظهر ان ذاك المتشح بثوب الادب يود بقاء الثوب عليه مدى الحياة وانه ليس متشحاً فقط بل اديباً حقيقياً وغير متصنع ؟ غير اني اتفق معك ان افة الرياء السقوط والهزء فلماذا اذاً لا نسير سيراً صادقاً بالادب بحيث لا نرهب قول المعتدين او لا تعلم ان مجرد بغض الادباء يعود بالخراب على المبغضين لرجال الفضل او هل نظن ان بلادنا خالية من عدد هولاء الافاضل الذين يقدرون الانسان قدره غير معتبرين فيه الا الفضيلة. ان في البلاد عدداً من هولاء الافاضل ويكفي ذاك العدد ياحليم »

« صدقت بما قلت فقد اقنعتني غير اني ارى النجاح بهذه الخطة غير موكول بالتمسك بالادب للدرجة القصوى فعلى الانسان ان يجاري ابناء العصر وان لا يقاومهم لان المقاومة وحدها تكفي لانشاء

البغض والحسد لان الانسان على فرض ثبوت فسقه . لا يرضى ان ينادى بفسقه امام جماعة ما او على حدة وان اقرّ بذلك الف مرّة غير مجبور »

« اصبت في هذا الصدد فالاوفق ان يبقي كل مبداه لنفسه ولا يعارض غيره بسلوكه »

« بلغنا الحازمية الان فهل تحب ان تجلس قليلاً لمناولة كاس من الشراب »

« افضلت عليّ ولكن لا يمكني ان اطيل الجلوس هنا لانني مرتبط بمقابلة احد اصحابي الساعة السابعة افرنجية »

الحازمية وما ادراك ما هي؟ . هي ندوة الخلان ومجتمع الاحباب . وكانت ايام حوادثي هذه مركزاً للموسيقى الجبلية تعزف في مركز فيها انغاماً ما كانت الا لسحر القلوب وقي الكروب وكان يتقاطر اليها عدد من البشر مختلفو الطبقات والانواع وقد ساقتني التقادير اليها غير مرّة حيث كنت اروح النفس واطربها فيها ولكوني منذ نعومة اظفاري اعشق درس طبائع البشر كنت من وقت الى آخر اذهب الى تلك الندوة والقي فيها من اسباب الدرس ما يلذ لكل تلميذ . ومما عرفته ولاحظته اذ ذاك اموراً تخجلني اعادتها ولكنني في ذلك اقلد صناعة الناقل « وناقل الكفر ليس بكافر »

لا يغرب عن بال كل اديب ان تقدم كل بلاد موقوف بنوع خاص على درجة وجهائها (في الادبيات او في الماديات) ولا يجهل احد اهمية انفراد اولئك الوجوه لتبقى حركاتهم التهذيبية والادبية مطابقة لاحوال ونظامات الهيئات الاجتماعية العليا . والواقف على افكار افراد هذه الفئة من فئات بلادنا يعلم ولا شك برغبتهم القلبية بالانفراد (اعني بالانفراد التمتع بالملاهي وغيرها من اسباب السرور بدون مخالطة باقي الطبقات . خصوصاً .....) في الهيئة الاجتماعية او في منتديات اللهو

اما في الحازمية وفي منتديات اخرى في بلادنا المحبوبة فيلتزم الشرفاء والشريفات ان يجتمعوا بنساء ...... ورجال .... اتشحوا بالاثواب الافرنجية وظنوا في انفسهم الكفاية، وكم شاهدت في كثير من ندوات البلدة من هؤلاء النسوة اللواتي كنّ يتصرفنَ امام شريفاتنا وبناتنا «وهنّ ينقلبنَ على نارٍ من الغيظ» تصرفاً يمجهُ الذوق السليم فيجب على اصحاب محلاتٍ كهذه ان يرفضوا قبول مثل هؤلاء فيرتفع شان ندواتهم وتنجح مشروعاتهم التي اساسها كسب المال وبهذا يرفعون شان بناتنا اللواتي بهنّ يناط نجاح الجيل الحاضر والقادم اما الشبان الذين يتشحون بالملابس الفاخرة ويكتفون. فيجب ان يخضعوا لمبادي الادب المعروفة عند الغربيين «بالاتيكات» ويعلموا ان من تمدن حقيقة لانت جوانبه واعتبر غيره واحترم جاره لانه اذا اجتمع الشبان في ندوةٍ ما وانصرفوا الى الانتقاد بصوت جهير افضى الامر الى خصومات كثرت في ملاهينا ولهذا قذف الغربيون في هيئة منتدياتنا والسواد الاعظم بيننا ابرياء فبعض شباننا يخالون انهم اذا تظاهروا بالاقتدار على «اخذ حريتهم» في المجالس العمومية أُعتبروا «رجال اختبار» «وابناء هيئة اجتماعية واصحاب معرفة في السلوك العام» غير ان من عرف هذه سلك بوقار واعتبار ولطف واحترام ولاحظ مجاوريه. هذا يعد متمدناً وليس ذاك

(يعذرني مواطني على هذه الملاحظات فكلهم يشعرون معي بصدق مقالي وقد تحادثت اكثر من مرة مع عدد من ادباء بلادنا وكانوا يظهرون نفس ما انا مظهر وقد حادثني صديقاي حليم وكريم بهذا الموضوع ايام كنت اخط هذه الحوادث فاحببت نشرها افادة للذين يريدون ذلك وانني اشعر مع شريفاتنا واشكر من صبرهنّ على مثل ما هنّ ملتزمات قبوله

فصلٌ سابع

هذه احوال الدهر فاقبلها والا فعليك بالمهاجرة والسلام (لاحدهم)

« اسعد الله مساكم »

« وانت اسعدت مساء » اهلاً وسهلاً بك يا كريم نحن بانتظار عدة اصدقاء للسهرة هذه العشية وقد زاد سرورنا بحضورك

هذه فقرات من حديث كريم والعائلة التي اقبل عليها لصرف المساء اما عائلة .... فكانت عائلة انيسة جداً

« ومن لا يسر سيدتي بمشاهدتكم ومشاهدة اصدقائكم معاً فلذة المعيشة باجتماع الاحباب »

« وديع اذهب وهيء غرفة المقابلة »

« نعم والدتي » حاضر

« لطيفة ، لطيفة . اين انتِ افتحي البوابة فالجرس يدق وقولي لعمّاتك ان يتأهبنَ للسهرة

« اهلاً وسهلاً بالسيدة ....والسيدة ....وانت يا افندي ... من غير شر صار لك جيل ما شرفت وانت يا افندي .. الف اهلاً وسهلاً »

فجاوبها اصحابنا بما اقتضى المقام(و يعني الالماع) وتقدموا الى غرفة الاستقبال وتبعهم كريم

« اسمحن لي ايتها السيدات ان اعرفكنّ بكريم افندي معلوف . السيدة فلانة .والسيدة فلانة .لطيفة ..(وصفقت يديها) البوابة »

وبينما القوم يترجبون ببعضهم ويتبادلون عبارات التحية دخل صديقنا « اديب » ـ الذي عرّفنا القاري به في الفصل الرابع من الكتاب الاول ـ اما اسم عائلته فكان « كرمه » و« كأديب كرمه » نقدمه للقرّاء مرّةً ثانيةً

« هه . هه . خواجه كريم هنا . ما اسعد هذا المساء بروء يا الجناب .

قال هذا قبل ان يحيي احدٌ فتامل

« لطفك زايد سيدي اديب فهي سعادة قلما احصل عليها »

وبعد ان حيى البقية اقترب من كريم وهمس باذنه

« كيف رايت السيدة التي على الكرسي الكبيرة قرب صورة العائلة جميلة . هه جميلة جدًّا ما قولك فيها . انظر الى حسن ذوقها في اللبس كأن هذه الحلية مصاغة عليها »

« اراك مصيباً غير انه لا يحكم بموجب ذوقي لانني قلما ابحث بهذه الامور »

« هه . هه . هه . اسمعنَ ايتها السيدات كريم افندي قال انه لا يلذ له ذوق السيدات وقلما يهتم بامر لبسهنّ »

فاحمر وجه كريم لجسارة اديب وقال

« سيداتي قد تجسارت مدفوعاً من اديب ان اجيب على بعض ملاحظاته وفي معرض الكلام ذكرنا السيدات واذواقهنّ غير انني انكر ما اتهمت به واقول انني لم افه بما قاله اديب ولن افه به واذا شاء اعدت الحديث على مسامعكنّ »

« لا . لا . ارجوك لا »

« اه اديب افندي اهكذا تحرف كلام كريم افندي فصنعة التحريف سهلة ولكن لا ارى بدًّا من عدم استحسانها »

فاذ ذاك تحمس اديب وقال بدون ادنى خجل او تاثر

«كيف اقول غير ماقلت فانني حالما تممت كلامه اعدته على مسلمعكن ايتها السيدات» (نسيت قوتك على التركيب ؟)

اما كريم فابى ان يجعل قاعة الاستقبال ندوة جدال وقتال فاقتصر على السكوت —والحق بيده— لانه كيف تحفظ مسرة الحضور اذا استعملت القاعة لجمعية مباحثة . واني والحق شاهد طالما لاحظت هذه الامور ونددت بمستعمليها وجهاً لوجه فبعض الشبان يعارضون بعضهم بعضاً في قاعات الاستقبال كل يريد اظهار ما عنده من الكلمات والعبارات المقتبسة فيعارض رفاقه في كل مسألة تعرض لديه ولذا طالما تعظم المشاحنات في الجمعيات العائلية عندنا وكثيراً اما يخرج الزائرون من دار المضيف بوجوه عابسة وخواطر مضطربة وما ذلك الا لكون اكثر الشبان يرغبون في تقليد الفرنجة حيث يطالعون الروايات المنقولة عنهم فبعض الروايات تبحث في حالة الجمعيات السياسية . والقوم الذين يقرأُون عنهم وزراء وكبار سياسة يتباحثون لغايات تعود عليهم بالنجاح اما نحن فلماذا نتقلدهم ونحن في ظروف غير ظروفهم ولماذا نرغب في اسقاط بعضنا بعض ونحن نقصد التسلية . كل هذه امور لا تفيدنا بل تضرنا وتعود علينا بخصومات لا نفلح معها . فلماذا لا نتقلد مجالس اجدادنا الذين كانوا يجتمعون ويقصون على بعضهم النكات والحوادث المفيدة المسلية ولذا كانت مجالسهم غاية في اللطف ولهذا يعتبر الفرنجة اجدادنا لانهم يقراؤُن عنهم ويحكون بمعارفهم . ولكن الذين ذكرناهم لا يفلحون . ولا يعلم بعضهم ان المناظرات اذا حدثت تحدث بهيئة لطيفة وبصورة مانوسة فاذ ذاك يفيد المنتقِد . ويستفيد صداقة المنتقَد فلمَ لا نغير في احوالنا الحاضره ونسلك بحسب ظروفنا ونرغب في الائتلاف عوضاً عن التنافر فتقدم البلدان يقوم باتحاد ابنائها ونجاح الامم منوط باجتماع الكلمة

ومشاركة الذوق الصحيح . فكم من سهرةٍ انعكست من هيئة انس الى « منظر مرهب » وما ذلك الا لاسباب يعلمها العالمون فاذا شاء بعضنا ارضاء سيدة ما فليرضينها بالانس في المجالس واللطف في المحاضر والا فالتمدن والمتمدنون يرفضونه

(عودٌ على بدء) « سيدتي نجلا آه هل كنت البارحة في بيت الخواجه انيس آه ما كان اجمل تلك السهرة . واقول لك ان الحلوى التي قدموها لنا في اخر العشية كانت عال عال »

« ه : ه : ه : اديب افندي كان هناك ولم يرَ انني لم اكن . هل ظننت اديب افندي انني كنت مخبأة وراء احدى الكراسي هناك ؟ ه : ه : ه »

فقالت السيدة اسما « لا اعلم الداعي لسواله ولكن يكفي ان يسوقنا هذا الى ذكر موضوع السهرة »

« اما صاحبة البيت وكريماتها اللواتي سمعن اديب فكنَّ في قلقٍ احر من الجمر فدنت الوالدةُ من احدى بناتها وقالت « كريمة . هل عندنا شيءٌ للتقديم ؟ لان الجماعة يتهكمون علينا اذا ما قدمنا لهم شيئاً . اسمعي ما قدم امس بيت الخواجه انيس »

« لا يا سيدتي الوالدة ولكننا نرسل فارس ليأتي بشيء من السوق »

« حسن اذهبي واطلبي ما شئتِ »

فلما سمعت الابنة الثانية هذه الاوامر « لانها كانت بجانب والدتها » عادت اليها طلاقة اللسان « وفلش جلدها على بدنها » بعد ان كان لها عدة دقائق متاعثمة كيف ان عائلة الخواجه انيس تقدم « حلوى عال » وهم لا يقدمون شيئاً ؟ هذه امور لا تحمل ابداً

« من قلت يا اديب افندي كان هناك »

« اظن رايت الخواجه كريم وكثيراً من الاصحاب وكنا نلعب كل السهرة

بالعاب بديعة متنوعة ولكن قاعة الاستقبال هناك اكبر من هذه فكنا نتمكن من ممارسة الالعاب الكبيرة بكل سهولة »

فقالت الوالدة لكريمة « قولي لفارس » ان يأتي بغرفة اكبر من هذه فضحكت كريمة وقالت

« هذا لا يمكن »

اما الباقون فكانوا يتحادثون بامور عديدة : وكان من جملة الحضور سيدتان كريمتان مطلعتان ولسعادة كريم كانتا بجانبه فكان حديث الثلاثة في الساعة التي تقدمها للقاري متعلقاً بامور علمية

فاجابت السيدة ميليا « ولكن هل تظن ان الحق على ج ... فيما يكتب اظن ان اللغوي .... الفريد محق ايضاً : ولكن يجب على الافنديين وغيرهما ان لا يتطرفا الى هذا الحد في المناظرة لانه اذا تخطت المناظرات حدود العلم مست الشخصيات : ونحن لا نريد ان يتعرض افاضل بلادنا للتنديد بعضهم بالاخر

« فهذا مما يحط من درجتهما امام العامة ويفتح عليهم ابواب مطاعن كانت كامنة في صدور كثيرين »

قالت السيدة اسما « نعم عزيزتي ميليا ولكن صديقنا ق ... عارف في الامور العلمية وذاك في الامور اللغوية فلماذا لا يقرا احدهما للاخر بما عنده من المواهب فانني واثقة ان اللغوي ... من افضل رجال العلم في اللغة وذاك عارف دارس فلماذا لا يقران فيسهل اذ ذاك عليهما الجدال ولا تنحط درجة احدهما في اعين العامة ؟ »

فقال كريم وهو مسرور بما يسمع من الانتقاد اللطيف « ولكن ايتها السيدتان الفاضلتان ... »

« هه : هه . هه : اسمعوا : اسمعوا : الخواجه كريم — او كريم افندي : نعم : يقدم خطاباً . عزيزي كريم : قف على الكرسي اهون

عليك واريح واذ ذاك نسمعك كلنا»

قال ادبينا هذا وهو لم يسمع من الحديث الا كلمات كريم الاخيرة . اما كريم فلم يبال بهذه الملاحظة الفظة بل رمقه بعين الاحتقار الممزوجة بالحزن عليه وهكذا فعلت السيدتان اسما وميليا . ولكنه لم يتأثر بل بقي يضحك مع بعض الحضور الذين كانوا على شاكلته ولم يكونوا يعرفون كريماً شخصياً اما كريم فرجع الى حديثه. وقبل ان يبتدي قدمت له سيدة البيت دخاناً فاجاب

« استكثر بخيرك سيدتي فانني لا ادخن» ثم وجه حديثه كالاول وقال

« سرني سيدتيَّ كما قلت حديثكما غاية السرور فملاحظاتكما لطيفة واقوالكما انيسة ولا تواخذاني اذا اضفت اليها هذه الافكار التي تهون عليكما النظر في هذه المسالة وانني اخذ بينكما خطة التلميذ فحضراتكما اعلم وادرى — من جهة عدم اقرار المناقشا ن فلا يخفا كما ان الانسان فطر على التمسك بارائه خصوصاً اذا خالط الآراء غايات شخصية »

قالت السيدة اسما «لكنني اعجب كيف ان ق ... افندي لا ياتي على آخر هذه المناقشة وانا اعلم انه شاب صرف العمر في العلم وكم من خطاب القاه ومن مبداء ادبي بثه في كتاباته — وانني لا اشك انه يعد من افاضل البلاد »

قالت السيدة ميليا « وهكذا اللغوي .... ياعزيزتي — فهو رجل كامل بآدابه وكنز في علومه ورصانته وكم من نكتة ادبية فاه بها ان نظماً وان نثراً وكل اعماله درر اضيفت الى عقد معارف بلادنا وزد على ذلك فمعارفه العلمية وقوة عقله الطبيعية لا يفوقهما قوة وحبذا لو رايتما بعض الاعمال اليدية التي ياتي بها لكنتما عجبتما من اجتماع كل هذه المواهب في شخصه وقد قال لي رياضي شهد له بالتفرد انهما تعاضدا

على اتقان الرياضيات ورأى ان مقدرته على اتقان الرياضيات تفوق قوة كل من عرفه وهو من الذين عرفوا العدد المديد فلا تعجبان من هذه المميزات التي جمعت في شخصه فذوقه بالصناعة ايضاً غاية في الاحسان وهو من الذين اتقنوا صنعة التصوير غاية الاتقان دون معلم

ولكن تباً لهذا الزمان الذي ياخذ برجال الفضل ويصل بهم الى هذه العاقبة فيقاومون بعضهم بعضاً وما ذلك الا لدسائس المفسدين يدسونها بينهم رغبة في تفريق كلمة رجال الفضل حتى لا يسود غير المفرقين ....»

«قلت كريم افندي ان المناقشة متعلقة بالامور العلمية .... وانني على قلة اختباري اعلم ان ح.. افندي من الرجال العلماء عندنا في هذا الفرع وقد درس فيه السنين الطوال

«ولكن مع كون المسالة هي علمية بالفرع.. فقد دخل فيها بعض الامور اللغوية وامتدت المناقشة الى اكثر من ذلك وصار فيها تشعب طويل عريض حتى وصل الانتقاد الى الامور الشخصية وكل هذا ناشئ عن نفور فقط والا فكانت عين الحب تستر»

«قلت ان المناقشة دخلت بالموضوع العلمي وح... افندي من مشاهير علمائنا بهذا الفن فكيف يغلط بالامر الفلاني والامر الفلاني وهما بسيطان جداً؟»

«ولكن الانسان كثيراً ما يخطئ واذا اخطأ احدهم في عدة مجلدات بعض الخطا فهذا لا يعيبه على فرض الخطاء واذا اخطانا لا نعاب فالوسائط العملية قليلة عندنا واكثرنا يتصدى من فروع العلم الى اكثر ما يمكنه اتقانه فانا اشكر اللغوي.... على الخطة التي اتخذها ولا بد من نفوذه فيها اكثر من الذين يتبعون الف خطة»

وهنا لا اخفي عنكما ان ح..ون.. مطلعان على مسائل علمية

لاتحد وقد طالما في ابواب العلم كتباً ومؤلفات تزيد عن الالوف ومعرفتهما فائقة غير انهما يفرقان قوتهما وهذا يضر

« دعنا – غير مامور – الان من هذه المناقشة وافدنا – لانك خبير – من اقدر من الاثنين ق ٠٠٠ او ح ٠٠٠ ؟ »

« لكل المام في فن خصوصي ذاك بارع في العلوم الفلسفية والكيمية وذاك اخطب واقدر في الامور الفلكية . وذاك له مواهب خصوصية في الامور العقلية والمنطيقية والاخر في اللغات وغير علوم غير ان هذه امور دقيقة ولكونهما لم يزالا كطفلين في هذه الامور ولم يؤلفا فيها الكتب المنفردة لايمكنا ان نبتّ الحكم في معارفهما . هذه افكاري ولست ادري أحقيقية هي ام وهمية »

« اراك مصيباً سيدي . اما اهتمامنا بهما فعار عن كل غاية ولو لم نكن نطالع لهما بعض الرسائل لما تصدينا للسوال ولكن هذه علة طبيعية لايمكنا صدها – اعني التفحص الادبي عن اقتدار الكتاب – فاسمح لنا ان نسالك بعض الاسئلة زيادة . هل يمكن احد ان يميز بين كتابات الاثنين المذكورين من مجرد المطالعة فنحن نسمع ان كتابات الواحد مملوءة بالتدقيق والفلسفة والمنطق وكتابات الاخر مملوءة من الحياه والحماسة افهل هذا مطابق للواقع ؟ »

« ربما كان كذلك . وانني مثلكما التذ بمثل هذا البحث لانه خال من روح – التسلي الزري – واذا سمحتما اعدت على مسامعكما ما عرفته منهما اذ حركتني الغيرة مرةً وسالتهما نفس ما سالتماني فقالا ان كتاباتهما لا تتميز بكل هذا التمييز وعرضا عليّ بعضها فكنت انسب للواحد ما كتبه الآخر غير ان احدهما يسرُّ اكثر من الاخر في بعض فروع العلم التي لا يسر بها الآخر – واظن بعض عمدة اللغة العربية في بلدنا يميزون اكثر من الداعي ومن كانت معرفتهم توازي معرفتي »

« اظن هذا الحكم عين الصواب . الا تظنين هكذا عزيزتي اسما؟»

« نعم عزيزتي اظن ان راي كريم افندي عين الصواب . والان هلا قبلتِ بمشاورة كريم افندي في المسألة التي دارت عليها امس مناظرتنا ؟»

« ه . ه . ما بالكما ايتها السيدتان الكريمتان أفي نيتكما حرمان هذه الجمعية من معاشرتكما بانفرادكما مع كريم افندي كل العشية ؟ »

« لا ياسيدي اديب فمن قريب نتشرف بمشاركتكم في حديثكم المفيد» ثم وجهت كلامها الى رفيقها ورفيقتها ـ « آه انني لا احب الجسارة الزائدة في الشبان فالحياء المخلوط بالجسارة الادبية احبُّ اليَّ من الجسارة التي تخالطها وقاحة منكرة . ومع انني استقبح الذم في البشر ارى اديب افندي يستحق الذم فهو بارع بقحته وجسارته . الا تظنين هكذا ياعزيزتي ميليا؟»

«لا فض فوك فانني طالما تاملت في هذه المسالة « لماذا تحب النفس هذا وتكره ذاك قبل ان تتمكن المعرفة» «فتعبيرك قد اوضح لي السر»

« هل اتجاسر واطلب الاطلاع على المناقشة التي حصلت بينكما؟»

« بكل فرح كريم افندي . عزيزتي ميليا تقول ان اشعر شعرائنا في الوقت الحاضر اللغويان ن . . . . ول . . . . وكل منا عهدت على نفسها ذكر مناقب احدهما . اما انا فافضل شعر اكبرهما لانه مملوء من الحكم الفلسفية والمقدرة اللغوية واری ان اشعاره تطاول اشعار الجاهلية من العرب القدماء في سلاسة رائقة واری ان قوة العربية معه ملكة خلقت معه ليحميها اما عزيزتي اسما » ـ « عدم المواخذة عزيزتي اذا كنت ابين له افكاري بنفسي»

«انني افضل اشعار الاصغر لانها اسلس واقرب الى القلب وخالية من العراقل اللغوية العويصة وهو يتصدى للمعاني العصرية اكثر من اخيه واسرع في النظم ـ على رأيي ـ سويث في منظوماته نكتًا عصرية بهية

ادبية محضة يعشقها الذوق »

«ولكن اتسمحين لي ايتها العزيزة ان اقول ان الاكبر مشغول في عدة امور سيعود نفعها للبلاد وهذا ما يؤخره عن النظم الكثير وعندي ان بيتين رقيقين من شعره في تركيب متين لخير من قصائد عديدة لبعضهم لاتخرج عن حد تشبيه الوجه بالقمر والقد بالبان والخد بالورد والكريم بالغيث فهذه امور صارت كلها مبتذلة والفضل للشعراء الذين يدخلون الى لغتنا اموراً مبتكرة • وقد شكى بعضهم من التكرار في اشعار الاصغر اما الاكبر فله مقاطيع تسكر بسلافة معانيها وتسحر بلطافة مبانيها»

« انني لااتعجب من حكمكما ايتها السيدتان الكريمتان لانكما عرفتما بالنباهة . وانني على حقارتي اظن انه احسن حكم سمعته بهذا الصدد واظنهما لو سمعا حكمكما بنفسيهما لاقرّا باصابته وقوته وصدقه اما انا فمن راي السيدة اسما « عدم المواخذة سيدتي ميليا » فانني اظن ان الشعر السلس المعنوي القريب من القلب اقرب للذوق من الشعر المملوء من العراقل البيانية والبديعية واللغوية الدقيقة العالية فهذه لايقف على كنهها الا فلاسفة اللغة — ونحن بسطاء — وانني بفصل حكمي هذا انقل لمسامعكما ما سمعته من رجال الخبرة والنقد . وقد سمعت اكثر من مرة ان قوة الاكبر في اللغة ومعرفته مفرداتها لاتفوقها قوة وقد سمعت الملاحظة الاتية من احد الافاضل (ولا اشك بصدقها لان قائلها ثقة — ولو ذكرت اسمه لما احتجت الى برهان —) ان اللغوي الاكبر بالغ من معرفة اللغة واتقانها ودرس ادابها مبلغاً لم يدركه السابقون ولا يظن بوصول المتاخرين اليه واظن ان هذا لا يغرب عن العقل فان له نفثات وشذرات لغوية ورسائل على نسق مقدمة ابن خلدون وقد قيل لي انه يكتب العربية بدون غلط ابداً وهذا لا يقال عن كثيرين . هذا ما يمتاز به عن اخيه وعن كل واحد سواه اما الاصغر

فامتيازه بالشعر البسيط الرقيق ظاهر عندي فهو اشعر»

«الدنيا ملآنة من رجال القدرة سيدي كريم اظن الان صديقتي ميليا لاتشك بالواقع بعد هذه الملاحظات كيف افكارك الان عزيزتي ؟»

« اظن ان حضرتك محقة . اقول هذا وسهام الاقتناع تكاد تدخل ادراكي غير انني ساجيل النظر في هذه المسالة على انفراد ولعلي ازاد اقتناعاً»

« ه . ه . ه . ما شاء الله «جمعية الفلاسفة» لما ينقضي جدالكم اطلعونا على ما آله »

« سيدتي اديب نحن نتباحث في مسائل ادبية تتعلق بتهذيب الشبان وحسن سلوكهم (يعذرها القراء اذا قالت غير الواقع لانها شاءت بهذا الحديث ان توجه انظار «اديبنا» الى حسن السلوك لانه جسور وقح) في الهيئة الاجتماعية ولكون هذا البحث مهماً جداً ويمكن افادة البعض به قد اطلنا البحث فيه والظروف في كل ساعة تظهر اهميته »

« سيدتي اسما و بقصدكم ان تختموا البحث بهذه العشية ؟ فاذا اتفقتم على وجه من الوجوه افيدوني لان سركيس افندي صديقي وربما استفاد الجمهور من نتيجة بحثكم بلسان حاله »

« حبذا لو كنت انت من الباحثين معنا فربما كنت تستفيد »

« سيدتي اسما ارجوك ان لا تعاملي هذا الداعي بقسوة . اغرّك كريم افندي ؟»

« انني والحمد لله لستُ ممن يغوى ويغرّ ولكن . لماذا ظننت ان ملاحظاتي موجهة اليك ؟ هل شعرتَ انك تتخطى الحدود التي تسنها القوانين الاجتماعية حتى اتخذت ملاحظاتي عنك ؟»

« لست ادري . سوى انني احب المزل ورايتكم باهتمام عظيم في موضوعكم فوددتُ تحويل انظاركم الى موضوع اخر»

« لكل امرءٍ شان يلذ به ونحن كما نتمتع بما يلذنا دون ان نعترض ما يتعلق بلذتكم فاسمح لي ان اسالك. اكنت تسر لو قاطعناك في لذتك؟»

« لا اعلم لان كل الامور عندي على حدٍّ سوى »

« اذاً حضرتك لا تهتم اذا اغتاظ قومٌ او سرُّوا؟ »

« لا. لا. سيدتي لست اعني هذا انما — »

« — الحدة قادتني الى معارضتكم. اليس هذا تتمة كلامك؟ » — هذه عبارة لفظها كريم.

« من اقامك مفسراً لافكاري ايها الكريم؟ »

« لا احد انما رايت صديقي في عرقلة ادبية فرمتُ نجدته ولو كان ذلك مخالفاً للاصول غير انني اظن عبارتك تستحق هذه الخاتمة شئت ان تختمها هكذا او لم تشاء »

فصلٌ ثامن

لا يملك الامر صدري قبل موقعهِ ولا يضيق بهِ صدري اذا وقعا
(عبد العزيز بن زرارة)

ان نلت لم افرح بشيءٍ نلتهُ واذا سبقتُ بهِ فلا اتلهفُ
(الهمذاني)

مدرسة الاحد في بيروت بناية بديعة الاتقان يجتمع فيها التلامذة على اختلاف الملل والاعتقادات. في صفوف يرأسها سيدات ورجال يعلمون فيها مبادي الدين والاداب ويجتهدون . وكانت هذه المدرسة قدوة للدين والادب تكثر فيها الاجتماعات الاحتفالية . وفي منتصف كل اسبوع يجتمع فيها الناس لتقديم العبادة

وكان قد اباح رؤساؤها لبعض الجمعيات ان تعقد فيها احتفالاتها السنوية. والتاريخ الذي اقود القاري اليه — غير مجبور — وقع في

احدى الليالي المقمرة الباهية كانت الكواكب في فضاها لامعة والنجوم ساطعة وكان نسيمها الربيعي يحرك اشجارها فيسمع من تلك الحركة ما يشبه حفيف الاجنحة فينعش فؤاد الكئيب ويسلي قلب الولهان بسرور نشأته الطبيعة واساسه التلذذ بمواهبها .وكان اعضاء جمعية ..... عند الساعة الثامنة مستعدين لاستقبال المدعوين وعلى صدر كل منهم علامة خصوصية تدل على كونه من الاعضاء .وكانت على وجوههم امارات الانس والفرح لكون القاعة كانت على ما يرام من الاتقان والزينة وكان بينهم عضوان يفكران فيما سيأتي عليهما في ذلك المساء وكان كلٌّ منهما يراجع لذاته ما يقوله في المباحثة التي سيلقيانها على مسامع الحضور وكان احدهما فتىً في زهوة الصبا بهي الطلعة انيسها باسم المحيا وكان كما يقال «يلي في قلبه على راس لسانه» ـما كان في قلبه فهو على لسانه ـوزد على ذلك انه كان ممن رسم على وجوههم كل ما في قلوبهم وما افتكروا به .وكانت تلوح على وجهه امارات علو الهمة والنجابة والاقدام وكان في الساعة السابقة الذكر يقدّر ماسيقع له مع رفيقه او بالاحرى مناظره الذي كان بخلافه متراخياً كثير الثقة بنفسه معتقداً الاعتقاد التام بالفوز الاعظم ـ اما الاول فكان يحسب لكل دقيقة تذهب الف حساب وكان كلما ذكر هول الموقف الذي سيرتقيه يتكلل وجهه بعرق الاهتمام فيمسحه ويعود الى نفسه منشطاً ومقوياً والله اعلم بذات الصدور ولا يلومني القاري اللبيب اذا اوردت لديه بعض افكار صديقنا الفتي لانها كانت تستحق الاعتبار والمشاركة خصوصاً لانه كان فريداً في امور عديدة

ـ هذه كانت افكاره اذ كان يتمشى في الفسحة الكائنة امام الكنيسة بجانب مدرسة الاحد

«يعجب البشر من تقدم هذا وتاخر ذاك ولهم في هذا الشان اقوال وافكار لا يمكنني

ادراكها . بعضهم ينسب ذلك «للسعد» و بعضهم «للمواهب» والبعض الاخر «للمزاولة» والكل يتفقون على الاجتهاد والرغبة . اما انا فلا آكاد افقه للتقدم والفلاح سبباً . نعم ان للظروف التي تدعى حظاً اونصيباً اوسعداً تأثيراً على تقدم هذا وتأخر ذاك وللمواهب والمزاولة والاجتهاد والرغبة والقصد افعالاً يعجز عنها العقل ولكن . كم من مزاول وكم من مجتهد وكم من ذكي ذهبت اتعابهم واجتهاداتهم ادراج الرياح وتقضت ايامهم بالمتاعب والاحتقار والانخذال من البشر . فما هو السر العظيم الذي لا يدركه بشر الذي يرفع هذا و يحط ذاك مع ان الاول لايفوت الثاني علماً ولا اطلاعاً ولا هو اثبت في حفظ الاداب . ترى اثنين احدهما يعمل ما يعمله الاخر بنفس الهيئة و بنفس النسق . احدهما يقبله البشر بصدور رحبة والاخر ينظر اليه بعين الازدراء ويحرم النوم بلذة . فما سبب هذا ؟ انه لامر عجزت عن ادراكه اكبر رجال السياسة والعلم . ترى مثلاً الرجل السيامي الفلاني يصرف الليل والنهار يقدح زناد فكره لتطبيق ذوقه على ذوق كل من يراه و يجتهد باللطف والرقة ليكسب مدح الجمهور فلا يربح شيئاً . و بالعكس الاخر الذي تلهج بذكره الالسنة مادحة و يخترق صدى فضله عباب كل مقام و تخاله العامة اله علم انزل من السماء في كساء من حرير . فماذا ترى يكون نصيبي من الدنيا اتقدماً لا الوم نفسي على الطمع فيه لان الرغبة بالتقدم آفة كل بشر ام انخذالاً وتقهقراً ابقى معهما الدهر عاجزاً عن تقويمي . وحق المبادىء الحقيقية بيناً اعزم انني اعجب من الزمان وتقلباته . ترى الفقير فيه ملاطفاً مسالماً كيساً لطيف الطباع رقيق الحواشي اديب المعشر وترى القوم ينفرون منه كان الله لم يخلقه . وترى كثيرين من الاغنياء شرسي الطباع لايكلمون اخوانهم الا بالاحتقار ولا يرمقون مواطنيهم الا بالازدراء وترى الوجوه تبسم للقاهم والطرق تخلو عند مرورهم . آه من زمان لعبت به ايدي الاغراض فجعلت فيه الخسيس سيداً

والشهم عبداً . لا الوم الزمان لكونه لم يخلقني غنياً مترفاً . ولا اطلب من البشر اعتباراً الا لما يستحق الاعتبار . انما ارى عدداً من معارفي الذين يستحقون كل عز ويليق بهم كل اعتبار لا يعاملون الا بالهزء . . .
والان عليك ايها القلب ان تتشجع فوقت الاجتماع قريب واليك عن هذه الافكار المتعبة مع كونها حقيقة فعلينا بالتامل في مباحثنا وفي قول من قال

«اذا جاء توفيق الفتى جاد سعيه وان فاته التوفيق ساء اجتهاده
«فليس الفتى بالجهد يسعد فليكن على الله رب الكائنات اعتماده

«ووجه همك الى مركزك لتلقي وجوهاً باسمة . فهنا لا نصيب ولا حظ يخلصانك بل قوة جنان وطلاقة لسان وفصاحة وبيان فاذا اجدت مدحت واذا اخطأت خفضت وعليك بالنشاط فحكم البشر لا يغير . واول ظهورك يعتمد عليه فاذا سقطت هذه النوبة نظر اليك بعين الشفقة وقيل فيك : مسكين . مسكين : اجاد وليس عليه حق فهذه اول نوبة تكلم فيها واذا اجدت صوّب البعض كلامك بعين المحبة تصويباً فائقاً والبعض الاخر رمق بعض اغلاطك بعين الحسد واذاعها على رؤوس الانام . وانتقد الباقون اقوالك بعبارات احرّ من الجمر . فاربح الانتقاد والحسد خير لك من ربح الشفقة . فالشفقة دليل الضعف . والانتقاد دليل القوة .

والان انت ياقلبي الداخلي اذا وقعت عيناك على موضوع تعشقك فلا تجزعن ولا ترهبن بل قوّ جنانك اضعافاً وتشدد فانك اذا هفوت احتقرتك واذا اصبت شكرتك . . . . .

ولم يزل صديقنا الذي لا نخفي اسمه عن القراء «كريم معلوف» في هذه التاملات حتى لمسته يدٌ على كتفه فحول النظر وراى انها يد احد محرري جريدة . . . . فحياه بمحبة واعتبار وتبادلا بعض الكلمات الخصوصية ثم قال المحرر» كريم صديقي قوّ عزمك فانني ارى فيك شخصاً يتقدم ولا تدع كلماتي هذه ان تهيج فيك عواطف الحماسة وتنسيك انك لم تصل

بعد الى الدرجة المطلوبة بل لتكن سبباً للتقدم واذا نجحتَ وحسدتَ فقد حسد غيرك فلا تخشَ» . فسمع كريم هذه الكلمات براس منخفض واكتفي بالضغط على يد الصديق النصوح وافترقا

فصلٌ تاسع

ما استوصف الناس من شيءٍ يروقهم الا راوا ام عمرو فوق ما وصفوا
كانها مزنة غرّاء سارية او درّة لايواري ضوءَ ها الصدفُ

(جرير)

استسمح القاري على الرجوع به الى ظهيرة نهار الخميس قبل هذه العشية بيوم واراني اذا اخبرته عن المكان الذي ادعوه اليه لا يواخذني على ابعاده عن معرفة ما تم في العشية المومأ اليها في الفصل السابق. اقوده الى مكتبةٍ في طابقٍ سفلي من بيت احد علماء بلادنا حيث وجدت هناك سيدة كثيرة التامل كان جسمها في المكتبة ويداها على الكتب وعقلها بعيداً في عالم ثانٍ — ولم تكُ افكارها في شخص عشقته او مال تكسبه . بل كانت تتامل بحالة نساء البلاد وآدابهنَّ وحالة جمعياتهن وكان بين يديها كتب تطالعها تتعلق بحالة الجمعيات وندوات الادب والمدارس والجرائد الخصوصية للسيدات في الغرب فآلت على نفسها اذ ذاك ان تطلب من محرر ... ان ينشر لها مقالة بهذا الصدد فتناولت قلمها بانامل كالفضة . وبعد ان انتهت من مقدمة المقالة نظرت الى نفسها فرات انها لم تزل بأثواب البيت — اعني بثياب البيت قفطاناً من الكتان الابيض النقي كقلبها — ولم يكن على الزي القديم ولا الحديث بل كله قطعة واحدة يضمه من الوسط شريط من الحرير الازرق فيقسمه قسمين العلوي كان مثناً كانه قطعاً من الغيم الا بيض النقي وكانت تظهر للناظر تلك الثنايا كانها جلد يرى من خلاء غيم وكانت

تقاطيع الصدر كانها مما ابدعه صانعو تماثيل اليونان كقاعدة لدارسي الجمال وكرسم لا رباب صناعة التصوير . وكان القسم الباقي من القفطان واسع الاردان ضافية ذيوله على الا رض — قلت فلما نظرت الى قفطانها وهي بهذه الهيئة رات على طرفه قطعة من الورق — على ما لا حظت — فمسكته بيدها اليمين وهزته لتقع الورقة وفي تلك الدقيقة دخلت الغرفة فرايتها موسدة خدها على كتفها ويدها لم تزل ماسكة ثوبها وكان جسمها منحنياً قليلاً . ومع انني كنت حديث السن اذ ذاك لم يخف عني جمال تلك الجلسة التي زادت اعتباري لجمال غادتنا الساحرة فقلت لهـا ولجمالها على قلبي تاثير لا يمكني وصفه .

« هنيئاً .. (وجال في خاطري ان اقول)« هنيئاً لمحبك » اعني . هل سيدي والدك هنا؟ اعذريني على الدخول بدون استئذان لم اظنك هنا »

فاجابت بصوت لطيف ارق من النسيم

« لا . ولكنه يعود عن قريب »

فناولتها — من بين عدة مغلفات — مغلفاً عليه اسم والدها وقلت « في هذا التحرير اوراق دعوة لجمعية .... لجلستها الا حتفالية التي تلتئم غداً مساء » فقالت

« اهلاً وسهلاً انني اعدك بتقديمها لوالدي حين رجوعه . واسمح لي ان اثني على همتك لا تخاذك على نفسك مسالة توزيع هذه الاوراق . فعمل الخير واجب على كل انسان فتى كان ام شيخاً . وانت الا ن تخدم عمل الخير على هذه الصورة قدرك المولى على خدمته باعمال اعظم متى تقدمت سناً ... »

فشكرتها بما حضر الذاكرة من كلمات الرقة وحييتها وقفلت راجعاً اردد بفكري مقابلتها اللطيفة واقول لنفسي « ما الفرق بين البشر ففلان . وفلان . كانا يظنان انني اتيتهما لا ستعطي منهما فكانا يقابلاني باوجه

عابثة و يعتذران الف عذر على عدم قبول الدعوة منهما من قال ان عنده شغل والاخر انه سيكون خارج البلدة مع انني كنت اعلم على حداثتي ــ انها اعتذارات كاذبة

والا ن اعود الى صديقتي ٠علمت انها ما زالت في عملها حتي رجوع والدها وحين وصوله اخذت المغلف المحتوي على اوراق الدعوة واخذت منها ورقة وقراتها لوالدها فكانت هكذا

«من يرحم المسكين يقرض الرب»

« مساء الجمعة الواقع في سنة ١٨ تلتئم جمعية ــ بجلستها ــ

« الاحتفالية القانونية ويقدم فيها.... خطاباً موضوعه ...و يتباحث الافندية ــ و ــ في مسالتهما ــ و يتخلل الجلسة بعض الاعمال الفلسفية والكيمية و بعض الحان موسيقية من جمعية الموسيقى والدخل يوزع علي فقراء كل الطوائف » ثمن الورقة ربع ريال مجيدي والورقه شخصية

كاتب الجمعية

فلان

« حسن كم ورقة هنا؟»

« اربعة » .

« ربما انقذ هذا الريال كثيرين من اليأس٠ هل تذهبين انتِ واختكِ واخوكِ؟ »

« نعم سيدي فموضوع الخطاب يفيدني كما وانني التذ بموضوع المباحثة»

ــ سيرى القاري الموضوع عن قريب ــ

« حسن اذا اتفقنا على هذا ٠ولكن ماذا تكتبين ؟ »

« انني اتسلى برسم بعض الافكار و في نيتي ان اقدمها لتنشر في الجريدة ؟ »

« هه : هه : انتِ ايضاً تكتبين مقالات ؟ انني ارى الان السبب في ميلك الى الذهاب للجلسة الاحتفالية : هه : هه : « عندك ما عند الاجاويد ؟ »

فصل عاشر

وتهتز اعواد المنابر باسمو　　فهل ذكرت اباءها وهي اغصانُ

(لبعضهم)

رايتُ رجالاً يكرهون بناتهم　　وفيهن لا تكذب نساءٌ صوالحُ

وفيهن والايام تعثر بالفتى　　خوادم لا يمللنه ونوائحُ

(معن بن أوس)

ابتدأت الجلسة الساعة الثامنة وكان المدعوون ينتظرون الافتتاح غير ان الرئيس ابى الا الانتظار قليلاً ريثما يتم عدد المدعوين لانه من المستحيل عندنا ان ياتي المدعوون في الوقت المعين. ولو عرّضنا انفسنا بهذا العمل للوم الفرنجة (لكن يجب على من يلومنا ان يذكر ان بلادنا خالية من السكك الحديدية وما شاكل مما يُلزم المتفقين على اللقاء في الاوقات المعينة وليس الكل عندنا اصحاب عربات فيسهل علينا الوصول بالوقت المناسب فاكثرنا فقراء نسعى الى مقاصدنا مشاةً. هذا عذرنا ويلزم قبوله لدى العقلاء ولو كان لا يكفي نوعاً) وعند الساعة الثامنة والربع راى الرئيس ان القاعة كادت تغص بالمدعوين فافتتح الجلسة بقراءة فصل من الكتاب المقدس وطلب من احد الكهنة ان يقدم الصلاة ثم طلب من كاتب الجمعية ان يقرا وقائع الجلسة الاحتفالية الماضية وان يقدم ملخص اعمال الجمعية خلال جلساتها في بحر السنة. فبعد ان قراء اسماء الاعضاء القانونيين والاكراميين والمراسلين واتى على ذكر بعض اعمال الجمعية من حيث قبول الاعضاء المتجددين ونوع المباحثات والخطب التي قدمت وذكر بعض المسائل التي بحث فيها وهي لا تخطى

المواضيع العلمية والصناعية والادبية واللغوية والدينية وبعض امور اخر- رجع الى مكانه والقوم يصفقون اعتبارًا لاعمال الجمعية ثم طلب الرئيس تقرير امين الصندوق فانتصب وقدم تقريرًا مطوّلاً اظهر فيه المقدار المجموع من الاعضاء المشتركين ٠ واظهر مقدار ما جمعت من الاحتفال الغابر ومن التقادم ٠ واظهر كيفية اتفاقها على الفقراء ٠ وذكر اسماء الاطباء الذين خدموا الجمعية مجانًا ٠ ثم اثنى عليهم وعلى المستشفى الذي كان يقبل لها بعض المرضى مجانًا وجلس مكانه ٠ واذ ذاك اصغى الجمهور منتظرًا الخطيب ٠ ولم يطل الوقت حتى دعاه الرئيس فتقدم وقد منطقته العيون واحدقت به النواظر وفتحت الاذان لاستماع اقواله الدرية ٠ اما الخطيب وكان ٠٠٠٠ فافتتح الكلام في موضوعه ٠٠٠٠ والقى على مسامع الحضور ـ بفصاحة غريبة ـ معاني كالعسجد ٠ فسحر الحضور سحرًا ٠ واسكر المستفيدين سكرًا ٠ ولم يخلُ خطابه من النكات اللطيفة المسلية بل كان من وقت الى اخر يبث من احاديثه الرقيقة اللطيفة بعض البدائع فيضج القوم استحسانًا ويعلو تصفيقهم فيملاء المكان ـ وهكذا كنت تارةً ترى الوجوه باسمة وطورًا متاثرة مندهشة حتى اتى خطيبنا على نهاية خطابه فعلا ضجيج القوم بالاستحسان ورجع الخطيب الى مكانه بين تصفيق واستحسان ـ واذ ذاك اعطى الرئيس فرصةً انتشر فيها الاعضاء ينعشون المدعوين بالمرطبات ٠ وكلٌ قصد اصدقاه من الحضور يتبادل معهم بعض الكلمات وارتاح الاعضاء لاستماع انتقاد الجمهور الذي شكر من طريقة الجمعية وكان كل يعتبر مقدار اشتراكها زهيدًا ٠ وهنا لا نخفي عن القراء ولو طال الشرح « تمسكًا باظهار الواقع » ما يحدث في مثل هذا الاجتماع خصوصًا والقاعة كانت جامعة عرائس دور كانهن اقمار وبدور كلهن بالملابس البديعة المتقنة « وكان الرجال وجدوا بينهن منتشرين للزيادة في جمالهن»

ـ واللبيب يفهم ـ ومن السيدات من كنّ متزوجات ومنهنّ عزبات والسواد الاعظم من مدارس ثلاث للسيدات . وكانت على وجوههنّ علائم سرور ظننتها ناتجة عن اللذة بالخطاب . غيرانه كان بينهنّ من لم تحصر لذتها بالخطاب وحده بل لوجود من اعتادت مراسلتهم من الشبان ـ مراسلة العيون فقط ـ فان هذه الجلسة كانت رابطاً اقوى يقترب فيها المحب من محبوبته و يتسهل على الاثنين مراسلة ملامح الحب الطاهر النقي بزيادة . مراسلة كان يحسبها بعضهم «هكذا اخبرت» طعاماً لقلوبهم

هذا كان يحدث بين تلميذات المدارس وتلامذتها وغيرهم كلٌ ينظر الى من يحبها واذا اطالت الزمان دون ان تعيد النظر اليه اخذ يفكر في امره ظاناً انها لا تعبأ به . ـ مع انه لم يكن حادثها مرة واحدةً ولا اجتمع بها في مقام ـ غير ان الصبا عمرٌ تجري فيه الغرائب والعجائب اما في وقت الفرصة التي اشرنا اليها فاشغلت العيون الاتها والقلوب لذاتها كل يرمق محبوبته ومصدر تعشقه وفي قلبه جمرات من الحب لا يظن بامكانية اخمادها ـ غير انها سهلت الاطفاء « اسال مجرب ولا تسال حكيم »ـ وقد سمعت عدداً من الذين يؤنبون على حدوث هذه الامور في مثل هذا المقام بدعوى ان كل مكان كرس للعبادة او لدرس الدين وجب تنزيههُ عن مثل هذه الامور . غير انني ـ ولا اعلم ان كان السبب مجرد وقوعي بهذه الجريمة (اذا حسبت جريمة) ـ اظن ان الحب الطاهر كثيراً ما ينمو في مثل هذه القاعات . كيف لا وهو عزوجل يأمر بالمحبة فاحسن مكان لمبادلة الحب الصحيح عندي انما هو مثل هذه الاماكن بشرط ان لا يلهي هذا عن استماع ما به فائدة . واي يقابلني وجهاً لوجه و ينكر . . . .

لنرجع الان . اما بعض اعضاء الجمعية الفتيان فكانوا مسرورين بتقديم المرطبات لانهم كانوا ينتهزون الفرصة لمغازلة الغيد وكانوا يتناظرون بهذه المسألة اي مناظرة (مع انهم كانوا اعضاء جمعية واحدة) فالمناظرة لكسب

رضي السيدات امرٌ يفرق بين الاخ واخيه فلذا كنت ترى الاحداث يتسابقون الى مناولة هذه السيدة وتلك ويتبادلون معهنّ بعض الكلمات اللطيفة . وكانت تجري هذه الامور بحركات لطيفة لم يدر بها الا «صاحب البيت»

وما زالت مغازلة العيون جارية ومبادلة الاشارات دائرة حتى انقضى اجل الفرصة فنبه الرئيس القوم الى ذلك ونهض المباحث الاول — واسمه انيس افندي — وقدم موضوع المباحثة وهو «ايٌّ اقدر على الاعمال العقلية الرجال ام النساء» و بعد ان افتتح المباحثة بسرد بعض افكار علمية عدل الى تقسيم مباحثته الى مواضيع استطرد منها الى ذكر الشواهد على ان عقل الرجل اقدر — اولاً — من حيث تعوده على الاعمال — ثانياً من حيث كبر دماغه عن دماغ المراة ثم ذكر وجه التباين بين الفريقين من مثل اقتدار احدهما على الاخر ونسب ذلك الى التمييز الحاصل في تركيب الاجسام .وكان الرجال يصفقون له من وقت الى اخر والسيدات غير راضيات عن كلامه فخاض في بحثه الى ان قال — «اما عقل المراة فيتبع جسمها وجسم الرجل اقوى من جسم المراة واستنتج من ذلك ان عقل الرجل اقوى . و برهان ذلك ان السيدات لا يصفقن "كالرجال" — فضج القوم له وصفقوا — وما زال يورد الادلة والبراهين الى ان نبهه الرئيس عن نهاية الوقت المعطى له فانسحب الى محله والقوم يصفقون

ثم نهض الرئيس وقال « الان نسمع المدافعة من «كريم افندي» صاحب الوجه السلبي » فصعد كريم الى المنبر وبعد ان اجال نظره يميناً وشمالاً وقع على سيدة ما كانت الا افلين .... موضوع تاملاته ومصدر تغزله فتكاثرت دقات قلبه . وما طال الزمن حتى بدأ كريم (والعبارات الاتية بعض كلامه بحروفه)

« سيداتي وسادتي لو ان للانسان قوة فوق قوته لاستعملت تلك القوة في بث شكري لاقبالكم علينا هذه العشية تساعدوننا في توفير معدات الاحسان بين قوم ربما كانوا الان يئنون تحت اثقال الالم الجوع والمرض ؛ فبحضوركم تنشطون وبمساعدتكم تفيدون ؛ هذه شذرات لا تتعلق بموضوعي الا انني لم ارَ بداً من اظهار عواطفي : اما وقد حان وقت النزال مع رفيقي ودنت ساعة القتال فرجائي الاعظم ان تغضوا الطرف عن هفواتي وتعاملوني بما اشتهرتم به من اللطف؛ وحسبي في المناظرة مدافعتي عن جنس اختصه الله بمواهب الانس والرقة : مدافعة اعدها واجباً من واجبات كل امرء عرف كياسة هذا الجنس ومنتهى ظرفه (تصفيق عظيم) . اما انتنَّ ايتها السيدات فانّ لم أجد في المدافعة عن حقوقكنَّ فلي في انس طباعكن شافع عظيم وعذرٌ اعظم (تصفيق وضجيج)

« اتى مناظري الانيس على ذكر بعض الامور التي اذا قدرني الله نقضتها بما لديّ من البراهين » . ثم اخذ كريم يبين ان الفرق الكائن بين العقلين انما هو استعمال الاول اكثر من الثاني واظهر اقتدار السيدات على الامور العقلية واستشهد على ذلك بمقابلة الشبان والشابات في اميركا مبيناً سبق بعض السيدات وذكر اسماء بعضهنَّ اللواتي فقنَ رفاقهن من الشبان هناك وفي المدرستين الجامعتين في كامبردج واوكسفورد من اعمال بريطانيا ودبلين (في ايرلندة) وبرلين وسويسرة ثم ذكر اسماء عديدات من المشهورات من السيدات العربيات والفرنساويات والالمانيات واظهر اقتدار النساء في بلاد الروس على الاعمال العقلية والجسدية كالرجال وعاد فانتقد ــ بكل لطف دون مس شخص مناظره ــ كلام رفيقه اولاً من حيث العادة . فقال ان برهان رفيقه ينقض نفسه بنفسه . فانه لو مارس النساء العلم واهمله الرجال لفقنهم . وثانياً من حيث كبر الدماغ فقال في هذا

« ان النواميس الطبية تبين لنا ان كلما استعمل كبر حجماً » وهذا سبب كبر دماغ الرجل فلو استعمل دماغ الامراة لزاد حجمه . ثم انتقد كلامه من حيث التصفيق ونسب ذلك الى افتخار الرجال بقوتهم ليوهموا بها الكون اما السيدات فمتى شئن يمكنهنّ ان يأتين باعمال اعظم من اعمال الرجال « واذ ذاك صفقت له السيدات وحدهنّ بحرارة تامة ساقت الرجال الى مساعدتهنّ فلما انتهى التصفيق قال » مما ظهر الان يتبين اقتدار السيدات ليس فقط على الاعمال كالرجال بل اقتدارهنّ ايضاً على قيادتهنّ اياهم » ـ فتجدد التصفيق ـ وما زال كريم ياتي بالشواهد و يورد الادلة حتى اتى على قول انيس من حيث تركيب الاجسام : فبيّن ان هذا عرضي وانه لولا تعرض النساء لما لا يتم الكون بدونه لكنّ قادرات في كل آن على مجاراة الرجال في الامور العقلية والجسدية

وانتهى وقته فرجع والقوم يصفقون له بحرارة لم تظهر قبل لغيره خصوصاً لانه كان يدافع عن الوجه السلبي ومع ذلك اجاد واي اجادة وذلك بلغةٍ فصيحة ونطق كالدرّ مع انها كانت اول مرّةٍ تكلم فيها امام العموم فزاد القوم تصفيقهم ولم ينتهوا حتى انتصب انيس مرةً ثانيةً امامهم واخذ ينتقد رفيقه بحجة قوية ولكن لم يفد ذلك في محو ما رُسم على صدور القوم من افكار كريم وبراهينه . فتكلم والقوم من وقتٍ الى اخر يصفقون . ولكن بحرارة قليلة ـ حتى انتهى الى آخر اعتراضاته ـ وبرجوعه قابله السامعون بما يستحق من التصفيق واذ ذاك رجع كريم وهو اشد حرارة من الاول واخذ يتكلم بهدوءٍ تام ورصانة ورواق وانقلب منتقدًا بكل رقة اعتراضات خصمه الاخيرة مكيفاً صوته وحركاته الخطابية على مقتضيات الاحوال . وكان لما يحتدم حدةً ياخذ بمجامع الحضور و يجذب العيون فتتطاول الاعناق اليه بانفاس منقطعة وقلوب ساكنة لئلا يفوتهم كلمة من كلماتهِ الدرّية

لانه كان صاحب قوة غريبة على الخطابة وكان لا يبقي نظره في مكان واحد بل يجول به من مكان الى اخر : وعليه كان اذا راى كلامه قلل من حرارة السامعين تجددت فيه النخوة وازدادت روحه الحماسية فيعيد الوجوه الى بشاشتها والاحداق الى شخوصها . وما زال يتنقل بانتقاداته حتى راى القوم قد اقتنعوا باهلية عقل النساء للاعمال العقلية كالرجال. فرجع الي مكانه وقد روى غليله. ولكنه لم يرتضِ من نفسه كما ارتضى منه غيره من حيث الاجادة في الخطابة وما انساه كدره الاروح الجمهور الحماسي فانهم كادوا ان يصموا الاذان بتصفيقهم اما هو فابى اظهار ادنى كبرياء من هذه المقابلة خصوصاً وقد لمح من انيس علامات الحسد فاحنى راسه والقوم يصفقون ولم يكفوا حتى اعاد الرئيس قرع الجرس عدّة مرّات. ونهض حضرته واخذ يورد افكاره بهذا الصدد وما زال ـ وكان خطيباً مصقعاً ـ حتى اتى على اخر حكمه (وكنت اصغى بكل لهفة) ولما اتى على هذه العبارة ـ واذ ذاك صار هدوٌّ زايد بالقاعة «ولو كنت اترك المباحثة لحكم استناداً على براهين المتباحثين لكنت ـ وكل بينكم ـ نحكم باقتدار عقل النساء على الاعمال العقلية كالرجال غير انني باسف اقول ولولا واجبات الحكم لما قلت ان القوّة العقلية عند الرجال تتميز «ولو بعض التمييز» ومع انه كان من افصح خطباء البلدة وكان ينتظر من الجمهور مزيد الاستحسان لتلك العبارة المنسجمة التي نطق بها لم ياتِ احدهم بصفقة واحدة لنحوٍ من خمسة ثوانٍ بعد جلوسه ولكنهم ذكروا واجباتهم نحو شخصه الكريم الفاضل فصفقوا له بحرارةٍ لا للدلالة على استحسانهم الحكم بل كلام الحكم لانهم كانوا يريدون ان تكون صورة الحكم على هيئة ثانية ولا اعلم لهذا سبباً وبعد الحكم قدم احد الاساتذة بعض الملاحظات على الفلسفة ومرَّ الجمهور ببعض العمليات الفلسفية والكيمية واحرق امامهم بعض

قطع ماسية

بعد هذا فضت الجلسة وذهب كل الى مكانه . اما كريم فبعد ان تزود من اقلين نظرات متتابعة همّ بالذهاب واذا باليد التي اوقفته وهو يتامل قبل الاجتماع قداوقفته مرّة ثانية وسمع من صاحبها بالفاظٍ ارقّ من النسيم هذه العبارة « عزيزي كريم اسمح لي ان اقول لك بعض الكلمات . انني عارف حق المعرفة انك ستفوق كثيرين من اقرانك وهذا سيهيج على شخصك زوابع لا تسكنها اعظم مسكنات الارض ـ لانها من انفسٍ حية ومن صدور بشرية شغلها في هذه الايام اثارة مثل هذه الزوابع ـ « انك ستُحسد و ينتقد على كل حركةٍ من حركاتك . فلا تجعلن هذه تحط من عزمك او تشين من قدرك في عيني نفسك فالزمان باهله اعداء المتقدم : اقبل هذه الكلمات من قلبٍ يحبك محبة اخوية وعلى حقارتي ـ استغفر الله ـ اقدم لك قلباً مخلصاً ابوابه مفتوحة لك في كل آن »

« سيدي ليس لي من العبارات ما يكفي لاظهار ممنونيتي من شخصك الكريم غير انني لولا خيانة جناني كنت اتدفق كالسيل لافي باظهار شكري »

ومن ثم اخذ كل بيد الاخر وضغط عليها بحرارة صادقة حقيقية وافترقا

« لافض الله فاك يا كريم افندي ما الطف مدافعتك عن جنسنا »

« كثر خيرك سيدتي ليس لي فضل في هذا الدفاع فمن يعرف محاسنكنّ ولا يفعل اكثر مما فعلت فانني دفعت الى ذلك تقودني جواذب بدائعكنّ »

« لا . لا . ياعزيزي فقد اجدت كل الاجادة »

« كثر خيرك سيدتي »

«ه٠ه٠ه٠ كريم بيك عال عال عال هكذا هكذا والا فلالا»

فقال صديق لكريم كان بجانبه« الله اديب افندي ما الذي طرا عليك او اصاب عقلك»

اما اديب الذي كاد يختنق حسداً فلم يجب ولكنه اكتفى بضغط يد كريم؛ اما كريم فلكي يمحو ما ارتسم على لوح قلب اديب من الحسد قال

«ماذا عملت ياصديقي الا ما يعمله كل انسان. فالسنة القادمة اراك مثلما رايتني ويكسف بدرك نور شمسي الضعيف»

قال هذا وانسل بين الجمهور غير انه لم يتمكن من الانسحاب بسهولة لان معارفه واصدقاه كانوا يوقفونه كل يلقي في اذنيه عبارة ما. وكان يسمع هذا يسال عن اسمه وذاك عن شغله الخ وما زال سائراً حتى مر بانيس فتبادلا التحيات اما انيس فكان ايضاً محاطاً ببعض الاصدقاء ولم يحرم بعض علامات الاستحسان من بعضهم ولم يطل اجتماع الاصحاب كثيراً في الممرات امام مكان الاجتماع بل تفرق كل الى بيته فسعى الشبان على اثر السيدات هذا ليرى« ابنة شقيقه »وذاك ليرى «ابنة عمه» او اخته والسواد الاعظم ليرى اخت غيره اما الساعون وراء روية اخوات غيرهم فكانوا القسم الاكبر. قلنا ان بنات المدارس كنّ كثيرات فسعي الشبان الى باب المدرسة الخارجي واحاطوا به كالدائرة الا من الجهة التي كانت تخرج منها السيدات (كنت اذم هذه العادة ولكن بعد ان طفت العالم رايت ان العدد الاعظم من البشر يصنع هكذا فلم اعد اذم مجبوراً) كل يرصد مصدر محبته على فكره. وكانت اذا مرت ونظرت اليه تبسم فرحاً وذهب الى بيته خفيف الروح طلق المحيا والا اذا صدف ان نظرها لم يقع عليه شكا الصدو كر راجعاً جريح الفواد قريح الجفن.

ما الذ هذه الايام وما اجهلها ..... اياماً لايعرف فيها الفتى الأ واجبات طفيفة كهذه وغيرها من مثلها. ولايخفى على المجرب اللذة التي يشعر بها الفتيان في مثل هذه الظروف هذا اذا كانت قلوبهم نقية غير مفسودة وغير طاريءعليها روح التدنس والعار هكذا كانت حالة كثيرين من الاحداث والحدثات منهم من ذهب يئن انين المريض يقول لنفسه «لو كانت اسما تحبني لكانت نظرت اليَّ ولو نظرة واحدة» (مسكينة كيف تنظر اليك وانت محاط برفاقك اعذرها سامحك الله. الحق عليك. على فرض انها تحبك افلا تظن انها تستحي ان تنظر اليك وانت بين عدد من الشبان مثلك) ومنهن من ذهبت الى فراشها (في مدرستها او في بيتها) ورمت بنفسها عليه تذرف الدموع (هل تتكدر السيدات اذا قلت هذا ؛ اوَ هل يخطر لهنَّ ان هذا يعيبهنَّ ؛ كلا لعمري فانهن معذورات على هذا . فالطبيعة حقوق واذا اظهرت السيدة مثل هذه الحاسات دلت على نقاوة قلبها وطهارة لبها . فلو سمع فريد مثلاً ما تقاسي لاجله مهجة وانها تذرف من صده الدموع السخينة لكان يشق جيوش المصاعب ويقتحم بنفسه الاهوال مرضاة لها فما من شيء في العالم يؤثر في قلوب الشبان مثل استماعهم هذه الاعمال) قائلةً « آه ما اقسى نجيب لماذا ينظر اليَّ كلما التقينا . ان في مدرسة الاحد او على الطريق او في الكنيسة . اذا كان لا يحبني : آه ما اقساه : ولكن كيف لا يحبني وهو دائماً يسعى الى حيث يراني في محلات الاجتماعات وقد طالما لحظت منه هذه الامور فهو يحبني ولااشك ولكن آه علَّ هذه المحبة ليست صادقة ؛ آه لا يمكن : ما اجهلني كيف احبه ؟ ولم اتكلم معه كلمةً واحدة . ولكن لماذا لم يقف هذه العشية في مكانه المعتاد؟ فاراه قبل الذهاب الى المدرسة ــ او البيت ــ آه ما اقساك يانجيب . الاحد الاتي اعلمك نتيجة قساوتك سابقى كل الوقت دون ان انظر

اليك نظرةً واحدةً »ـ يامسكين يانجيب لا اشك انك كنت تدوّر عليها كل العشية لتراها وربما كنت ساعة ترديدها هذه التشكيات تذرف الدموع متوهماً صدها هَ. هَ. قل لها ياعزيزي قل لها ما تقاسي ولا تخف ولكن اياكوالفظاظة . اياك ان ترسل لها تحريراً مع خادم المدرسة او مع خادمها في البيت او مع احد لئلا يقع التحرير بيدآخر فيفشي سرك وتصير العوبةً للجميع . واياك ان ترسل لاحداهنّ تحريرًا لئلا تكون لاتحبك فتضحك عليك وتهزأ بك وربما سلمت ذلك التحرير لوالدتها او لرئيسة مدرستها واتى اليك والدك او احد اقاربك يوماً ما قائلاً « هَ. هَ. يانجيب حصلت على هذا التحرير منك وهو لفلانة فهل تقصد الزواج وانت لم تزل بالقماط » فماذا تجاوب اذ ذاك ؟ اذاً اسمع نصحي ــ واكد انني لا افتخر بالنصح ولو انه نتيجة اختبار كامل فكلنا بالهوى سوى ولكن لماذا لا يكون احدنا قدوة للاخر ياترى ؟ فاقبل نصحي في هذه المسالة اعني اياك ان تظن ـ وانت فتىً ـ ان كل ابنة تحبك وتهواك فعين الصبا وحدها تخيل لك ما انت تظنه فاهتدِ واقبل كلام محب ناصح) .

هذه كانت افكار السواد الاعظم من المدعوين ولكن بعضهم كان يبحث في موضوع الخطاب والمباحثة هذا يقوّم بعض الملاحظات وذاك ينتقد وذاك يمدح والاخر يقدح ومنهم من كان يفكر بلزوم الانضمام الى هذه الجمعية لزيادة النور العقلي والادبي

فصل حادي عشر

اذا رمت معرفة حقيقة الغرام فانظر الى بلابل الحدائق وحمائمها
(الندى الرطيب)

لو في يدي سحرٌ وعندي اخذة   لجعلت قلبك بعض حين يعشقُ
لتذوق ما قد ذقت من الم الجوى   وترقُ لي مما تراه وتشفقُ
(ابن اللبانة)

« سلامتك ياقلب من حبٍ لا اراك فيه الا قاصدًا تطويحي في وهادٍ من المصائب لا تنشلني منها ايادٍ بشرية ٠٠٠٠٠ قد صرفت سنتين كاملتين اردد في غضونهما ذكر محاسن خَلق وخُلق هذا الشاب٠ فكيف اسلو وكيف اصنع والقلب يكاد يطير مع النسيم الذي يهبُّ لجهة منزله : اعشقت يا قلب ؟ فمهلاً على عشقٍ لا تلقى معه الا التعب والنصب ٠٠٠٠ لا يلذ لي في الاجتماعات لذّة ولا يروق لي خاطر بعد حب بدري ٠٠٠ كنت احب ان القلب لا يعصى ٠٠٠ فكيف العمل ؟ ٠٠٠٠٠ ارى الحبيب يطلب الحديث معي ولكن علامات وجهه لا تدل على المحبة واراه لا ياتي بكلمةٍ تدل على ٠٠٠٠ اراه كل يوم على طريقي للمدرسة بالوقت الذي امر فيه ولكن قبالة الشباك الذي اراه فيه ابنة نبيهة لطيفة لعله هائمٌ بها ٠٠٠٠ فاذا كان ذلك كذلك فكيف اصنع ولم ارَ بين الشبان فتى يمكني ان احبه سواه ٠٠٠٠٠ صرت لا التذ بسهرةٍ الاّ حيث وجد ٠٠وما ذلك الا لكونه اذا حدث فحديثه عارٍ عن التكلف واذا وجد في سهرةٍ حولها الى هيئة انس لا يحدث فيها مناظرة ولا يجسر هذا ان ينظر الى ذاك بعين الغضب و يرميه من وقتٍ الى اخر بالفاظ

وعباراتٍ فظة، محضره محضر انس وحديثه حديث ادب . و يكفي ما يظهر منه في كل يوم: نعم انه فقير وابن فقراء ولكنه نشيط واعماله التي يعملها ـ على حداثته ـ تدل على نجاحه المستقبل .... فا، لو كنت اعلم انه يحبني ...لا ...لا ... هو يحب تلك الابنة البديعة النبيهة ولا يحبني فلماذا علقت قلبي به منذ زمان طويل؟ ...ولماذا أنست بعشرته الانس الزائد ؟ ...اخي يقول انه قادم هذه العشية علينا. فما اسعدها ليلة بحضوره »

آه اين انت يا كريم لتسمع كلمات اقلين التي صار ذكر اسمك عندها احب اليها من الحياة لكنت تحيا حياة ثانية »

فصلٌ ثانٍ عشر

الكتابة ترجمان الافكار ووسيلة كشف الاسرار
(لابن زرارة)

« تحرير اول»

عن بيروت الى القدس في ١٦ تموز ـ ١٨

« عزيزتي لويزا معلوف

« ابعث اليكِ بهذه الرسالة لاعلمكِ انني نلت الشهادة المدرسية ولكن يلزمني بعد بعض الدروس اللغوية فلذا ساذهب كل يوم وادرس فيها ساعتين. ما احلى « العلبة والجردان » و باقي الاشياء التي ارسلتها لي .وصلتني ايضاً الرواية الانكليزية التي ارسلتها. اما من جهة طلبكِ فساقدمه مع اول مسافر يذهب الى القدس . ساذهب

نهار غد الى السوق واشتري لكِ الحوائج التي طلبتها . ولولا الإزار كنت اذهب اليوم ولكن آه من الحر الذي يعيقني . اما غداً فسأذهب باكراً وارجع بالعربة فلا اشعر بحرّ . تسالينني عن الوان الفساطين الدارجة اليوم فاقول لكِ ان الازرق السماوي هو اللون السائد وتسمعين من الشبان كيف توجهنا « آه انهن نجوم في سماء » وقد نظم بعضهم لاحداهن بعض الاشعار بهذا المعنى .... اما انا فلا البس الا اللون الذي تعرفينه . كنا البارح ذاهبات الى الرمل لبيبة وسلمى ولوسيا وميليا وانا فصادفنا هناك عدداً من الاصحاب وكان بينهم اخوكِ كريم الذي تباحث مذ مدةٍ مع انيس كما اخبرتكِ — ومن تلك المدة لم اره — بالحقيقة انه شاب من احسن شبان البلاد . يقولون انه يحب لبيبة خوري . هكذا قال البعض فهل قال لكِ شيئاً بهذا الشان ؟ لا تواخذيني على هذا الموضوع لا ادري ما جرّني اليه . اخبريني عن القدس وعن كلما يجد عندكم . وصدقيني مع الف قبلة — انني محبتكِ الى الابد

« اقلين .... »

« تحرير ثانٍ »

« الى بيروت عن القدس الشريف في ١٧ آب — ١٨ »

« عزيزتي اقلين

« وصلني كتابكِ الكريم فاخذت رقته ولطفه بمجامع لبي وسررت من الاخبار التي اوردتها لي . غير انني ما عهدت بكِ الكسل فتحريركِ — على ما فيه من البدائع — قصير جداً . فعوضاً عن شغل — نصف قيراط في « خرجك » الذي تشتغلينه كان من الواجب عليك ان تزيدي تحريرك قليلاً — سررت جداً من استحسانكِ الاغراض التي ارسلتها

وسررت جداً بما ارسلت لي «اكثر الله خيرك» قد عزمت ان اعمل فسطاناً
علي الزّي نمره ١٦ في البرنامج الذي بعثته لي . من اين اتيتِ بهِ ؟
يا معدن اللطائف . الخياطة هنا استصعبت التفصيل عليه ولكنني ساعدتها
بقدر امكاني واظنها ستتمكن من خياطته على حسب المرام .
تسالينني عن كريم اذا كان يحب لبيبة خوري . لا اظن هذا ابداً ابداً
ولكنهُ (منحوس) يحب دائماً ان يشبك البنات بحبه(واظن هذا بدون قصد)
قد حرر لي تحريراً مطولاً مع البوسطة الماضية وفيه ذكر لي كلما حدث
في المباحثة الخ . ويذكر لي عزمه على السفر الى مصر اظن سيزورني
واذ ذاك سأساله عن بيروت والاصحاب . آه ما احسن بيروت
وتلك السهرات اللطيفة التي كنا نصرفها معاً . ليس عندنا امور
مهمة لا خبرك عنها . ارجو عدم انقطاع تحاريركِ وصدقيني يا شقيقة
الفؤاد ـ اني الى الابد محبتكِ

«لويزة»

فصل ثالث عشر

ياغزالاً حوى الجمال ترفق   يجب لديك يرجوانتصاره
قف لنا في الطريق ان لم تزرنا   وقفة في الطريق نصف زياره
(حسن العقاد)

«ماذا تلعبون ؟ هل تلعبون بالمظلوم ؟ ام غيرها ؟
«سيدتي افلين اظن ان لعبة المظلوم حسنة جداً . وعندي من
القصاصات الجديدة كثير»
«اين كريم افندي عزيزتي افلين ؟ واين ابن العم نجيب ؟
«اظنهما خرجا لاتمام حديثهما»

« اه جورج ونسيم افندي هل تريدان ان تحادثا السيدتين عفيفة واملي فانها وحدهما ؟ »

« على الراس والعين » قالا هذا وتوجها نحو السيدتين المذكورتين·

لا يخفى على القاري ان السهرة كانت في بيت ابي ڤلين وكان فيها عدد غفير من الاصحاب بقصد صرف السهرة· وكان بين الحضور صديقنا كريم لانه كان يزور بيت اڤلين من وقت الى اخر وكان قد خرج مع ابن عمها نجيب بقصد دعوة سيدةٍ واخيها من الجيران · فرجعا وهما مصحوبان بهما وعلامات الحبور تلوح على وجهيهما· وكانت السهرة حافلة جدًّا فيها عدد من الفتيان ابناء العائلات الكريمة وبينهم « اديب كرمه » صديقنا القديم واخو كريم وعدة سيدات· فلما رجع كريم ونجيب والزائران الجديدان أُنبئوا بعزم الجمهور على لعبة المظلوم · فاستحسنوها ودارت اللعبة على قدمٍ وساق يَظلم هذا ويُظلم « ذاك » . بقي الجمهور نحوًا من نصف ساعة يلعبون بها ثم اقترحت لعبة غيرها وغيرها· وفي اثناء اللعب كان ينظر كريم الى اڤلين فيراها تنتقل بنظرها منه الى غيره ولم يكُ في نظرها اليه امر غير اعتيادي فلم يجسر اذ ذاك ان ينظر اليها الا بعيون طاهرة تخالط معناها البرودة ولكن لو نظرت اليه اڤلين لعلمت ان تلك البرودة خرجت عن قلبٍ كوته نار الحب كيًّا · وما زال الحضور على ما كانوا عليه حتى الساعة الحادية عشرة . وعندها ذهب كل الى بيته شاكرًا من لطف اصحاب البيت مزيد الشكر· اما « اديب » فذهب مسرورًا من « الحلوى العال » ومن « وسع القاعة » لانه تمكن من « اللعب بكل سهولة »

اما كريم فذهب الى بيته وبنفسه امور عديدة ـ وهكذا اڤلين ـ وحبذا لو عرفا ما في قلب احدهما نحو الاخر · اما الاول فذهب الى غرفته واخذ يتأمل بنسبته الى اڤلين ويقول « آه لو كانت تعطف عليَّ

فانهم من انعطافها رغبةً في الحب » ولكنها لا تكلمني الا فيما ندر وكلاتها ممزوجة بانتقاد لا يدل على حرارةٍ ارغبها : لماذا لا اقصدها قبل سفري الى مصر واكلمها ولو كلمة واحدة ؟ · كيف العمل · ؟ باية طريقة اكلمها؟ انها تمر بجانب بيتنا في طريقها الى المدرسة · ومن بيتنا الى المدرسة نحوًا من خمس دقائق · فما قولك يا كريم في رقعةٍ تسطرها لها غدًا وتضعها بيدها وهي ذاهبة الى المدرسة؟ ولماذا لا تطلب في تلك الرقعة مرافقتها ثاني الايام للمدرسة لامرٍ مهم ؟ ولكن لماذا لا تذهب معها بدون رقعةٍ تسبق؟ فربما منعها الحياء عن قبول مقابلتك . وربما لم تكُ تهتم بك فترفض طلبك · او لا تعلم انك لم تزل فقيرًا ؟ آه من الزمان فكأن الحب لم يخلق الا للاغنياء · لا · لا · لا بد من ارسال الرقعة اولاً . فان كانت تهتم بك قالت نعم وقبلت بمرافقتها · والا ضربت عن الجواب صفحًا وماذكرت امر الرقعة ابداً ثم تقابلني بعد ذلك ببرودة فأعلم وقاحتي واكظم غيظي وخجلي وابقى الدهر اسعى وراء النجاح بدون غاية خصوصية»

و بعد هذه التأملات قرر وجوب تسليمها الرقعة يطلب فيها مقابلتها ومرافقتها وهي ذاهبة الى المدرسة · فاخذ رقعة زيارة وكتب عليها ما ياتي

«تشرين ـ سنة ـ ١٨ »

« ايتها السيدة الموقرة اثلين »

« بعد التامل الدقيق رايت ان اتجاسر بتقديم هذه الرقعة اطلب فيها مقابلتكِ ولو بعض الدقائق · ولولا ظني بك انك اكثر فتيات العصر لطفاً وادباً لما تجاسرت فاقدمت على هذا الامر · فاذاً اكلفك مقابلتي نهار غد لدى مروركِ ذاهبة الى المدرسة فاشكرك مدى الدهر . وانني اطلب العذر الوفا على هذه الجسارة ولولا قصر الوقت ولزوم تركي البلاد لانتظرت فرصة اخرى لمحادثتك · غير ان الظروف قضت ان اطلبها على هذه

الصفة « الداعي

«كريم معلوف»

«اظنها انسب طريقة لانه كيف يتيسرلي ان اقابلها بغير هذه الواسطة فعلى فرض انني قصدت مرافقتها وهي ذاهبة الى المدرسة ٠ فلا يمكني ان افاتحها بمكنونات فكري الا بعد مقدمة طويلة عريضة وربما وصلنا الى المدرسة قبل الوصول الى الموضوع»

فصلٌ رابع عشر

هكذا ختم على تاريخ حياتي وهكذا خطت حركاتي. فعلى الدنيا ومن فيها السلام
(لاحدهم)

كم من مومل شي ليس يدركهُ والمرءُ يزري بهِ في دهره الاملُ
(عبيد الله الشيباني)

ثاني يوم مرت السيدة اقلين في الوقت المعين فحياها كريم و يداه ترتجفان وقلبه يخفق وعلى محياه علامات الاضطراب وكل حركاته تشير الى الاقدام على مسالة غير اعتيادية ٠ فبعد ان حياها طلب منها الانتظار برهة امام البيت وكان مطلاً من النافذة فنزل الى الطريق فسلمها الرقعة وعاد و يداه تزدادان ارتجافاً وهو يناجي نفسه قائلاً « في هذه الرقعة منتهى آمالي ٠ فاذا اجابتني بالايجاب اعيش الدهر ناعم البال والا فتقوم عليَّ جيوش الهموم وابقى مدى الايام دون غاية اصبو اليها »

ومن ذا يلوم كريماً فللحب على القلوب سطوة لا ينكرها اعظم رجال الدهر ٠ واي البشر لم يقدم على الاعمال الغريبة من اجل الحب ٠ ٠ ٠ ؟ و بقي كريم كل النهار يفكر في امره و يرقب اليوم القادم فذهب بعد ان عد دقائقه الواحدة بعد الاخرى وجاء اليوم المعهود ٠ فلما كانت الساعة التاسعة

(واقلين تمرّ الساعة العاشرة) جلس كريم في النافذة وكله عيون ترقب الجهة التي تاتي منها فاتنة لبه وكان يسلي ذاته بقراءة كتاب غير انه لم يستطع البقاء على حالة واحدة او في مكان واحد. ولما كانت الساعة «عشرة الا ربع» زاد تلبكه واسرع نبضه! فازفت الساعة العاشرة واذ ذاك وقعت انظاره على اقلين مقبلة من بعيد وعوضاً عن ان توجه انظارها الى النافذة كالعادة وضعت مظلتها امام وجهها فظن كريم ان ذلك علامة الحيا ولم يزل مؤملاً. فعاش تينك الدقيقتين بالامل. ولكن: واسفاه.. مرّت دون ان تنظر اليه. فبهت في مكانه كانه تحول الى صخر ولم يزل على هذه الحالة من الجمود القاتل نحواً من ساعتين ومرت اقلين عائدة الى البيت من المدرسة بدون ان تنظر اليه فزاد قلقه واستولى عليه نوع من الرجفة وصار يهذي بدون معرفة ويتكلم عن غير هدى ثم انسحب الى غرفته وانطرح على فراشه واذ ذاك ولحظه مرّت به احدى نسيباته وراته في تلك الحالة فرقّ له قلبها وسالته عن السبب فلم يجب فعالجته بوضع قليل من الماء على راسه وجرعته قليلاً من شراب الليمون فلم يمض اكثر من ساعة حتى رجع الى نفسه وعادت اليه قواه فقال « الان قد ختم على ماضيك يا كريم باقفال من حديد فعلى الدنيا ومن فيها السلام »

اما افكار السيدة اقلين والداعي لرفض تلك المقابلة البسيطة فامور يجهلها الكاتب تمام الجهل ولكوني لست من المتطفلين لم اسالها عنها. مع ان كريماً اخبرني بكل احواله وما تأتى عليه معها

ومضي على هذه الحوادث عدة ايام واسابيع لم يرفيها احدهما الاخر وبعد مضي شهر كامل تقابلا ولكن بكل برودة حتى جرى ما غير في ظروف كل منهما ولم يتقابلا بعد هذه الحوادث الا بعد مضي سنوات عديدة كما سياتي بيانه

القسم الثاني

الكتاب الاول

فصل اوّل

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله ولا مال في الدنيا لمن قل مجده
(المتنبي)

في قسم من اقسام لندن يدعى (الوست اند) (The West End) ـ القسم الغربي ـ بيوت الشرفاء واصحاب الرتب الرفيعة والالقاب السامية والاغنياء المترفون. وفي هذا القسم ايضاً اغنى شوارع بريطانيا واكثر مخازن تجارها اصحاب الثروة الواسعة وفيه اكثر المراسح الغنية واحسن التحف ومعارض الصور لاشهر مصوري الانكليز وغيرهم والى الجهة الشمالية الغربية من كل هذه البقعة وعند منتهى اغنى شوارع لندن المدعو « ريجنت ستريت » شارع يدعى « بورتلند پلايس » وفي هذا الشارع بيوت من اغنى بيوت لندن. اجرة الواحد منها لا تقلّ عن الالف ليرا انكليزية سنوياً و يرى الناظر في هذا الشارع الواسع الاطراف خدمة الشرفاء هذا يهتم بعربة سيده وذاك ينتظر سيدته على الباب يقود جوادها. و بالاجمال ترى ان هذا الشارع لا تمرُّ فيه الا خيول بديعة مطهمة اصيلة يخالها الناظر صوراً قصد منها اظهار جمال الخيل وكلها ـ ما لم تكن مشدودة الى العربات او مسروجة استعداداً للنزهة ـ

بكساء من الصوف لايظهر منها الا العيون - في ايام الشتاء - واطراف السواعد . (اكثر هذه الخيول عربية الاصل) وهذا الشارع موصوف بنزول السفراء فيه تقرباً من شرفاء البلاد وامرائها

وفي هذا الشارع بيت من بيوت الارل - لان الارل المذكور كان صاحب عدة قصور في لندن وفي ضواحيها ولكنه فضل هذا المنزل - ولا ادري لذلك سبباً - وفي عشية ليلة صفا جوها رجع الارل - الى بيته واخذ يتفحص احوال الخيمة المنشورة امام بوابته منها الى الشارع وراى بساطاً قد نشر على الارض - تحت الخيمة المذكورة وقاية لارجل المدعوين - فسرّ باتقان هيئة بيته الخارجية غاية السرور لانه قبل ذهابه من البيت وُعد بلقاء ما يسره حين الرجوع فاهل البيت كانوا مستعدين لحفلة رقص (باللو) في تلك العشية . اما الارل فمع انه كان قد تجاوز سن الخمسين تعود من صغر سنه على الملذات فصارت فيه ملكة تسره كما تسر الشبان ولو رايته يرقص في الحفلات الخصوصية لما ظننته يتجاوز سن الثلاثين . ولكنه كان من الذين لا يريدون الا التمتع ببنات افكارهم مع انه كان رقيق الطباع الى درجة لا تقاس ولكنه خلق لينفذ كلمته على غيرها ولو كان الخصم ملكاً . وكان جميل الصورة تلوح على محياه دلائل الشرف وعلو المقام اما لونه فكان مصبغاً حمرة نقية ولحيته (اوبالحري لحيتاه) موخطة بالشيب . كل هذا زاد في هيبته ونفوذه وكان طويل القامة - ٦ اقدام - قوي البنية من العيال القديمة البريطانية التي كانت ولم تزل تفتخر بخدمة المملكة والبلاد مذ اجيال عديدة . ولو ذهبت الى قصره الخصوصي في داخلية البلاد الواقع ضمن مقاطعة ... . لرايت في احدى القاعات بجانب «معرض التماثيل» قاعة الصور الزيتية الكبيرة . وهناك صور كبار عائلته النبلاء من «مارشالية» و«جنرالية» و «ادميرالية» و« لوردية و«حكام وغيرهم . وبمجرد النظر

الى هذه الصور يعود بالمرء الى ذكر الحروب التي جرت في ايام هولاء الشرفاء حروب خدموا فيها بلادهم حق الخدمة وعادت عليهم بالقاب سامية تضاهي القاب الملوك اما اخر هذه العائلة فكان الارل الذي ذكرت صفاته في بداية هذا الفصل

فدخل الارل ... بيته وهرع حالاً الى قاعة الرقص فوجدها على غاية ما يرام كل فرشها منقول وارضها مصقولة بالفرنيش جيداً فقرع الجرس ولم تمض برهة حتى حضر الخادم بالثياب الرسمية وراسه كالثلج من المسحوق المرشوش عليه فامره مولاه ان يطلب من الكونتس .... مقابلته في غرفة الرقص فانحنى الخادم طوعاً وقفل راجعاً

«عدم المواخذة عزيزتي سيسيليا على تكدير راحتك فوقت الاستعداد للبس لم يأت بعد لان الساعة الان ـ واخرج الساعة من جيبه ـ ستة فقط»

«حسن عزيزي ماذا تريد ؟»

فقبلها الارل وقال

«احببت ان امارس الرقص قليلاً قبل العشية لارى كيف صنع المشيب فانني لم ارقص منذ كنت في الحروب....»

«آه: آه: ما اطمعك ياعزيزي انسيت اننا في سن الكهولة ولا يجدر بنا ان نعمل عمل الاحداث»

«دعينا من ايام الكهولة عزيزتي فلا اريد ذكرها ولا اريد ان افتكر بها فكلما بعدت فرحت والان هيي بنا الى (فالس) لنذكر ايام الشباب حيث كنا نرقص بدون موسيقي على انفراد (١)

تذكرني ادوارد بالايام الغابرة. والان ارجوك ان تغتنم فرصة

---

(١) الفرسان الانكليز في اوقات السرور لا يسالون الا عن سرورهم ويضعون الالقاب على جانب. اخبرني صديق ان سمو ولي العهد بعد العشاء في حفلات الرقص ياحذ بالجمهور و يقودهم الى اعمال تشابه اعمال الاولاد ولهذا نرى ان العادة اليوم بين ارباب الطبقات العالية في بريطانيا ان يطلقوا العنان للسرور المرتب

ذهاب الخدم باغراضهم ولنذهب الى غرفة الطعام فترى كيف ان «مرتب غرف الصالون» ـ مع الخدم ـ قد اجادوا . بالحقيقة ان الغرفة فائقة في ترتيبها فالزهور مرتبة على هيئات بديعة لطيفة وكل الاواني مزينة حسب المرغوب . . اظن انه يلزم الذهاب الى الغرف الان»

فصلٌ ثانٍ

ان يكن حال بيننا البعد رغماً دون قرب فللولا ما احالا
لو بلوق الزمان من بعادٍ لرايتا حدوثه عدَّ محالا
(مراش)

يصعب على القاري العربي ان يتصور جمال تلك العربات التي كانت تتسابق ناقلة اربابها نحو بيت الارل ـ بعضها مقفول والبعض الاخر مفتوح تجرها خيول مطهمة تنقل قوائمها بترتيب كانه ميكانيكي من حيث الدقة في الحركة . يسوق هذه الخيول في كل عربة اثنان احدهما السائق الرسمي والاخر المساعد ولبعض هذه العربات اربعة من الخدم اثنان للجهة الامامية (وهما السائق والمساعد) وآخران يقفان خلف ظهر الركاب على اريكة صغيرة هناك خاصة بهما . اما اردية هولاء الخدم فكانت مختلفة الالوان باختلاف اذواق اصحابها فبعضها زرقاء وسوداء والبعض حمراء وصفراء مذهبة محلاة بالازرار الذهبية . اما الاكسية السفلية (البنطلون) فكانت كلها بيضاء كالثلج لاتتخطى الركبة والساق مكسوة بجرابات من الحرير النقي واقدامهم ملبسة بالاحذية الاطلسية الرفيعة البديعة . كل هذه الاثواب صنعت حسب الزي الذي استعمل في الجيل السادس عشر اما القبعات فاشبه بقبعات الجنرالية . ورؤوس

بعض هولاء الخدم. كانت موشاة بالمساحيق البيضاء وبعضها ملبسة بالشعور الاصطناعية البيضاء اوالرمادية الفاتحة

هذا وصف ضعيف للعربات التي كانت تتهافت نحو البيت والخدم الموكلون بها . وهووصف عمومي للخدام وعربات الشرفاء - كما هو اليوم وكما كان منذ اجيال - التي حملت من اعيان البلاد وشرفائها من هزت سطوتهم البلاد . وكانت تاتي ايضاً عربات اخرى اقل عظمةً وغناءً نقلت المثرعين واصحاب البنوكة والمحلات التجارية الاولى . وكان الارل والكونتس قرينته يترحبان بالمدعوين بشاشة والقوم - بعد التحية وخلع الاردية الثقيلة - يذهبون الى غرف البيت العديدة ويجتمعون بمعارفهم فتدور بينهم الاحاديث ويتبادلون التحيات بدلائل السرور وكان في يد الكونتس باقة بديعة من الزهور (١) يعبق اريجها للقادمين ويبشرهم بسرور المستقبلين في طليعتهم الكونتس اللطيفة . وما دنت ساعة الرقص حتى ازدوج الاصحاب في تلك الغرف العديدة الواسعة ودارت كؤوس المسرات مترعةً . وكنت ترى في جوانب تلك الغرف ازواجاً يتحادثون واخرون يتغازلون مفضلين الحديث على الرقص « ولا خلاف في الذوق» ولا اظن انه يوجد واسطة اخرى لاظهار قوة الافراد في اظهار البذخ والمجد والعظمة المحاطة بالبهجة في الكون اعظم من واسطة حفلات الرقص التي يحتفل بها في بيوت اغنياء وشرفاء بريطانيا خصوصاً واوربا عموماً . اما الان فيسمح لي القاري ان اصف له هيئة الحفلة المذكورة على قدر الامكان

كانت اكثر غرف هذا البيت - او بالحري القصر - مزينة بالصور

(١) عادة في حفلات الرقص تستعملها المضيفات

الزينية البديعة المتقنة والمرايا الكبيرة الصافية ولم يكُ في قاعات الرقص شيء من التحف - لانها تنقل الى غرف اخرى في وقت الرقص خشية تعطيلها - اما الستائر فكانت في الغرف الكبرى - من الحرير الازرق الغامق وفي غرف اخرى بجانبها من الحرير الاحمر وفي اخرى من المخمل الجوزي اللون . وكانت سقوف هذه الغرف الثلاث مزينة بالصور والرسوم الذهبية البديعة وخشب حيطانها من الخشب الماهوغوني الثمين وهكذا كانت ارض الغرف الثلاث المذكورة اما خشب الارض فكان جوزياً مقطعاً على هيئات هندسية لاتعد اشكالها . هذا وصف مختصر لما كانت عليه غرف الرقص ولكنه عرضي في جنب وصف غرف المرطبات غرفٌ تضمنت اثمن انواع الاواني الذهبية والفضيـة . اما بعض قطع التزيين الذهبية والفضية كالمزاهر والمباهر فكانت كبيرة الحجم موضوعة على موائد الطعام فجعلت تلك الموائد نظير ابراج قممها من الفضة والذهب ولما كنتُ على جانب احدى تلك الموائد لم ار تقريباً من كان تجاهي الى الطرف الاخر . قوم حجبوا عن انظاري بزهور وضعت في مزاهر ومجامع من المعادن الثمينة . بقطع النظر عن اواني المرطبات التي وجدت على تلك الموائد كانواع الخمور العديدة والحلوى واللحوم المقطعة وما لا يحد من محليات ومفرحات . اما زينة هذه الغرف على الحيطان وفي الزوايا الذهبية والمعدنية والصينية والخشبية والصور فكانت لا تحصى ولذا اضرب صفحاً عن التدقيق . اما تمرحي عن محاسن الاواني والغرف وانواع الزين في جميع الطبقات . وزد على ذلك دقة صنع السلم الذي يتعرج من طبقة الى طبقة «درابزينه» من النحاس المذهب ودرجاته من الخشب المهوغوني المفروش بالمخمل على انواعه فامور لا تلذ للقارىء كاطلاعه على وصف المدعوين لان السيدات كنّ لابسات الحلل المخصوصة بالمحافل الملكية كلها من الحراير الثمينة . وبعضهم كنّ مزينات بالحلى الثمينة الموروثة عن

اجدادهنّ او عن اجداد ازواجهن (١) وكان بينهنّ سيدات بارعات في الجمال لم ترَ عيني احسن منهن فكنت ترى قدودًا تميس فتاخذ بمجامع القلوب (الا القلوب المبلطة) ووجوهاً كشفت عن معانٍ فاقت معاني البدور والشموس.

وكان الى جانب كل سيدة رفيقها «للرقصة الآتية» او «من الرقصة الماضية» حيث كن في تلك الرقصات ممثلات قول شاعرنا

لله راقصة تميس كانها ظل القضيب اذا تمايل مرهرا
تخطو وترجع كالخيال فلا ترى حركاتها الا كطارقة الكرى

وهم جلوس وقيام بعضهم في غرف الزهور (الكونسرفاتوار) و بعضهم في غرف الاثمار الزجاجية. وكانوا جميعاً معاهم عليه من رفعة المقام وسمو المركز بوجوه باشة وقلوب فرحة كانها لم تر من العظمة شيئاً — البس لكل حالة لبوسها: اما نعيمها واما بوسها — كل يغازل او يلاطف و يقص النوادر المعجبة والاخبار اللطيفة الادبية و بينهم ازواج يتبادلون كؤوس المحبة مترعة

واوجه انظار القاري الكريم خصوصاً — من بين هذا الجمهور — الى سيدة في الثالثة والعشرين من سنها لم ارَ اجمل منها مع انني تنقلت في اكثر الامصار الشرقية والغربية غادة يكل عنها وصفي. أأصفها بالغصن ولاحياة له جذبت انظاري وسلبت لبي أأشبه عنقها بعنق الغزال فمن ابن للغزال ذلك الانعطاف وتلك اللفتة. أأصف العيون بالسواحر؟ كلا فانها كانت سليمة ترج السهام دون قصد الاصابة وترسل السحر لا لضرر بما دل على نقاوة قلبها. واعجب كيف ان احدهما دل على الآخر والدليل مدلول الدال. اما باقي تقاطيع وجهها فكانت تدل على انها شريفة الاصل عريقة النسب ذات انف انكليزي روماني محض وملامح كشفت عن جمال وكمال وقوة عقل. وكانت حيث اوجه الانظار اليها ترقص مع

(١) هذه عادة يفتخر بها افراد العائلات القديمة العريقة السامية الافتخار خصوصاً في بريطانيا

الفيكونت درسدايل ابن لورد مشهور ومع ان ذلك الفتى كان بكليته معتماً في مرضاتها وهي تظهر على وجهها اللطيف علامات الاهتمام بمشاغل داخلية بقيت بادية على محياها حتى الرقصة الثالثة اذ رايتها مع فتى اخر ولما رايتهما لم يكونا يرقصان بل كانا في غرفة الزهور . اما الفتى رفيقها فكان واقفاً واحدى يديه على جبينه والاخرى تحرك سلسلة ساعته والسيدة متكئة على قطعة من اواني الزهور الصينية الكبيرة . اما انا فكنت في الطرف الاخر من الغرفة المذكورة مع سيدة اخرى اتبادل وإياها الحديث فنظرت اليهما بعدان سمعته يقول لها « عزيزتي ادلين ارجوكِ ان ترفعي يدكِ عن هذه الانية الصينية فانها باردة و يضرك لمسها » واذ ذاك جذبتني محاسن الشاب مثلما فعلت بقلبي محاسن الغادة . لانه كان طويل القامة بالنسبة الى السوريين قوي البنية عوارضه مرخية مرتبة له لحيتان « المعروفتان بالوسكرس عند الانكليز » اما شعره فلم يكن اسود حالك وعيناه كبيرتان حادتان تدلان على ذكاء صاحبهما وحسن طويته وله انف شبيه بانوف الجبابرة وعلى جبهته دلائل قوته على العلم وحب الخير . وكان لابساً ثياباً عسكرية رسمية « للسهرة » زادت هيبته عظمة دلالة على تعوده الاهوال وخوضه المخاطر . فلبثت باهتاً انظر اليه حتى نبهتني السيدة رفيقتي بقولها

« ما بالك ؟ أسحرت ؟ »

« سيدتي اعذريني كرماً فالواجبات ولطفك امران يوجبان عليَّ الاصغاء الى حديثك كل دقيقة . كيف لا ولطفك ساحر ؟ . ولكنني جذبت بمحاسن هذا الشاب ولطفه وعلامات الشجاعة التي تلوح على محياه « فاسمحي لي ان اسالك عن اسمه ؟ »

« عرفت هذا الشاب منذ امد قريب في حفلة رقص في بيت اللورد ـ واسمهُ مقرون بالشجاعة والاقدام معروف عند كثيرين من

رجال البلاد ونسائها . كيف لا وقد خدم البلاد خدمات مهمة . فهو على حداثته حضر حرب سيفستبول و بلغ فيها شهرة عظيمة وعاد الى بلاده محفوفاً بعلامات النصر حائزاً على رتبة ماجور وهو متسلسل من عائلة عسكرية وله حوادث عديدة تذكر»

« قد شوقتني ايتها السيدة اللطيفة الى التعرف به اذ يلوح عليه ما ينسب اليه »

« ولكنني لم اذكر لكِ اسمه »

« لا سيدتي »

« اسمه الماجور فيكتور . . . . »

« آه . . اظن انني رايت اسمه في بعض الجرائد ايام الحرب السيفستبولية »

اما القاعة فكانت مزدحمة بالغادات الساحرات الفاتنات تدور عليهنَّ كؤوس الافراح وتمرح فيها ربات القدود الملاح وترسل العيون من مراميها السهام اخوات الرماح . وكان الخدام مشغولين منهمكين بعضهم يلذ بالمقام وهو شاب لم تزل حفلات الرقص واشغالها تلذه اذ يلقي فيها نصيباً وافراً من المرطبات ولا بدع اذا تعبوا التعب الزائد . وكانوا لما اجتمعوا يتحادثون عن جمال تلك ـ كانهم ليسوا بشراً ـ التي رقصت مع ذاك وعن الاخرى التي استغنت بشراب الليمون عن الشمبانيا . و بعضهم يلكمون « طوم » على حظه . و يقولون آه ما ابدع تلك التي طلبت « الشري » منك

اما المتقدمون في السن بينهم فكانوا يقومون باعمالهم كالالات ميكانيكية . وكان بين الخدم ادباء مهذبون مجبورون على السلوك الحسن غير ان في الشباب عواطف لا بد من ظهورها سادة كانوا ام خداماً وكان بين خدام الارل رجلاً ناهز السبعين من عمره وهو رجل تقي حكيم

يحب ادلين ابنة الارل حباً عظيما لانه وجد في بيت والدها قبل ولادتها باعوام ٠وكان موكلاً بمائدة الطعام في هذه الليلة المشهورة وكان يدور حول المائدة كانه يخشى عليها شرًا ـــ ولكن في وقت الحديث بين مخبر المؤلف و بين صديقته عن فيكتور وادلين ـ قال المخبر رايت ذاك الخادم الامين يدور في الزوايا يودلقاء ادلين ورؤياها خشية امور لم اعرفها . ولما راها ـ بجانب فيكتور ـ قفل راجعاً ٠ اما ادلين فراته وكانها فهمت منه امورًا عديدة٠ فقالت لفيكتور »

« عزيزي . هلا دخلت قاعات الرقص ودعنا نرقص قليلاً ؟»

« حسن عزيزتي ، ولكن ساذكر ما قلت عن ان حبك كحبي و ـ»

« وازود يا حبيبي فيكتور . ازود بما لا تقدره كلماتي حق قدره »

« ادلين ٠ ادلين . يا كوكب الحياة ونقطة اهميتها ٠ انتِ وحدكِ كنتِ سبب إقدامي في الحروب ٠ صورتكِ كانت الصورة الوحيدة التي رُسمت على القلع الحربية وعلى حصون الاعداء فكنت ازحف على العدو طمعاً برؤية صورتكِ هناك ٠ ولكن وأسفاه كنتِ بعيدة عني جدًّا »

« فيكتور يامناي ٠ اوَ لم تعلم باي الاهتمام كنت اطلع على اخبارك واتنسم مع الاخبار اعمالك التي كانت تقع على قلبي وقوع الندى على الارض فتنعش فوادي »

« ما اسعدني ياادلين . ما اسعد حياتي التي اهميتها وغمرتها بهمامك ٠آه . ادلين ٠ عساني القى اماني ٠ فاعود اطلب يدك علانية كما ان قلبك لي سرًا عساني اكون كفوءًا اذ ذاك يا غاية الحياة

ونظر الشاب الى الغرفة فلم يرَ احدًا سواهما لان الذي كنت القن عن لسانه خرج من غرفة الزهور مع السيدة رفيقته ـ فتناول يدهـا المرتجفة وضمها الى شفتيه فشعر بحركة لطيفة اثرت في جميع اعضاء

جسده . وماذلك الا لان تلك الرجفة لم تكن الا كهرباء الحب التي
بطاريتها القلب والطبع البشري واسلاكها العيون والايادي والشفاه(١)
وما زالا يتحادثان حتى انتهى الوقت الذي تسمح لهما به القوانين فرجعا
وكانت حفلة الرقص وقتئذٍ حافلة فافترقا

انتهى فيكتور باحدى معارفه . اما ادلين فكانت نصيب اللورد .
فذهبت ترقص معه وهو يردد على مسمعها القصص اللطيفة لانه مذ صغره
كان طلق اللسان لطيف الحديث انيس المعشر وكان مركزه العائلي
يزيد في تقدمه الشخصي غير ان ادلين كانت غير مستوعبة ما
يقول بل كانت تجاوبه كابنة الارل — وليس كحبيبة فيكتور اعني انها
كانت تجاوب كلماته باللطف المعتدل وبكل عزّة نفس وكمال

« الحب . الحب يخضع رؤوس الجبابرة . ويذل قلوب الابطال
ما اقواه . فلما انتهت الرقصة انحنى اللورد — بكل تواضع — وطلب منها
مرافقته الى غرفة المرطبات فذهبا وكان يحادثها بامور سياسية
وعلمية وفكاهية حتى وصلا الى الغرفة وكانت يدها في يده فرات فيكتور
مع السيدة التي كان معها يتحادثان على مائدة الطعام فاستولى عليها
رجفان قوي غير ناتج عن غيرة او حسد بل عن حب حقيقي فلم تخفَ هذه
الرعشة عن اللورد — ولكنه لم يدرِ لذلك سبباً . فارتاحا بضع دقائق
هناك ورجعا . وما زال الرقص في مجراه . تذهب « الفالس » فتأتي
« الكادريل » تذهب « الكادريل » فتاتي « البولكة » على انواعها . تذهب
هذه فتاتي « المازركة » « والشاتيش واللانسرس » « والميلند شاتيش »
« والكاليدونين » (٢) حتى قربت الساعة الثانية عشرة . وهناك دعي الجميع

(١) يعذرني القراء على هذه الملاحظة فقد غرني مرة في هذا المعنى اشعار لاحد كبار البريطان المشهور باشعاره الحمية الغرامية . مع انني فيما اتيت غيرت بعض اقواله الاصلية

(٢) اتيت على ذكر الرقصات بالترتيب افادة للذين يريدونها على ترتيبها

الى مناولة الطعام سوية . وكانت ادلين نصيب فيكتور على العشاء لانهما اتفقا على الرقصة السابقة الشان ليتم لهما العشاء سويةً

« هل سمعتِ عزيزتي عن القاعة الجديدة للصور فانشاء الله اذهب الى هناك غداً الساعة الرابعة لاراها»

« قد سمعت انه يوجد فيها بعض الصور اللطيفة . واظن انها نفس الصور التي عرضت في « الاكادمي » السنة الغابرة . وقد اعد لها صاحبها قاعة خصوصية »

« اما انا فلا خفاك انني لم اكن هنا السنة الماضية ولم ار هذه « الاكادمي . وبعدان ازورها اذهب الى حديقة هيد بارك(١)

« ارى اللورد ر ـ ينظر اليَّ دائماً عزيزي . ما معنى هذه النظرات . ٠ ٥ ٠ لا ادري عزيزتي

اما الارل فكان منهمكاً بارباب السياسة يقدم لهم فروض الاحترام

---

(١) وهي بالحري منتزه او منتزهات واسعة جداً فيها الاشجار والبحيرات وجنائن الزهور ولم تزل حتى اليوم محل نتزه لعيال لندن وغيرها في العربات وعلى الخيول ومشاة وهي ابدع حدائق المنتزهات في الدنيا تفوق حرش بولون(والبواده بولون) في باريز موقعها في القسم الغربي من لندن وهي اشهر من نار على علم

فصل ثالث

ثلاثة تنفي عن القلب الحزن الماء والخضرة والشكل الحسن
(لبعضهم)

عند الساعة الخامسة من اليوم الثاني كنت ترى الالوف المؤلفة من السادة والسيدات منهم في عرباتهم ومنهم على الخيول المطهمة السريعة الجري . ومنهم يسيرون على اقدامهم فرادى وازواجاً بين سياسيين يتحادثان وحبيبين يتغازلان وشيخين يتمتمان . وكان من العربات الصغيرة التي تجرها الخادمات وفيها الاولاد الصغار (لا يتخطى كبر العربة اليرد طولاً والثلث اوالنصف عرضاً) عدد ليس بقليل تحمل صغار العيال المتوسطة . اما القسم الغربي منها فكان مملوًا من البشر تتفرق بينهم باعة الفاكهة و بعض باعة المرطبات (هؤلاء يتعاطون مع الاقسام الواطئة فقط) وكل القوم كانوا يدورون في محور عالم الغناء على اختلاف المراتب والدرجات . منهم من كانت تجر عرباتهم الخيل الكريمة وتكتنفهم الحشم والخدم بالثياب الفاخرة دلالة على الترفه والعز . وفي نفس المكان والزمان كنت تلقى من بلاء الجوع واخلى جوفه ومن حده العوز واطار عقله . ومن كان يئن داخلاً اثار البلوى ويشكو شكوى الثكلى و بعض الشعب من الرتبة الواطئة كانوا يتمددون على ارض مغشاة ببسط خضراء يروحون الهم و يصرفون الوقت في اكل الفواكه وقص الفوائد . والاعجاب بغناء هذا وجمال تلك

على مقربة من المكان المدعو «الماربل ارتش» القنطرة الرخامية ـ تجتمع البشر الوفاً ومئات الالوف لغاية التفرج احدهم

على الاخر . الى هذا المكان تجتمع فتيات البلاد الجميلات وظرفاؤها من لوردية واغنياء وسفراء وغيرهم للتمتع بمشاهدة الجمال والجميلات ولهذا المكان المدعو «رطن روا» تواريخ وحوادث لا تعد وعلى مقربة منه يخطب خطباء الجمهوريين والمنشقين والعصاة والمبشرين والمبشرات وغيرهم وبالاجمال فهو قسم كل قدم منه مقرونة بالف حادثة انكليزية

وكان الوقت الذي اوجه الانظار اليه يوم ربيع زمناً تكسي فيه الاشجار بحلاها البديعة والزهور باكاليلها الشائقة والحق يقال ان هذه النزهة كانت فردوس لاتطاوله الفراديس مملوءة من الاشجار الخضراء والزهور المختلفة وبالحقيقة ان الربيع في بريطانيا فصل تشتاق اليه النفس ويتوق الفؤاد للتنقل في حدائقها الغناء . نعم ان كل اشجار البلاد غرست بيد بشرية بقصد التزيين ولكن هذا لايقلل من جمالها . ويرى الغريب البلاد في هذا الفصل مملوءة من الاحراش الواسعة الخضراء والسهول مرصعة بانواع المزروعات تكتنفها حصون من الزهور الواناً واشكالاً فلابدع اذا راى الناظر البريطان ايام الربيع مملوئين من النشاط والهمة يبردون ظمأ ميلهم الى هذا الفصل متمتعين بخضرة حدائقه وبهاء متنزهاته ويكثر في هذا الفصل ذهاب القوم الى المحلات العمومية

والوقت الذي ذكرته في بداءة هذا الفصل كان في منتصف فصل الربيع وكانت الجماهير في الحديقة المذكورة عند اصيل يوم سطعت شمسه فغيرت من برودة طبعهم . وعند الغروب وامام « المار بل ارتش » كنت ترى فتىً بديع الشكل بلبسه العسكري ممتطياً جواداً كريماً مزلف الاطراف يفتخر بصاحبه غاية الافتخار . اما الشاب المذكور فكان حلو الشمائل انيس الطلعة ولكن كانت تلوح على محياه وقتئذٍ دلائل الاهتمام . وكان محولاً ركابه نحو قسم من اطراف الحديقة يدعى « هيد بارك ترس » فلما وصل اليه برقت اسرته اذ ابصر عن بعيد في وسط

المتنزه عربة كان يرقب وصولها الى المكان المذكور فتوجه الى الداخل من بوابة تجاه البقعة التي عليها اليوم تمثال الامير البرت زوج الملكة فكتوريا . اما قصده بالدخول من تلك البوابة فكان لعلمه ان العربة التي كان ينتظرها ستمر من تلك الناحية فوقف هناك برهة يتامل الجهة التي يسير فيها فلم يطل تردده حتى حوّل نظرهُ فراى العربة المقصودة تدنو من الجهة التي كان فيها فتوجه ولما قاربها حيّ من فيها وحيوه . ولكن باي يد ؟ يد ترتعش وقلب يخفق وفواد مسحور

« ما بالك ياعزيزتي ادلين ؟ اراك صفراء قليلاً . الا يفيدك التنزه اليوم ؟ هل تريدين الرجوع الى البيت ؟ »

« كلاً يا سيدتي بالعكس فانني مسرورة جدًّا . هل يلوح عليّ الاصفرار ؟ لا اعلم لذلك سبباً . انظري والدتي هذه المارشيوناس وهذه عربة اللورد . . . آ . هذه حبيبتي السي انظري هي ايضاً راتني هل احرك الشمسية اشارة لها ؟ »

« حركيها ولكن بكل لطف حتى لا يشعر احد بالحركة »

(اين بعض الذين يقلبون الارض بصراخهم عند رؤية صديق ياحبذا لو ترك القوم هذا الامر لانك اذا سررت برؤية صديق فابق سرورك لنفسك والا ظن بك البعض جهلاً والبعض الاخر انك تحب اظهار نفسك لصديقك وانت راكب عربة او فرساً فتعلّم)

اما ادلين فبهتت برهة لاستماع هذه النصيحة ولكنها ضربت صفحاً عنها لانها وجهت من والدتها وشان الوالدات الحرص على اداب بناتهن خصوصاً . غير انها حركت شمسيتها قليلاً وعرفت اشارتها من صديقتها وقوبلت بمثلها . وكثر ازدحام العربات خصوصاً عند البوابة التي تؤدي الى القسم الثاني من النزهة امام قصر البرت وذلك لان الطرق تلتقي هناك وتتحد بالعمومية حيث تُقبل عربات الامنيبوس وعربات الاجرة

وغيرها كانها شعب انهر تصب في بحر عظيم من العربات وبالجهد يتمكن الماشي من المرور هناك

ولنرجع الان الى صديقنا فيكتور الذي سلم على عربة الكونتس اوف — وابنتها — لانه هو ذلك الفارس المسلّم — فقال في نفسه بعد ان حياهما ومرّ « لم يبق لي ههنا مدة طويلة فواجباتي تدعوني الى الصين والصين ليست جارتنا فسيمرّ بي زمن طويل قبل ان اصل الى هناك فيجب عليّ قبل الذهاب ان اسير الى وداع ادلين لان الواجبات توجب زيارة بيت الارل بعد حفلة الرقص باسبوع وفي هذه الزيارة اتمتع برؤية ادلين واودعها واسالها قبول المكاتيب زمن البعاد ·· آه لندن : لندن يا ام العالم وآية المجد وتمدن الكون ··· ولكن اين فقراك واين المساكين الذين تدوسهم ارجل الفقر والمسكنة وتدوس بجانب بيوتهم خيول الاغنياء المترفين ارباب الملايين · قدّرني الله على مساعدة اولئك البائسين وعلى نشل بعضهم من وهدة الفقر المدقع · آه ما اقسى قلوب البشر كيف يرى هذا ذاك يموت جوعاً وهو يرفل باثواب العز ويتقلب على فراش النعمة غير شاعر بمتاعب احنت ظهر غيره · كم من فتىً فيكِ يالندن يذوق مر عذاب الجوع وهو يكتم سره ويحفظ امره وكم من فتاة فيك تصرف الايام الطوال دون ان يدخل جوفها ما يكفي من الطعام وكم من بائس شاكٍ باكٍ يضيع في اسواقك لايسمع له رجاء ولاتعرف له شكوى وفيك الوف يصرفون الملايين من الذهب الوضاح على ملذاتهم وهم غارقون بين خمر وراح وزمزمة اقداح · هذه احوال الزمان وهكذا قسم للبشر ان يعيشوا »

———

فصلٌ رابع

لعينيكِ ما يلقى الفؤاد وما لقي وللحب ما لم يبقَ مني وما بقي
واحلى الهوى ماشك في الوصل ربهُ وفي الهجر فهو الدهر يرجو ويتقي
(المتنبي)

وبقيتُ بينَ عزيمتين كلاهما امضى وانفذ من شباه سنانِ
همٌّ يشوقني الى طلب العلى وهوى يشوقني الى الاوطانِ
(لاحدهم)

فاتني افادة القاري انه كان قد عقد اتفاق بين ادلين وفيكتور على الاجتماع في عهد قريب بعد المرقص في احد مراسح التشخيص (تياترو) وكان (الدرور يلاين) في الوقت المذكور محلا للتشخيص تتسابق اليه الغيد يفرغن سحرهنّ في قلوب الناظر اليهنّ ـ اما المشخصون في تلك الليلة فكانوا : ارفن وروزبي وجوقهما وكانت الرواية المشخصة تسمى «هم» وكانت المناظر البديعة في هذا المحل الممثلة مواقع التشخيص تاخذ بمجامع الناظر الى الاماكن المشار اليها فيعجب من الاتقان ويقول «ما الفرق بين الرسم والحقيقة الا ان الواحد حقيقي والاخر دليله والواحد ثابت والاخر متغير»

« ايتها العزيزة ادلين سيدتي والدتك تحادث مع الجنرال الان فاسمحي لي ياحياتي ان اظهر لك بعض عواطف تزداد حياة عند ابتسام ثغرك فاود ياشقيقة القمر ان تثيقني ان الطافك هي النور والنار لي فاشفقي على مضنىً لا يحب سواكِ»

«فيكتور : ما بالك عزيزي تحادثني على هذه الصورة؟ ومـا

عهدت بك مثل هذا من قبل . عزيزي الا تعلم ان سرورك سروري وفرحك فرحي فدعنا الان من هذه الامور وثق اني محبة ودودة لا ارغب الدهر ان احول عن هواك : فيكتور عزيزي الا ترى اولائك في اللوج المقابل اعني الثلاث سيدات والسيدين فان احداهن تنظر الينا ولا اشك في كونها من المختبرات ولهذا طلبت منك ان تغير مجرى الحديث (مع العذر) فربما عرفت من حركات وجهينا مآل حديثنا . انظر فيكتور تلك السيدة التي تدخل اللوج الثاني وحدها اظنها ... »

« نعم الكونتاس اوف ـ صديقتي : آه ادلين عزيزتي اظنك تسمحين لي ان اذهب الى لوجها عند نهاية الفصل الثاني لبعض الحديث »

« بدون شك عزيزي فهي صديقتي ايضاً وارجوك ان تذكرني لها متى ذهبت »

« آه : ابتدا القوم يصرخون واسمعي تصفيقهم يعلو فيخال لي من هذا ان وقت ابتداء اللعب قد قرُبَ »

« انا لا ارغب في التصفيق الزائد لانه يقلق الراس . ها ها : بداء رجال الموسيقي بالقدوم واظن ان محلهم هنا اكبر محل عندنا إلا تظن هكذا ؟ »

« نعم عزيزتي وهذا امر من الامور التي تحبيني بهذا المكان خصوصاً واللوجات فيه كبيرة يسع بعضها اكثر من ثمانية اشخاص براحة واحبه ايضاً لانه كبير لا يحصر فيه النفس . والمدير العام ... يحب دائماً ان يوفر معدات راحة الزائرين بمثل هذه الكراسي « فوتايل » اظن ان هذا المحل من اكبر المحلات لانه قصد بعمله تشخيص « الاوبرا » وهو يليق بمثل المشخصين . . . و . . . و . . . ولكن اذا شخص فيه مشخصون بصوتٍ منخفض يخرج نصف الحضور كما دخلوا »

« انظر كيف ازدحمت اكثر اللوجات خذ هذه النظارة وانظر الى اللوج الملكي اليس فيه سمو ولي العهد » ؟

« نعم ، نعم . هذا هو بعينه . هل تعلمين ان بيني وبينه صداقة خصوصية ثابتة وقد اخبرت انه يمدحني ولست ادري لذلك سبباً . اظن انه لا ينتظر ذهابي الى لوجه للتحية . هل سمعت عزيزتي انه سيقترن بابنة ملك الدانمرك حبذا لو تم هذا فهي اميرة ذات جمال بارع لينة العريكة انيسة المحضر عارفة بالامارة ولو علمتِ عنها ما اعلمه لفضلتها على كل اميرة سواها فهي كبقية شقيقاتها كن قبل تملك والدهن فقيرات يلبسن اثواباً بسيطة ومن ذلك الوقت عُرِفن بحب الفقراء وعمل الاحسان ومثلها شقيقتها قرينة قيصر روسيا — والاخرى قرينة الديوك اوف — ولو اتيت على بعض تاريخهن لاعجبك جداً . هل سمعت شيئاً عن الزواج ؟ »

« سمعت به عزيزي منذ بضعة ايام حيث كان عندنا المركيز اوف . . . وكان يحادث والدي بهذا الشان »

« ه . ه . ارتفع الستار . اظن ان تلك الابنة ذات الثياب الحريرية الزرقاء هي المشخصة — وذاك الشاب بجانبها — المشهور »

« نعم »

واخذ الممثلون يبهرون الحضور بتمثيلهم ودقة حركاتهم وجودة لبسهم وحسن القاء ادوارهم اما الذين كانوا في الاقسام الواطئة — فصفقوا لهم التصفيق الحاد . اما الكبار الجلوس في اللوجات فكانوا لا يبدون حركة ولا استحساناً . وهي عادة انكليزية الفها الاعيان في بريطانيا فمهما حدث امامهم وبقدر ازدياد تاثيرهم الداخلي ان في الحزن او الفرح او النفور او الغضب او الاستحسان او الكره الخ تزداد سكينتهم وهدوءهم ظاهراً خصوصاً عند استقباح امر صنع امامهم فكلما ارتقت درجة البريطاني

كلما زاد سكونه — من حيث الملاحظات — وتساهله في الامور و يندر مخالفة هذه القاعدة بينهم

(لا اعلم ان كنا نمدح هذا نحن او لا اما انا فاصوب هذه العادة· وعندي لذلك اسباب)

وما زال المشخصون تارةً يهيجون الافراح والاخرى يزيدون الاتراح وطوراً يملكون العواطف للمشاركة بمساعدة ذاك في ضيمه وتلك في مشقاتها واخرى يهيجون حاسات الجمهور ضد ذاك الجاني ومع ذاك المظلوم حتى ارخي ستار الفصل الاول واختفت عن ابصار الناظرين المناظر والمشخصون غير ان الجمهور قلب المكان وصمّ والاذان بالصراخ لاعادة ظهور كبار الممثلين من اولئك النبغة لاظهار حاساتهم من جهة التشخيص · فتقدم الخدم ورفعوا الستار قليلاً حتى مرّ····و····و··· ·فصفق الجمهور لهذا استحساناً وصفروا لذاك استقباحاً كانهم كانوا يفعلون ما شخصوه حقيقة (وهذه الغاية الحميدة من تشخيص الروايات ان ينفر العموم من المظالم والقبائح والتعديات وان يحسّن الحسن في اعينهم ايضاً)

ولما انحنى المشخص ···· الاخير مودعاً تفرق القوم من اماكنهم هذا ليزور صديقه في اللوج نمره — وذلك ليرى المارشيونس عمته في اللوج نمره — وذاك ليرطب فواده بكاس من الشمبانيا او البرندي . اما الذين كانوا في المحلات الغير المحجورة فدار عليهم الخدم بالمرطبات اذ لم يمكنهم ان يتركوا محلاتهم خيفة ان يسبقوا اليها ويحرموها

وهكذا كنت تري الشبان يخاطبون بائعات الخمر والمرطبات في محلاتهن ويسامرونهنّ مغازلين لقضاء الوقت ·ومن الشبان ارباب الثروة من كان لهم علاقة قريبة مع المشخصات والمشخصين فكنت تراهم

في الغرفة الخضراء (١) واكثر هذه القاعات غنية في فرشها بديعة في اتقانها يغازل الشبان فيها المشخصات ويتبادلون معهنّ الاحاديث الغرامية وغيرها احاديث لماشان في الهيئة الاجتماعية واي شانٍ ولنرجع الآن الى صديقنا فيكتور وصديقته ادلين

« عزيزي فيكتور هلا ترغب مشاهدة احد ؟ »

« لا عشتُ يا عزيزتي يوم ارغب معاشرة سواكِ عن معاشرتك »

« ولكن ربما اوجبت الظروف مشاهدتك احد الحضور فلا احب ان احول دون ذلك »

« شكرًا لكِ ايتها الحبيبة فلا اظنني اذهب الا اذا كان الى مقابلة حضرة الكونتاس اوف.... وهذا لا يكون الا بعد نهاية الفصل الثاني »

« وهل عزمت عزماً باتاً على مفارقتنا والسفر الى الصين بعد ايام قلائل ... فتنقطع عني اخبارك ولا اعود اسمع عنك الا القليل؟ »

« نعم عزمت على السفر. ولكن هلا تمكنتُ من مكاتبتك ابان الفراق؟ .. »

« لا : لا : لا يمكنني ذلك حرصاً على قوانين الاداب »

« ولماذا لا تسمحين لي ايتها العزيزة ادلين ان افاتح حضرة الارل (٢) بمحبتنا فاساله ان يصادق على خطبتنا وانت لي قلباً وقالباً ؟ »

« عزيزي سبقتُ فانباتك ان والدي يرغب ان ازف الى الفيكونت ... وربما رفض طلبك فماذا يصيبني عند ذلك . اذًا دع التقادير تجري في اعنتها فربما حال سلوكي دون طلب الفيكونت يدي من

---

(١) وهي غرفة خصوصية للمشخصين والمشخصات بجانب مرسح التشخيص يغيرون فيها اثوابهم

(٢) المقصود بوالد ادلين. وهذه العادة جارية في بريطانيا العظمى واكثر اوربا ان يقال الكونت فلان واللورد فلان والمستر فلان بمعنى والدكِ او والدتكِ وليس في كل الظروف

والدي ومتى خاب امل الارل منه جاء دورك يا مالك فوادي » (١)

« صدقت يا ادلين ولذا تريني اسهر الليالي في طلب المعالي وانتظر يوم يقدرني فيه الله على ان اقول « ان هذه اليد ــ وتناول يمناها ــ يدمن لي طناً امام الناس قاطبة كما ان قلبك لي سرّاً ولكن... » نعم سيدتي الكونتس ...ما بقي من الوقت سوى ثلاث دقائق فهل من خدمة اقوم بها لحضرة سيدتي الكونتس....؟

« لا واشكر فضلك ان اللورد استغرق الوقت وهو يخبرني عن كيفية ابتداء الاوبرا في باريس ويقول ان قد هدم نحو ثلاثمائة بيت شيدت مكانها الاوبرا المذكورة وقد اسهب في شرح زيارته باريس الاخيرة وهو يفضلها على لندن فهل هو نفس رايك من حيث هذا التفضيل؟»

« باسف اقول انني من رايه فباريس ام السرور وملكة الترف واي زائر لا تمتلك فواده بمحاسنها»

« انا احبها ايضاً محبة قلبية ولكن يجب ان نحب بلادنا اكثر لانها وطننا ومركز شرفنا »

« لا اشك فيما تقولين سيدتي ولكن حب الشيء لا ينفي وجوب تفضيل اخر عليه مع بقاء الاول معززاً لدينا فانا من رايك في وجه ومن راى حضرة اللورد الشريف في وجه اخر »

فقال اللورد بصوت منخفض عميق جداً « لا اشك يا حضرة الماجور

---

(١) يرى المطالع مما سبق ان هذه الامور تحدث في اعظم البلدان تمدناً وفي بيوت اعرق الناس نسباً ولا عتب بعد هذا على من يتبعها من اهالي بلادنا انها حاسة طبيعية موجودة في كل انسان ولا تقاوم بسهولة اعني ان الوالد والوالدة يرغبان ان يزفا ابنتهما الى فلان او اقتران ابنهما بفلانة وكذلك الاخ او الاخت وغيرهما من الاقارب الخ غيران طرق الامتناع والمقاومة تختلف باختلاف التمدن فمنهم من يتهدد بالقتل ومنهم من ينذر المخالف بحرمانه الارث وقس عليه

ان هذا سبب نجاحك بين الجمهور فانك لا تبخل على احدٍ بحقه «

« لم اقصد هذا سيدي اللورد انما اردت ان اصرح بافكاري »

اما ادلين فكانت تسرح انظارها في نواحي التياترو ولا اظنها رات شيئًا ابدًا لانها كانت باجمعها مصغية لما دار بين والدتها واللورد ـ ... وفيكتور من الحديث وما انتهت المحادثة حتى حول فيكتور كرسيه اليها وهمّ ان يصل الحديث السابق ثم توقف بقرع الجرس للموسيقى وضربت الالحان الشجية فكان ذلك واسطةً كبرى لمساعدته على استئناف حديثه بكل جسارة دون ان يختشي سماع مجاوريه لحديثه. واهاجت الالحان في فواده حاسات المحبة فاخذ يظهرها بلسان طلق يستر حديثهما تلك الانغام ثم عادا الى ما قطع من حديثهما

« قلتُ عزيزتي ان لي ثقة انه مهما جدّ علينا ومهما تاتى لنا سياتي يوم يكون فيه احدنا للاخر حقيقة . ولي ثقة اخرى اننا اذا لم نتحد معًا لا يعلق احدنا اخر سوانا . وتاكدي ادلين يا غاية مناي انني ما عبرت بحرًا ولا سرت برًّا ولا امتشقت حسامًا او اطلقت رصاصًا الا وكنتِ انتِ الملكة التى تقود خطواتي والملاك الذي يصوب حركاتي وتريني اذا اصدرت الاوامر لجنودي بالهجوم كنت اظنك في اسر العدو فاقتحم الاخطار واهجم بقلب لا يخشى الموت .... » (لا تخشى ان تقول انك تهجم هجمات الاسود يابطل القرن التاسع عشر) « وفواد لا يهاب المنايا . فاملي الوحيد ياحياتي ان اكون يومًا مالكِ وتكونين لي والا عشت الدهر لواجباتي المدنية ناكرًا شخصي وشخصياتي وعلى الله الاتكال »

رُفع الستار والعيون رامقة والقلوب خافقة وتقدم المشخصون (منهم من كان لا يصدق ان يرفع الستار ليرى ـ اولترى ـ حبيبًا اوحبيبةً لها في اللوجات او المحلات الاولى بحسب درجته او درجتها) وجرى التشخيص على العادة المالوفة فكنت ترى تلك تسترحم وذاك يتهدد واخر

ينصح واخرى تظهر تمسكها بالعفة وذاك يتوغل بالمعاصي واخر بالشجاعة واخرى بالتهتك حتى انتهى الفصل الاول فقوبل المشخصون كالاول واذ ذاك استاذن فيكتور من الكونتاس وادلين وذهب للوج ـ ليرى صديقته الكونتس اوف ـــ ٠٠٠ وكانت صديقة مخلصة لهُ كل الاخلاص يطلعها وتطلعه على كل الاسرار وكانت تعتبر شجاعته مزيد الاعتبار فسالته اذا كان يسر بالتشخيص ودار بينهما بعض الملاحظات انتقدا فيها حركات خصوصية اظهرها المشخص الفلاني واغلاطاً لفظية سقطت بها تلك ولكن اكثر ملاحظاتهما كانت عن جودة التشخيص لان المشخصين كانوا يلفظون اللغة كالدر ويشكلونها بطلاقة لسان لا توصف وكان لبسهم وحركاتهم بغاية الاتقان يديرها ويلاحظ عليها ساعات التمرين امهر المعلمين وما طالت ملاحظتهما بهذا الباب حتى انتقلا الى مواضيع اخرى واذ ذاك رفعت الكونتس نظارتها الى عينيها ونظرت الى اللوجات فرات ان الفيكونت ــ: يدخل لوج الكونتس اوف ـ (والدة ادلين) فقالت لفكتور

« هذا الفيكونت ـ يدخل اللوج » فاصفرَّ فيكتور فقالت لهُ

« لا تخش يا عزيزي فادلين لا تحب سواك ومتى تقدمت اكثر يسهل عليك اكتساب رضى والدها فانت جندي تدافع عن البلاد وكلنا ابناء عساكر نفتخر بهذا الانتساب وان من نال المراتب العالية بكدٍ اكيد وجدٍ وطيد لا يخيب امله حيثما لا يكل لهُ عزم فانت ـ ولكن لا يجب ان اتكلم بزيادة »

« انا اكمل عبارتك سيدتي. انا فتىً غريق الطافكِ ورقيق احسانك فكلما تقابلنا انعشتِ فوادي السقيم بطيب كلامك ونلت حظاً وافراً من نصائحك الثمينة »

« لا تطل الجلوس هنا يافيكتور فانني احب ان تجتمع بالفيكونت

ولو بضعة دقائق واياك ان تحرم نفسك حقاً من الحقوق المدنية فكلنا تحت راية التمدن و بريطانيا واحد »

فتحول فيكتور الى لوج ادلين ولما دخله قالت السيدة ادلين — « اظنكما تعرفان بعضكما من قبل ؟

فاجاب فيكتور : بالوقار اللازم « لي الشرف بمعرفته »

اجاب الفيكونت بتشامخ زائد — « آه نعم الماجور فيكتور »

اما صديقنا فيكتور الذي قال فيه الكولونل فلورنس — « فيكتور صاحب عزم حديدي لا يكل مقرون بحب طبيعي للحروب وقد عمل اعمالاً امام حصون سيفستبول لم يعملها غيره من قبله من القواد وليس شهرته بالشجاعة فقط بل بالدقة العسكرية وملاحظة حركات الاعداء انتهى » والذي كانت تشخص اليه اعين البريطان كبطل من ابطالهم فكان عند استماع ملاحظة الفيكونت ... المقرونة بالاحتقار كالشخص الرخامي لا يجسر ان يفتح فاه خيفة التطرف فطال سكوته برهةً ونظر الى ادلين فلاحظ اصفرار وجهها فلم يبدِ حراكاً . هذه هي صفة شرفاء عساكر البريطان عندما يتعدى احدهم على الاخر بمس حقوقه الشخصية يقابلون الجسور بسكوتٍ فعله عند العاقل اشد تاثيراً من فعل السيوف واستولى السكوت على اصحابنا برهةً حتى افتتح الفيكونت الكلام فقال

« ها : ها : ماجور اظنك تذهب الى الصين عن قريب . فلماذا تبارح البلاد ؟ »

« ساذهب الى الصين فاخدم المدينة حقيقة لانني اذا بقيت هنا خدمتها بالاسم فقط وهذا سبب ذهابي : وبعد ان قال فكتور هذا لعبت الموسيقي فلاحظت ادلين السكوت السابق فوجهت انظارهما الى موضوع اخر فكانا يتكلمان بكل ادب ولطف ولكن لطف احدهما كان ممتزجاً بالحسد والبرودة . اما فيكتور فكان سموحاً لطيفاً مسالماً كما

كان شجاعاً قهاراً وبطلاً مغواراً . وما طال الحديث حتى خرج الفيكونت منبهاً بقرع الجرس الدال على نزول الستار . اما فيكتور وادلين فلم يلفظا كلمة واحدة بعد ذهابه عن موضوع تنافرهما بل تحادثا كانه لم يأتِ الى لوجهما احد . اما الكونتس فكانت منهمكة بمن يزورها من اصدقائها واصدقاء الاول زوجها . ولما ارتفع الستار حولت وجهها الى ادلين وسالتها عن الفيكونت فانبأتها بذهابه

« وهل ذهب بدون ان يودعني ؟ »

« كلاً والدتي قد رايته منهمكاً بوداعك وسمعتك تقولين له عند ذهابه انك تسرين اذا اجتمعت به في مرقص اللورد … »

« ها : ه : هه . نعم . نعم ولكن نسيت هذا لان اللورد — … كان يملأ راسي باخبار تقلبات السياسة وقد اعطاني تقريراً تاماً عن اعمال الوزير الاول اللورد بالمرستون وهذه كلها امور تسوءني كثيراً لانني كما تعهدين لا احب السياسة كثيراً »

ثم انقلب الحديث الى التشخيص حتى انتهت الرواية المشخصة وهرع القوم الى الايوان كالنحل من القفران : الى « كاب اور كرنج سار » « كاب اور كرنج سار » (١) . هذا كان نداء الاولاد على الابواب . وكنت ترى الخدم يركضون من هنا الى هناك لجلب العربات رغبةً في الحصول على « البخشيش » . ومن القوم من كانوا يركبون العربات المزخرفة فيها السيدات بالملابس المتقنة . ومنهم من كان يركب عربات اخرى على اختلاف اشكالها . ومنهم من كان يخرج ماشياً يرقب فرصةً تمكنه من المرور بين العربات ناظراً الى النساء اللواتي كنّ قد فتنه

(١) عربة : اجرة : عربة خصوصية سيدي . في كل انحاء اوربا تخص ابواب المراسح بخدمة بالثياب الرسمية العربات اما في بريطانيا فالخدمة ينادون القوم بالعبارة المترجمة وزائر بريطانيا يالف هذه العبارة اذا كان ممن يزور المراسح

وبالحقيقة ان منظر ابواب المراسح خصوصاً الابواب المخصصة بالدرجات العليا في بريطانيا وغيرها مما يسر الفواد اعظم مسرة لان السيدات والرجال الذين يخرجون من تلك الاقسام وهم باثواب شبيهة باثواب المراقص الثمينة التي تساعد على اظهار قدود الغيد باحسن هيئة واكمل صورة . ولم يمضِ ربع ساعة من الزمان حتى خلا المكان من الناس واقفلت الابواب



الكتاب الثاني

فصلٌ اولٌ

فتى وقف الايام بالعتب والرضى على بذل مالٍ او على حد منصلِ
وما ان لهُ من نظرةٍ ليس تحتها غمامة غيثٍ او صبابة قسطلِ
(محمد بن بشير الازدي)

مقالة في جريدة٠٠٠٠٠ بتاريخ ٠٠٠ ـ ١٨ ٠

رجع فيكتور الى بلاده وبعد التمرينات العسكرية التي طالت مدتها الى سنة ـ ٨ ١ في «تشاتم» سافر الى الصين سنة ـ ٨ ١ ولكنه وصل متاخرًا عن المشاركة في الاستيلاء على حصون «التاكو» غير انه ساعد بالتقدم على باكين وشاهد حرق قصر المصيف فيها وبعد ان صرف سنة كاملة في «تياترسين» حيث كان يتجول في بعض المقاطعات المجاورة التي لم يسبقه اليها احد . وكان برفقته احد اعزائه ٠٠٠ وهذا ما ورد الينا من مراسلنا الخصوصي في الصين ٠

في ربيع سنة ـ ١٨

دعي القائد المشهور فيكتور الى «شان هاي» للمساعدة على ردع هجوم «التايبين» وكان قد اختبر كثيرًا هذه المحلات وقد ظهر للقواد ان اختباره لا يقدر بثمن . اما قائد الجيش «الدائم النصر[1]» فقتل سنة ـ ١٨ وترك الجيش بدون قائد ولذا عين فيكتور مكانه وهو في رتبة ماجور

(١) لما كان الانكليز يحاربون في الصين في التاريخ المذكور سمي العالم جيشًا صغيرًا الجيش (الدائم النصر) لانه اخضع الصين كلها تقريبًا بقوة عجيبة لا يذكر التاريخ مثلها

وما زال يحارب الصينيين مساعداً عليهم محمداً لغلى حروبهم بعد ان قاسى الاهوال الشديدة والمصائب العديدة وقد جرح في جنبه. وهو يعرف الان «بالقائد المخنبر» ومفك عقال المدن وقد ساعد في كل الامور التي عادت بالخير على الصينيين غير انه رفض قبول شيء من الدراهم ولكنه قبل بعض الوسامات والرتب وعاد عنها بدون بارة الفرد كما جاءها لانه كان ينفق ما يحصله من المال على الجنود وقد ارسل وساماته الذهبية الى بلاده لتباع وينفق ثمنها في سبيل الاحسان

فصلٌ ثانٍ

فانٍ تسأليني كيف انت فانني صبورٌ على ريب الزمان صليبُ
يعزّ عليّ ان ترى بي كآبة فيشمت عادٍ او يسرّ حبيبُ

(مجموعة المعاني)

عن الصين مدينة ... في تشرين الثاني ــ ١٨

«عز يزتي الكونتس

«فرقٌ عظيم بين بلادنا التي رقت حواشي اهلها وراقت لهم كؤوس الهنا واصابوا من التمدن حظاً وافراً و بين هذه البلاد التي كثرت فيها المتاعب وتعددت الحوادث المقلقة . قد اشغلتني الشواغل منذ رجوعي ووُضعت في مركز لا اري نفسي استحقه ــ حاشاك ــ وقد قدت الجيوش في عدة معارك وكانت الخسائر والحمد لله قليلة جداً . استوليت مؤخراً على «فوشان» وتمكنت من تخليص «شانزوا» ولكن حدث مؤخراً ما اقلقني جداً وهو اننا بعد مهاجمة «شون شاوا» «مدينة الباغوداسيين» وهي من اقوى حصون «التاييين» رجعنا عنها بخسارة قليلة ولكن عاودنا الكرّة عليها في اليوم الثاني صباحاً و بعون الله حصلنا على مرغوبنا

من افتتاحها وهنا يبتدي كدري · كنت شديد الحرص الا يقتل احد سكانها ولكن القومندان الملكي ـ ··ابى الا قتل كثيرين بقلب اقسى من الصخر فهاج غضبي عليه وافرغ جعبة صبري فاخذت سيفاً وفرداً قاصداً قتل هذا القومندان القاسي ولكن لحظه وحظي لم اصادفه لانني لو لقيته لقتلته شر قتلة وهذا امر تاباه نفسي · في نيتي هذه العشية ان اذهب الى « كونسان » بمن معي وسابقى هناك مدة لا اعلم مقدارها »

(بقي من اواخر تشرين الثاني الى اواخر شباط وقيل انه كان يرفض في تلك المدة الكنوز والعطايا التي كانت تتدفق عليه من الحكومة · اما غيظه الزائد فكان من القومندان السابق الذكر)

« هذا ما عندي من الاخبار عزيزتي · اما افكاري ففي الوطن تحن دائماً الى ربوعه والى : آه · ـ الى ادلين ـ عسى ان يمن الله علي بلقاها عن قريب ·آه من الحب وما هو الا آفة المحبين وبلاهم ولولا اعتباري الحب عطية الهية ترفع المرء عن الامور الدنية وتقوي عزمه وتنشطه لكنت اقول انها عطية فاسدة : ولكن حاشاي ان اكفر بخالق الكون لانه عالم باحوال كل بشر وربما اوجد في فوادي الحب لاسعى وراء المجد ولكنني كدت ان احتم ان اقتراني بادلين من المستحيلات ولا اعلم لذلك سبباً الا نتائج الفطرة ولذا اشتغل لنفسي والهي الفواد عن الحب ولكنه لا يلتهي فما ساحات الوغى عندي الا مهيجات تهيجني وتحسن ادلين في عيني وتحببها الي وتكسو فوادي كساء جديداً فهي الملاك الذي يحرسني ليلاً ويدفع عني كل مكروه يتهددني نهاراً · اذكريني لها يا صديقتي العزيزة واعلميها انني ولو بعدت عنها الف الف ميل ـ ولو كانت تصرفاتي العمومية تبعد عن عقول البشر امكان وقوعي بمثل هذا الحب ـ انني اسير حبها كيف كانت احوالي وكيف دارت من حولي الجيوش فحبها يسهل علي الهجوم دون خوف الموت ويفتح لي في صدر الكون

منافذ للاقدام لا يسدها مقاوم وانني احيا موءملاً بقاءها وارغب اللقاء لتكون نتيجة حياتي سعيدة . والاما الحياة في عيني الاتعاب عظيمة .
لا اروم اطالة الشرح في هذا الصدد خشية اشتغال بالك ولكن صدقيني انه كيف كانت احوالي فواجباتي الدينية في طليعة مهماتي لايصرفني عنها حب او امر آخر . اذكريني للاصدقاء وتاكدي ياعزيزتي الكونتس انني الصديق المخلص للابد»

« فيكتور »

ويسمح لي القاري ان اذكرهنا الجواب على هذا التحرير مع انه وصل لفيكتور بعد الحوادث التي سترد في الفصل القادم

«عن لندن كانون ــ سنة ــ ١٨ ستوك فيله القسم الغربي

«عزيزي فيكتور

«الطقس عندنا بارد جداً فاكتب لك اوانا على مقربة من النار . مر علينا شهران قاسيان جداً وكان الضباب كثيفاً . اصحابك يرقبون اخبارك ويطالعون الجرائد بعبون وقادة خصوصاً ادلين

« وصلني تحريرك اللطيف المملوء من الاخبار المفيدة وتلوته عدة مرات ولا تغضب اذا قلت لك انني اطلعت ادلين عليه فكانت تقراه والدموع تنهمل من مقلتيها . لاتقلق عزيزي من هذا القبيل ولا لزوم ان اقول لك ان لا تجعل هذا مما يقلل عزمك في الاعمال المجيدة فهي تحبك حباً لايماثله حب ومن ذا لايحبك وانت ساعٍ وراء المجد سعي ابطال الزمان . قلما نجتمع في مكان بدون ذكرك فثق ان اسمك بيننا كالمسك فلا ترهبن امراً . لالزوم ان اخبرك ان الجرائد تذكرك بكل فضيلة فانا اعلم انك لاتهتم بمثل هذه الامور . اجتمع احياناً بشقيقتك او ... ومن وقتٍ الى آخر تخبرني بعض ما تذكره في تحاريرك لها . كلفتني ادلين ان اهديك مزيد تحياتها ومحبتها وهي تذكرك في صلواتها

دائماً كما يفعل كل اصحابك . اقبل في الختام محبتي الخالصة وثق انني الى الابد صديقتك المحبة المخلصة « «سيسيل»

فصلٌ ثالث

على العزّ مت لا ميتة مستكينة تزيل عن الدنيا بتمّ المراغم
وخاطر على الحلى خطار ابن حرّة لان زاحم الامر العظيم فزاحم

(الرضي)

عن الصين ــ آذار ــ ١٨

شقيقتي او ..

قلتُ لكِ في تحريرٍ سالف انني عدلتُ عن الذهاب الى الحرب لاسبابٍ ذكرتها في وقتها ولكن بعد الالحاح الشديد و بعد ان انبئتُ بتقدم العصاة و بوفرة عددهم عدتُ الى ساحة القتال ثانيةً . وبعد مناوشات وحروب عديدة واتعاب كلية وفقنا الباري فاستولينا على «بنسين» و« لبان »و بتقدمنا نحو هذين المحلين كنا نرى بقع الارض مملوءة باجسام الموتى جوعاً فكان قلبي ينفطر خصوصاً لما كنت ارى الاحياء بجانب موتاهم يطعمون بعض الاجساد التي لم تكن حرارتها قد فارقتها بعد . هذه امورٌ كنت ارغب ان لا اذكرها لك وانا عارف برقة قلبك ولكن قدّرٍ فكان . كثيراً ما تعرضت لافواه النيران وانا اعزل ليس لي سوى عصاي التي تعرفينها من آلات الدفاع ولكن يد العناية انقذتني من كل الشدائد و بعض الصينيين هنا يظنون انني محروس من القتل بطلاسم سحرية وهم يجهلون قوّة العناية الالهية ولو عرفوها لما تعجبوا اما خلاصي من الشدائد فامرٌ يجعلنا نزيد ثقتنا بقوة الديانة

الحقيقية (قيل ـ والقول في محله ـ ان فيكتور لم يكُ يحمل في حروبه سوى قضيب صغير وهو يقود العساكر والجحافل وكانت العساكر الصينية لرؤياها القائد في مقدمة الجيوش دائماً تظنه محروساً بقوة سحرية) (١)

قد خاب املي في وقعتين بعد الاولى التي ذكرتها وجرحت جرحاً خفيفاً (جرح جرحاً مخطراً في فخذه وكاد يفقد وعيه من نزف الدم) ولذا قد ايست الا الرجوع وسأتقدم نحو فوشان لان التيبيين اخذوها

وصلت اليوم الى فوشان وساحرر لك بزيادة اذا قدرت. اهدي محبتي للجميع ولا تبخلي بهذه الاخبار على صديقاتك ادلين وسيسيل واملي الخ. صحتي جيدة اليوم وساداوي الجرح بقدر الامكان. صلي لاجلنا ولا تنقطعي عن الكتابة لاخيك المحب ابداً

«فيكتور»

وهذه شذرات من بعض المراسلات التي وردت من قائد انكليزي الى لندن تكرم عليّ بنسخة منها من أُرسلت اليه

عن الصين ـ ... ـ ١٨ عن الباخرة ..

سيدي اللورد

حررت قبلاً واعلمتكم اننا بعد ان اخذنا بنسين ولبان دفعنا في معركتين تبعاً وان قائدنا البطل الشديد الباس النادر المثال فيكتور جرح في فخذه وازيد سيدي اللورد الان ان البسالة التي يبديها فيكتور في كل ساعة تفتح له في صدر كل وطني منازل من الفخر رحبة. فهو المقدام الباسل والعسكري المهاجم كيف دارت رحى الحرب رايته في طليعة

---

(١) في تحرير من فكتور الى الكونتس يقول لها فيه ان سبب وقايته ما كان الا حضور طيف ادلين دائماً امامه و يقول ان ذلك الطيف كان يرد عن صدره رصاص العدو. فالحب مولد العجائب

المقاتلين يقود الجحافل بعصا من خشب ومع انه جرح جرحاً بليغاً اظهر صبراً لايقدر وبقي واقفاً يعطي الاوامر حتى كاد ان يفقد صوابه. سنرجع عن القتال من هذه البقعة ونذهب للدفاع عن فوشان اما قائدنا الموجود الان في قمرة المركب يداوي جرحه فلم يزل يقودنا بعزم وحمية. سارسل هذا التحرير بعد جمعة او اكثر رغبة باضافة ما يجري بعد ايام قلائل

. . . .

«بعد ان نقه قائدنا فيكتور هاجم ببعض المئات من جنده عدداً لايحصى من الاعداء في وياسو وكان النصر في كل الامور لهُ ولو اتيت على شرح كل ما يصنع من مجالب الفخر لطال بي المقام. اهدِ تحياتي لكافة الاصدقاء وانتظرونا فقد عزمنا ان نسافر الى لندن عن قريب ودم لصديقك المخلص « قبطان »

فصلٌ رابع

الخناسة نقطة ظلم سوداء في تاريخ التمدن ازالها العدل وساعده الاحسان (لاحدهم)

السودان على اهميتها العظمى لايعلم عنها ابناء البلاد الا القليل فهي بلاد مخصبة واسعة الاطراف ممتدة الاملاك عظيمة الاهمية. واستاذن القاري الكريم ان اقوده الى تاريخ بدأ في سنة ١٨٢١ حيث توجهت انظار محمد علي باشا الفاتح العظيم ومؤسس العائلة الخديوية الجليلة الى السودان وجذبت انظاره الى كنوزها الثمينة خصوصاً الى معادن سنار الذهبية والسهول الواقعة بين النهرين الازرق والابيض المخصبة وشواطي هذين النهرين في درفور وكردوفان وسنار بلادٌ تفيض خيراً غير انها

وما يجاورها من الشمال والجنوب والشرق والغرب اصقاع قضي عليها الا ان ترضخ للنخاسة وسارفي عروق بنيها حب بيع النفوس وكثر فيها تجار الرقيق وادمن الاقوياء هناك على تفريق الام عن اولادها والرجال عن نسائهم وكم من قائدٍ قادر ارسل الى تلك الامصار بقصد تدويخها فذهب فريسة النار او فرَّ خشيةَ الاعدام غير ان اليد الخديوية القوية بمساعدة العرش العثماني الشاهاني المجيد ابت الا كبح جماح العصاة فاصرَّت على اخضاعهم وداومت ارسال فرق من الجيش المظفر رغبةً في تشتيت روساء المكابرين وحباً بردع قوة الناقضين للنواميس الدينية والادبية. والواقف على تاريخ هذه البلاد منذ السنة المذكورة حتى الساعة الحاضرة لا يعجب من الاهمية الموجهة الى هذه البلاد رغبةً في الغاء التجارة بابناء آدم ولا يغرب عن بال كل سياسي اهمية هذه البلدان التجارية فهي ارض يتخللها ولاشك بقعاً ناشفة يابسة برية جرداء غير ان شطوط النيل منها والاماكن الواقعة على ضفاف النهرين الازرق والابيض ونهر العتباره كلها ينمو فيها القطن بخصب واهلها يستخرجون الذهب من الارض بغزارة من كنوز في سنار. اما كردوفان ودرفور وسنار فولايات مهمة واسعة مخصبة الى الجهة الجنوبية من الخرطوم ومركزها الشمالي امام المدينة المذكورة حيث كانوا يتهافتون اليها بمحصولاتهم المهمة وهذا سبب سعي الفرنجة اليها حتى صارت تجارة الخرطوم بما حولها تقدَّر بالملايين من الليرات (١)

قلت ان الحضرة الخديوية كانت تسعى وراء كبح جماح العصاة وابطال النخاسة فكانت تنجح تارةً ويرجع قوادها على اعقابهم اخرى حتى توفى الله محمد علي باشا السعيد الذكر وخلفه الخديوي السابق اسماعيل باشا

(١) قيل ان محصولات السودان قدرت باربعة عشر مليون ليرا

فحذى حذونسيبه ولم يحدث في تاريخ السودان امر اهم من عصيان زبير
المعروف الان بزبير باشا . فالسياسة التي استعملت في اسقاط قوته ستذكر
ما دام للسودان تاريخ — اما زبير المذكور فكان من ملوك النخاسة
وكان له حاشية معدودة يسطو معها على القبائل فيذيق اهلها مرّ العذاب
و يجلب عليهم النقمة ويفرقهم قصد البيع فيرسلهم الى الاساكل حيث
كانوا يباعون بيع النعاج و يعاملون معاملة الحيوان وكان قواده يقودون
الاسرى بالجحافل فاذا قصر احدهم رمي بالرصاص واذيق شر عذاب الموت
فلما علم اسمعيل باشا بهذه الامور اجهد نفسه فسحق قوة زبير واتى بـه
بتحيلات سياسية الى مصر قصد تفريق كلمته ولكن بقي له حلفاء
يقومون لقيامه و يرضخون لاوامره

فصل خامس

بمَ التعلل لا اهل ولا وطنُ ولا نديمٌ ولا كاسٌ ولا سكنُ
اريد من زمني ذا ان يبلغني ما ليس يبلغه في نفسه الزمنُ
(المتنبي)

الخرطوم مدينة بلغ عدد سكانها في السنين المتاخرة نيفاً وستين
الفاً ولا شك انها احسن مدن السودان واهمها تجارة وفي زمن حوادث
روايتي كان نصف سكانها من السود الارقاء . وارجع الان بالقاريء
— تاركاً هذه الحوادث — الى تاريخ اقدم قليلاً من وقت وقائعي
الرئيسية وذلك سنة ١٨٦ـ
كان هناك كوخ صغير من اكواخ الخرطوم مبنياً بقطع من اللبن
ومسقوفً بالقصب عليه التراب خالٍ من النوافذ الكبيرة وليس له

سوى باب صغير جداً مصنوع من القصب وفيه فتىً اسود اللون شديد العصب عليه مئزر من الخام الابيض فقط بحيث لا يستر من جسمه الا نصف الصدر ونصف الساقين وكانت عضلاتـه الصدرية الظاهرة نافرة تدل على تمرينات جسدية متواصلة شديدة ولم تكُ شفتاه كبيرتان كباقي شفاه العبيد بل كانتا اصغر قليلاً اما شعره فكان قاسياً يزيد طوله على الخمس قراريط مدهوناً بالشحوم والزيوت وكان مع وجوده في هذه الهيئة الوحشية رقيق الجانب منخفض الراس رشيق القوام والى جانبه فتاة تشابهه لوناً غير انها كانت «جميلة سوداء» كما قال الشاعر في مثلها

يكون الخال في وجهٍ قبيحٍ فيكسوهُ الملاحة والجمالا
فكيف يلام معشوقٌ على من يراها كلها في العين خالا

وكانت كل تقاطيع وجهها وجسمها متناسبة جداً عليها امارات العفة وعزة النفس وعلو المقام

« والله يا نور ما ظننت ان اميرًا مثلي تقوده او باش التجار الى هذه الديار قصد الاتجار به ذهبت امس الى رئيس التجار ورجوته اطلاق سراحي فوعدني ذلك بشرط ان اسلمه عشرين رجلاً من اتباعي . فانا عالم ان عددًا من الارقاء هنا يودون ان يباعوا كالمواشي (١) غير ان بني ربعنا لا يرغبون في افتدائي واذا هم رغبوا رفضت ولكن عسى ان يمنّ الله علينا بالفرج القريب لانني وانا في عرش الغازي(٢) في مدينته منذ امد قريب سمعتهم يذكرون اقتراب حاكم ابيض من الشمال قصد تفريق كلمة

---

(١) معلوم عن ثقة وامر مشهور ان اكثر العبيد الذين يوخذون من منازلهم و يوتى بهم للبيع كانوا يرفضون التحرر لما انهم اعتادوا الذل وحطة العيش والخمول

(٢) هكذا سمي المعروف الان بزبير باشا عند السود لانه كما سبق كان يغزو قبائلهم و يسطو على املاكهم حتى صار اسمه سبب رعب وخوف

المتمردين ولكن آه : من الانذال السود الذين لا يريدون التخلص من العبودية وليس في اوردتهم جزء من الدم الافريقي ».

« آه : جابر لا اطلب من الدهر شيئاً الا ان اراك يوماً حراً ولو مت بعد ذلك اليوم لحسبت موتي حياة لانني اذا مت بعد تحررك مت قريرة العين صافية الخاطر واود كثيراً ان يفشى امري اذا تقرروا رسالك الى سواكن حتى اقاد مثلك واذهب معك فاتمتع برؤياك »

« اضربي صفحاً عن مثل هذه الاقوال ولابد من بقائك متسترة كما انت ومن رايي ان تعودي الى بلادنا وتخبري بما ترين . والان اخبريني عما تعرفين من الاخبار عن محاصيلنا من الذهب والعاج والريش »

« اخبرك والقلب ينزف دماً ان كل محاصيلنا نهبت ولم يبق في القبيلة احد لاستخراج هذه الكنوز قرب الله البيض فياتينا الفرج عن يدهم ان كل آت قريب »

« فرّق الله شملهم مثلما فرّقونا و بلاهم المولى بمصائبه العظيمة مثلما بلونا فقد نهبوا المال واسروا الرجال وهم ذوو قلوب صخرية لا يعلمون ما نقاسي من الم البعاد ونار الجوى وذل الفقر . آه يا نوركم القى هنا من الفتيان المملوئين حماسة والذين سرى في عروقهم دم يودون سفكه في سبيل خلاص اولادهم او اخوتهم او اخواتهم وهم على عزتهم يبكون بكاء يدمي الفواد و يقرّح الجفون . فلماذا نعامل هذه المعاملة و يسفك دمنا بلا شفقة أ لكوننا عبيد جلدنا اسود؟ او لا يمكنا ونحن اصحاب هذا اللون ان نحافظ على حقوقنا ونستخرج من محاصيل بلادنا الذهبية والعاجية وغيرها ما يعود علينا بالثروة؟ . . . ولكن فصمت عروة ارتباطنا وفتكت بنا ايادي الظالمين ففرّقتنا ايدي سبا نقاسي الذل والهوان . . . آه من الموت اين هو فيسطو علينا و يريحنا من حياة الذل والاهانة والعار (١)

« اصبت جابر فكيف تكون احوال اهلنا الآن ربما كانت اعينهم

(١) ربما ظن البعض ان السوداني يقصر عن مثل هذه الحاسات السامية غير ان الاختبار

شكري بدموع الحسرات* وقلوبهم منغصة بالكآبة : فماذا يعيق الغزاة عن ارسالكم الى مواكن الآن هل علمت ؟ »

« يقول الجواسيس ان قد قدمت قوافل لاتعد من الشمال ومن الشرق تنقل الحاكم الذي ذكرته وقد سمعتهم يقولون – وانا انقل الاواني عن مائدتهم – ان هذا الحاكم قد دوخ قسماً عظيماً من هذه البلاد وهو ليس كغيره من الحكام بل هو شديد البطش نافذ الكلمة »

« هل عرفت اسمه ؟ »

« نعم يقولون انه باكر باشا »

« قرّبه الله فان في ذلك فلاحنا لانني سمعت ان الغاية من ارسال هولاء الحكام انما هي الافراج عنا ومساعدتنا في اخراج الذهب وجمع ريش النعام والعاج »

« نعم هذه غايتهم ولكن ما قولك في الذين يرفضون التحرر بسعي المخلصين . قومٌ صار حب العبودية دماً يسير في عروقهم كالغذا »

« نعم هم انذال يجحدون الفضل و ينكرون الجميل ليس فيهم من دم الحرية نقطة »

« آه نور . هم قوم اعتادوا الذل والعبودية منذ نعومة اظفارهم فلا يريدون ان يغيروا عادة رضعوها مع اللبن »

« اصبت ولكن اليك الان واخبرني عن اسفارك وما قاسيت من درفور الى هنا تسوقك ايادي الظلمة »

« قبل ان اجيبك عن اموري الشخصية ارجوك ان تحدثيني بما توقع لك حتى وصولك الى هنا »

« تركت البحر الابيض ومشيت نحواً من عشرين يوماً حتى بلغت

---

* يب ان يسهم شعبنا اكثرهم من الوف من الذين يصرفون ايامهم في المدارس ومن يحث تاكد قولنا

البحر الازرق وهناك اقتفيت اثاركم ونار الحب تسهل عليّ الاسفار وانا اتقلب بين حرّ وجوع وخوف من تعديات ابناء الطريق وعلمتُ من سكان القرى على جانب البحر الازرق انهم ساقوكم على ضفته الى مدينة كبيرة عند نهايته (١) فتوجهت منفردة لاخليل الا طيفك ولا رفيق الا ذكرك انام الليل تحت الاشجار وفي الآكام واغتذي الاعشاب تارة واستعطي بعض الطعام اخرى حتى وصلت الى هذا المقام فصرت اتنسم اخباركم وابحث بين البيوت عنك فلم اقف لك على اثر ففي ذات يوم وانا على شاطيء البحر رايتك مع جماعة تنقلون اللبن فتبعتك حتى وصلت الى هذا الكوخ وكان معك احدهم فانتظرت ذهابه وتراني الان بين يديك»

«ما اعظم صبرك واشد حبك انك تستحقين العبادة»

«اليك الان عن شكري فانا ما اقدمت على المخاطر الا طمعاً بلقاك لالارضائك بل لارضاء فوادي الذي غذاه حبك ومناه قربك فهات الان انبئني بحديثك»

«ان حديثي عجيب غريب طويل جدًّا فلا اريد ان آتي على شرح الدقائق بل اقتصر على الايجاز فبعد ان هزمت قبيلتنا ساقنا الغزاة تحت افواه البنادق والمسدسة الطلقات واذا تاخرنا حصروا ايدينا في اخشاب كانت تاكل من لحومنا وكم من فتىً اماتوه بقلوبٍ لاتعرف الشفقة لانه كان يبطيء السير وقد اضناه السفر. وبعد ذلك انتخبوا منا كل شديد باس ولسوء حظي كنت بين المنتخبين فسرنا بعد وصولنا الى هنا نسطو على القبائل مجبورين ونعود بالاسرى فنبيعهم على شواطيء البحر. وقد ذهبنا مرةً الى سراكن مدينة العذارى (٢) فبعنا هناك مئات من الغلمان وقد

---

(١) الخرطوم هي مبنية عند ملتقى النهرين الابيض والازرق ومنها شمالاً يدعى النهر نيلا

(٢) قيل ان سواكن ماخوذة من سواكن فالخرافات تروي ان سبعة من العذارى كنَّ هناك

قال لي قائدنا انهم كانوا يرسلون الى الهند والصين وعدة اماكن اخرى متمدنة وقد ذهب غيري مع فرق اخرى الى مصوّع وكل ذلك سيرًا على الاقدام حتى اعيانا التعب لا يحن احد لما اصابنا(١)

« هذا اذًا سبب صرفي مدةً طويلةً هنا دون رؤياك

« نعم ولكن اذا شاءت القدرة يفرج عنا قريبًا واذا اتى البيض تزوجنا حال وصولهم »

فلم تجاوبه نوربل قبلت وعده بكل رصانة ثم اتفقا بعد ذلك ان تبقى عنده دائمًا مستترة في كوخه الى ان يمن الله عليهما بالفرج

« ولكن كيف وصلت الى هنا يا جابر بعد ان كنت في شاكا تحت قيادة الهائل المرعب؟» (٢)

« اتيت مجبورًا ولا ادري لذلك سببًا غير انه بعد محاربتنا جنود الشمال (٣) ظفرنا بهم وارسلت الى هنا اتعاطى الاشغال الشاقة من مثل نقل اللبن وجبل الطين والمساعدة في الغزو »

« ما برحت سنة كاملة ادور عليك وربما اكثر . ولم تصنع امرًا في غضون هذه المدة الا الذهاب والاياب والمحاربة ؟ آه لو تعلم كيف كان يخفق قلبي وانا على الطريق خيفةً ان ارى جثتك بين جثث كثيرين من المنكودي الحظ لان الطرق كانت مملوءة منهم »

« ان الجثث التي كنت ترينها هي من قبائل اخرى كنا نغزوها . اما

يسكن جزيرة قرب سواكن ففي ذات يوم اتى بعض الصيادين فوجدوهن حاملات فلما سئلن قلن ان الجن افترسوهن فولدن سعة بين كانوا اول من اسسوا سواكن ولذا دعيت هكذا لانها كانت مسكونة

(١) كل هذه الحوادث التاريخية صحيحة نقلتها للقاري بلسان جابر

(٢) هكذا كان يلقب زبير باشا ايام كان يسطو على القرى

(٣) جنود الخديوي اسماعيل من سنة ٦٧—٦٩

نحن فاننا بلغنا هذه المدينة لما كنا اسرى مذ اشهر عديدة ولذا وجدتني حياً فان تلك الجثث التي كنت ترينها هي جثث الاسرى الذين كنا نقتلهم مكرهين»

«ولكن اخبرني اذا كنت صنعت اكثر مما ذكرت ؟»

«صنعت اموراً عديدة ولا اخفي عنك انني اخابر بعض الجواسيس الشماليين وقد علمت ان تلك الدولة السامية ستساعد الهائل في اشهار الحرب على ملك درفور اما هذه المساعدة فلغايات سياسية لم تزل تحت طي الكتمان عندي غيران «الهائل» رجل قادر وداهية سياسية وله من الجند ورجال الدين عدد ليس بقليل . وعليك الآن مشاركتي في افراحي لانني وعدت انه يوم يقبل الحاكم الابيض باكرباشا ساعين في عداد حشمه واذ ذاك نجتمع ولا فراق واذا شئنا رجعنا الى الديار لانه بوجود البيض تحصل الحرية وتصفو الاحوال»

فصلٌ سادس

الحرية يطلبها كل عاقل ولا لوم على الانسان لانه ذو ارادة حرة
(لاحدهم)

بعد هذه الحوادث المارّة الذكر دعي جابر وغيره من العبيد الى حرب ملك درفور حيث تجمعت الجنود المصرية وجنود زبير لمحاربته فهاجموه وغلبوه وقيل ان زبير كان يصهر الفضة ويسكبها رصاصاً ويحارب بها العدو ظناً منه ان الفضة مسحورة وقيل ان رصاصة فضية اصابت ملك درفور فانهت حياته ورجع زبير بعد ذلك الى شاكا مركزه وهي مدينة

بين الخرطوم والاقسام الغربية منها وكان له فيها قصور وحشم ومقتنيات تطاول مقتنيات الملوك وبعد هذا بقليل قدم باكر باشا كحاكم على السودان واخذ زبير بوسائط سياسية الى مصر . ثم انقلبت السياسة الى مجارٍ اخرى يطول بي المقام اذا اتيت على شرحها غير ان السياسة الخديوية كانت في كل زمان تنول وتفعل في ابطال النخاسة ولذا كان تخفيض هذه المصيبة يتقدم في كل سنة خطوة وتخفيض النخاسة ساعد على امتداد تجارة السودان كثيراً وذلك بعد ان صرفت الهمة والجد وبعد ان سفكت دماء عدد غفير من خلق الله وقبل ان يرقى سمو الخديوي الحالي عرشه السامي استعفي باكر باشا لاسباب سياسية يعرفها اربابها وعين على السودان بدلاً منه حاكماً آخر نصبهُ اسماعيل باشا السابق عملاً بتوصية سمو ولي عهد البريطان وذلك بعد ان زار الخديوي المذكور بريطانيا ونال فيها القاباً من الشرف سامية . اما حكم الحاكم الجديد بعد استعفاء باكر باشا فكان في سنة ــ ١٨ وبعد هذه الحوادث الاخيرة بسنواتٍ قليلة تحول حكم مصر الى عهدة الحضرة الخديوية الحالية وحدثت امور تاريخية عديدة سياتي بيان بعضها في الفصول التالية . اما صديقنا جابر فتزوج بحبيبتهِ نور واستخدم عند الحاكم الجديد وكان امينًا صادق الخدمة

فصلٌ سابع

قل للذي قد رد صباً سائلاً ما رد طرفي قط دمعاً سائلا
لو كنت تنظر جود عيني مرةً ما كنت تبقى في وصالك باخلا .

(الندى الرطيب)

بعد رجوع فيكتور الى بلاده من الصين قابله شرفاء البريطان

بقلوب فرحة وصدور رحبة وما ذاك الا لان اخباره كانت قد سبقته اليها وملأت الاسماع فذاع اسمه على السنة الكبار والصغار وتناقلت اخبار اعماله المخدرات فصار موضوعاً لافتخار الجميع ولم يطل الزمان بعد وصوله حتى ذهب الى مقابلة صديقته الكونتاس اوف ـ . . . وبعد ان صرفا مدة ساعة اشغلاها بذكر ما حدث له في حربه ومخاطره وما قاساه من الاهوال المذكورة بلغا في حديثهما نقطة لذ لفيكتور حسن السكوت عندها

« اراني اصيب يافيكتور عزيزي اذا امرت عليك ان تفاتح الارل بامر اقترانك بكريمته »

« لايخفى عليك ما لمشوراتك من الوقع الحسن في صدري غير انني ارى من الحكمة ان لا افاتح الارل بهذا الموضوع الان »

« ولماذا ؟ »

« لانني اخشى ان يظن بي الافتخار بما نلت اذا اظهرت رغبتي في الحصول على وحيدته وهو كما لايخفاك صلب الراي منفرد الكلمة »

« خلّ عنك هذه الافكار السامية فانت الان في سن الزواج واذا ابطات في طلبك اسات السياسة »

« لايخفاك ان مثلي من يقاد في مثل هذه الظروف الى ما يطابق رغائب قلبه واراني لضعفي البشري ارغب في الانقياد اليك ولو كان ذلك مخالفاً لما يعلمني شخصي الداخلي »

« حسن . اذاً ارى من المناسب ان تخابر ادلين بعزمك كي تكون على حذر »

« ومن ذا الذي يخبرها الاك ياذات الفضل »

« قبلت ان اكون رسولك فساذهب هذه الساعة اليها »

وهنا لا يرى الكاتب بدّاً من ذكر بعض افادة عن نوع حب

الاثنين احدهما للآخر . قد لاحظ القاري من مجرد تصرفهما كيفية تلك المحبة التي كانت في قلب كل من فيكتور وادلين ولا ادعي المقدرة على شرح ذلك الحب الشرح الكافي غير انني اقول انه كان حباً نقياً طاهراً ومع ان كلاً منهما كان يفضل الآخر على الكون باسره كانا غير ذاهلين عما لكل منهما من الاغلاط لانهما لم يكونا يحبان حباً اعمى بل كانا يحبان برصانة وصبر وجلد لايقدران فكانا كاملين بقدر استطاعة البشر واذا غاب احدهما عن الآخر او لم يغب يتاملان احدهما بالآخر نهاراً ويحلمان ليلاً ولكن لم يكن هذا ليغيب من عقولهما او لينتقص من اتمام واجباتهما ولولا ادابهما وكمالهما لكانا لايهتمان بمشورة والدي ادلين ويخالفا سنة الشرع الانكليزي العالية ويبثان بالاقتران الشرعي غير انهما قررا لزوم تلك المشورة

فصلٌ ثامن

ليت الملاح وليت الراح لو جعلا   في جبهة الليث او في قبة الفلكِ
كي لايقبل ذا حسنٍ سوى اسدٍ   ولا يطوف بكاسات سوى ملكِ

(البدى الرطيب)

واذا داهمتك النوائب فاظهر مصلك بالصبر

(لاحدهم)

كونستيتوشنل كُلُبّ (١) شارع سانت تجامس — تموز سنة — ١٨

" سيدي اللورد

"بشرف وافتخار اعلم سيادتكم انني علقت سيدتي ابنتكم ادلين منــذ سنين عديدة ويصعب عليّ ان اشرح لكم عواطفي الرقيقة القلبية من

(١) تلفظ بتسكين الباء وتشديدها وهي عبارة عن ندوة ادبية او سياسية يجتمع فيها الادباء او رجال السياسة

نحوها . وهنا لا اخفي عنكم ان الحب بيننا متبادل وقد سهرت الليالي ارقب زمناً احصل فيه على رضاكم فاتجاسر بعده على طلب كريمتكم علناً(١) وانني في ختام تحريري ازيد ايضاحاً امر اعتباري لمركز كريمتكم ونسبها العائلي و ذلك الاعتبار قلبيٌّ وثيق وتاكيداً سيدي انني »

الداعي المخلص

« فيكتور »

« الى الارل اوف ... بورتلند پلايس . القسم الغربي »

ثم امر فيكتور ولداً صغيراً (٢) ان ياخذ هذه الرسالة الى الارل وبقي ينتظر الجواب بفروغ صبر فلم يتمكن من ترك الندوة التي كتب فيها التذكرة الا حين ورد هذا الجواب

« بورتلند پلايس ـ تموز سنة ـ ١٨

« سيدي الجنرال

تشرفت الآن برسالتكم الكريمة وجواباً عليها اقول انه يمتنع عليَّ بكل اسف التسليم بمنحك الفرصة التي تطلبها . ولا تظن ان الحائل دون قبول طلبكم نتج عن عدم رضىً من شخصكم . فشخصياتكم وانتم وكل صفاتكم منظورة منا باعين الاعتبار والوقار غير ان ظروفكم ومركزكم (٢)

---

(١) من الضروري في شرع الانكليز ان يؤذن للشاب الراغب — من والد او والدة او اخ او اخت السيدة او وصيها — بملاحتها بامر الزواج علناً وهذا لابد من حدوثه ولو كان المتحابان قد قررا وجوب الاقتران وكان لهما السنون الطويلة متحابين وقد يحدث الزواج مراراً عديدة دون رضى الوالدين غير ان هذا شاذ ولو كثر

(٢) في كل محلات التجارة وغيرها في اوربا وبريطانيا اولاد صغار لنقل الرسائل توضع هذه في محافظ جلدية تعلق في اكتافهم وتربط في اوساطهم . وهؤلاء الاولاد يعرفون بالنشاط والهمة والامانة ولهم ثياب مخصوصة بهم

(٣) من الضروري بموجب اداب السلوك الانكليزية ان يذكر الوالد او الموكل

قد الجأني الى قطع املكم من رضانا في مفاتحة ولدنا بهذا الشان وثق انني لم ازل ارغب في صداقتكم موءملاً انكم تداومون مواصلتنا وزيارتنا

الداعي المحب

«الى كونستيتيوشنل كلُبّ سانت نجامس»   الارل ....

فانتهى فيكتور من قراءة التحرير واعادهُ ثانيةً ظناً منهُ انهُ لم يفهم مضمونه حقيقة الفهم. وبعد ان انتهى من قراءتهِ للمرة الثانية امتقع لونهُ وقال في نفسهِ «لو لم احسب لهذا الرفض الف حساب ولو لم تكن العناية قد اختصتني بالصبر الجميل لكنت امزق الفؤاد حزناً واندب حظي مدى الايام ندب الثكلى ولكنني احتسبت من هذا الرفض بادئ بدء فها قد اتى الجواب يحقق مخاوفي ويثبت ظنوني: اه: ادلين ادلين يامنتهى الامل ومحط الرحال أأبعدت عنكِ الى الابد وقضي الامر. نعم: نعم: ادلين قد حكم من لا يرد حكمهُ وقضى من لا يعارضهُ معارض فآه: ثم الف آه: يا ادلين. كيف يصفو عيشي وينعم بالي وانا اعلم انني اذ قصدتك لاضمكِ الى الفوءاد المملوء من حبكِ اكون بعملي هذا مخالفاً لارادة ولي امرك. افلا اتعدى حدود الادب بمقابلتك خلسة وطلب مبادلة حبك على علمي انك ستكونين لغيري. اهكذا قضي على اسيري غرام حبهما اطهر من نسيم الصبح ان يفشلا في ما يطلبان من الانضمام؟ اهكذا حكم الزمان ان يبعد احدنا عن الاخر وكل لرفيقه النور والحياة والروح آه: ادلين: ادلين: ادلين: واعدتُ النفس ان تلقاكِ لتنضم نفسين محبتين طاهرتين فيكمل سعدها. فلماذا وكِلَ بكِ سيدٌ يرغب ان يكون زوجك فتى كثير المال محباً للعالم ومجده. وحياتكِ ادلين ان الزواج لم يوجد

سبب الرفض فقد بين الارل هنا ان سبب رفضه نتج عن عدم ارتضائهِ بمركزه. وهذا عندهم يعني المال

الاّ لضم مثل شخصينا وان العزة الالهية ما ارادت الاّ مثل ائتلاف فوءادينا ولكن لعبت في هذه النسبة ايدي الظروف فغيرت من مجراها واخنت على مبداها الاغراض فصار الزواج لغايات في الصدور. وانبرأت السياسيات والماديات وغيرهما من شوءون الدهر فهاجمت الغاية الحميدة من اميال القلوب فدوختها وقادتها كالنعاج الى غير ما تريد فليس لنا الاّ الرضوخ لحكم الايام. نودع امالنا الوداع الاكيد ونندب ياساً على نكدنا وليعش كلٌّ لرفيقه بذكرى الحب النقي والسلام على امل اللقاء»

اي ذنبٍ ترى واية ذله   للمحب الذي تحللت قتله
كلما ترتضيه سهلٌ ولكن   عثرات الامال ليست بسهله

من لايشارك فيكتور في مبداه ومن لايرق لشكواهُ فان رفض والد ادلين اياهُ ابعد عنهُ كل امل وكل رجاء فصار لديه من رابع المستحيلات ان ينالها الا بعد موت والدها اذ بعد وفاته تصبح حرة ولكن فيكتور كان شاباً اديباً لا يرغب في املٍ اساسهُ التشوق لموت احد فلذا انحط عزمه وهو يرفض العيش على امل اللقاء تحت الظروف التي كان من الممكنات حدوثها لانهُ لو توفى الله والد ادلين وهي وحيدته لامكنها ان تتزوج بمن شأت هذا اذا فارق والدها دون تصريح بقطعها عن حقوقها اذا تزوجت فيكتور اما المنكود الحظ المذكور فما زال في المنتدى لايقاطعهُ احد في افكارهِ حتى عشية اليوم المذكور واذ ذاك ذهب في سبيله وفي صدره امور لايعلمها الا الله

فصلٌ تاسع

ومما صرّم البرحاء اني شكوتُ فما شكوت الى رحيم
(ابي تمام)

اعطني الصبا والشبيبة والا فماذا تفيدني الحكمة (درزائيلي)

« ما بالك عزيزي ادوارد كثير التامل قلق البال وعهدي بك طلاقة المحيا وسلاسة الحديث ؟ »

هذه كانت بداية حديث الكونتاس اوف . . . (والدة ادلين) لما دخل الارل زوجها الى غرفتها (البودوار) وهو على الهيئة المذكورة لانهُ كان قد دخل قبل بداية الحديث بدقائق قليلة ولم يدرِ كيف يجلس او كيف يبدأ بافشاء امور كانت توءجج نارًا في صدره ولذلك دخل وهو عابس الوجه ورمى بنفسه على ايوان كان هناك وقضى بضع دقائق قبل ان يبدأ بكلام فنبهته عبارة الكونتاس واجابها

« اتيتكِ بامرٍ مهم قضيتهُ منذ امدٍ وجيز وهو من اهم امور حياتنا . قضيتهُ ولا ادري كيف يكون وقعهُ لديكِ وفي قلب الاساس فيهِ »

« هل وعدت الفيكونت درسدايل اذًا بزفاف ادلين اليه وهي لا . . . . »

فقاطعها الارل وقال

« تصبري فليس هذا موضوعي : ولكن كيف عرفتِ برغبتي في زواج ادلين من الفيكونت المذكور ؟ »

« ارجوك ان تخبرني اولاً عن الامر الذي اشرت اليهِ وانت عالم ان

ادلين عندي اثمن مخلوقات الله فعجل بالجواب رعاك الله وهداك»

« قد كاتبني في هذه الساعة الـ .... »

« اللورد بروفيل . اليس هكذا ؟ اخبرني»

« ارجوكِ ان تفيدي نفسكِ فاراكِ تدعين معرفة كل شيء ؟ »

« ما بالك تظهر البرودة والامر ذو شان كما تعلم »

« لست اظهر البرودة ولكنكِ متهيجة بزيادة وانا اريد قص الخبر بدون مقاطعة . كاتبني الجنرال فيكتور يطلب يدها ف....»

« جاوبته بالايجاب » ـ قالت الكونتاس هذا وعلامات الفرح تلوح على محياها

« اراك تقاطعينني وتستنتجين من حديثي ما شئتِ ولا ترغبين ان اتمم الحديث كما توقع . بناء عليهِ سابقي كفاية الخبر الى فرصة اخرى حيث تكون قد سكنت افكاركِ وهدأ هياجكِ » قال هذا وحاول الخروج فتبعته الكونتاس وامسكت ثوبه فاوقفته قائلة

« ادورد عزيزي ناشدتك الله ان تطلعني على ما توقع فلا ترى مني معارضة ولا استنتاجاً وانت تعذرني فالامر ذو شان عظيم عندي ولذا كنت اقاطعك ولا خلاف بين الزوجين فعجل وقاك الله وحماك »

« خذي اولاً هذا التحرير وطالعيه ومتى فرغت من قراءته اطلعك على صورة الجواب » ـ قال هذا وناولها التحرير فاخذته ويداها ترتجفان فطالعته ثم قالت —

« اين الجواب فقد فرغت من مطالعة تحريره »

« هذه صورة الجواب فطالعيها ولا تسمحي للعواطف الذاتية ان تؤثر في عقلك : »

فقرأته وبقي في يدها مدة بعد اتمام مطالعته وهي لا تنطق ببنت شفة

« ما بالكِ ياحبيبتي سيسيل لاتبدين جواباً ؟ »

« قساوة: قساوة: والف قساوة: كيف رفضته ادورد وهو غرة في جبين الدهر وآية في الشجاعة وحب الوطن والعفة والتقى والاقدام. وماذا تعني بقولك « مركزه وظروفه » يقضيان بالرفض ؟ »

« لاتونبيني على ما صنعت فهو عين الصواب اما قصدي « بمركزهِ وظروفهِ » فذلك انه فتىً لا قيمة للدراهم عنده وهو اكبر مخاطري الزمان يعرض بنفسهِ للهلاك في كل آن وانا لا اريد ان ازوج ادلين الا من فتىً يحافظ عليها في بلادي لانها وحيدتي ولا اريد التفريط بصوالحها وعلى فرض انني بهذا العمل اضحي حاسات قلبها فاذا تداركنا الامر وسافرنا معها وتغيرت عليها المناظر سلت الحب ونسيت الضحية الغرامية ورجعت الى الهدى »

« هل علمت ادورد ان حبها لفيكتور خارق العادة وان كل قوى الطبيعة لاتحولها عن حبهِ فاذا كان يخاطر بطلب المجد فذلك لان مطامحه اسمى من البدرين ومطامعه الادبية اوسع من الخافقين واذا كان لايقدر الدراهم قيمتها فماذلك الا لكرم فطر عليهِ ولحاسةٍ نشات معهُ في المهد تحبب اليهِ مساعدة كل فقير معوز. ولكنهُ اذا تزوج شعر بلزوم الحرص وصار افضل قرين »

« كل هذه تصورات غزلية. وانا رجل عركني الدهر وعركته اعلم الامور كما يجب وقد فات الزمان الذي فيهِ توءثر بي افكار غير عملية »

« قساوة: قساوة: اعيد هذه العبارة ما دام لساني مطلق في فمي فلو كنت اباً حنوناً — « قالت هذا وقد تصاعدت زفراتها » — لكنت على الاقل تركتَ لهُ باباً للامل فمجرد الظن بخيبة املها وحدهُ يميتهُ كمداً وولدنا المحبوبة. آه: ولدي ادلين انهُ عندما يبلغك هذا الخبر

....» ـ قالت هذا وخانها الصبر

« خلي عنك الضعف واطرحي الملام فعهدي بك القوة والشدة في الضيق »

« آه : آه : ادورد قد ظلمتها » واخذت تذرف الدموع كالسيل فاخذ الارل يدها و بدا يعزيها قائلاً

« عزيزتي سيسليا دعي عنك البكاء ولا تنسي انك الكونتاس اوف... وقائدة الهيئة الاجتماعية في لندن. فكيف تعطي النفس هواها؟ خففي من حزنك لعلي اتمكن من ضمد هذا الجرح وهو جديد »

« لايتم ذلك الا بتغيير الحكم وهذا لايتم الا بارسالك تحرير تانٍ ينقض الاول »

« هذا لايمكن « ولو وقف الماء عموداً » أ أكون الارل اوف... واحكم بامر ثم انقضه بعد ساعة؟ معاذالله : وعلى فرض انني غيرت في حكمي فكيف اعتبر ارادتي بعد هذا التغيير الا عرضةً لاوامر كل من امر :»

« انت قاسٍ وقلبك من صخر والا ما اتيت بمثل هذا العمل »

« قولي ما شئتِ فخير لي ان اتهم بالقساوة من ان اضحي صالح وريثتي فارضى بزفافها الى من لا اراه كفوءا لها فاقصري عن العتاب ودعينا نهتم بتبليغها الحكم في اقرب آن. فهل تبلغينها اياهُ انت ؟ »

« لا اصنع هذا ولا اخبرها بما هو لديها اصعب من الموت وامرّ من العلقم ولو علمت انني املك بريطانيا غداً !. فعلينا بالتبصر اولاً لعلك تحول عن عزمك و يطرا على حكمك تغيير »

« قلت لك ان حكمي لايتغير وانا آخذ على نفسي عهدة ابلاغها اياه »

« اصنع ما شئت وانا اصنع ما يعلمني قلبي :»

« اين ادلين الآن لاراها ؟ »

« في غرفتها »

« ارجوك ان تبعثي وتخبريها ان تقابلني في غرفة المكتبة »

« ابعث اليها انت فلا احب ان اكون الواسطة لسماعها هذا الخبر المشوم »

فصلٌ عاشر

واذا تآلفت القلوب على الهوى   فالناس تضرب في حديدٍ باردِ
(لاحدهم)

كانت مكتبة الارل كبيرة واسعة كل جدرانها مملوءة بالخزائن فيها كثير من الكتب الثمينة وكان فيها حائط خال من الخزائن وهناك كان « محل النار » وكان على الطرز القديم اي انه كان كبيراً جداً طوله اربعة اذرع في مثلها عرض وفوقه صورة كبيرة بديعة تمثل معركة الدلته في مصر بين نلسن الانكليزي ونابوليون وامام هذه مكتبة الارل ملآنة بالكتب على انواعها والجرائد السياسية والعلمية على اختلافها ٠وكان الارل بعد المقابلة المحزنة بينه وبين الكونتاس جالساً على كرسيهِ وعلى وجهه دلائل الاهتمام وكان يخالط اهتمامه هدوٌ وبتٌ في الحكم وبيده جريدة يومية سياسية يطالعها ٠ واذ ذاك دخلت الغرفة ادلين خفيفة الحركة لطيفة المحيا باسمة الثغر والقت بنفسها على عنقهِ تقبله وهي لاتدري بما كتم طي صدرهِ ٠اما الارل فكاد ـ للمرة الاولى في حياتهِ على ما اظن ـ ان تسقط الدموع من عينيهِ فلم تخفَ على ادلين حالته المكروبة فقالت « والدي العزيز

ما بالك ؟ » ـ قالت هذا ونظرت الى الجريدة التي كانت بيدهِ بتامل ـ « هل غلبتم في المباحثة امس ؟ او هل لم ينجح خطابك ؟ فقد رأيته مطبوعاً بيدك . لعلك كنت تطالعه »

« حبذا لو كان الامر كذلك لكنت في سعة العيش » (يعذره القاري فللحاسة الوالدية حق لاينكره احد)

« اذاً ما الداعي لتغيير ملامحك سيدي ؟ قل فربما هونت عليك الصعب »

« آه : ادلين لايمكنكِ ان تخففي عني اثقال امر هو من فوق قدرتكِ »

« ماذا تعني سيدي وانت تعلم انني ابذل الروح رغبةً في مرضاتك »

« ولكنك لاتبذلين القلب.... »

« صرِّح ناشدتك المحبة الابوية فقد افنيت صبري افدني داعي كدرك ؟ »

« انتِ داعي الحالة التي تريني فيها : »

« وكيف .... ؟ »

ذهلت ادلين عما اخبرتها به الكونتاس بلسان فكتور انه راغب في مفاتحة والدها بطلب يدها للاقتران والا لما فاتها ان تلحظ حال دخولها حقيقة الامر وباطن المسالة ولكن لما قال لها والدها انها هي الداعي لاحزانه وعندما رددت الى خاطرها ما قاله من انها لاتقدر على بذل قلبها في ذلك السبيل عاودها الرشد فانتبهت والقت ذاتها على كرسي كان الى جانبها لاتنطق ببنت شفة ثم رفعت انظارها ورمقت وجه والدها برهة وجيزة كان الصمت في خلالها سائداً على الفريقين ثم ان الاول افتتح الحديث قائلاً

« انك اعلم الناس ياولدي ان محبتي لك طاهرة شديدة الاستحكام وانت اخبر البشر بظروفي العائلية وانني حرمتُ من الدنيا نصيباً الاك . فرغبتي في صالحك لاتفوقها رغبة وميلي الى تهيئة سعادة مستقبلك لايعادله ميل وتعلمين ان الزواج من اهم ادوار الحياة التي تمر بالناس و يقتضي النظر في هذا الامر بتدقيق كي يطابق الظروف و يناسب كلا الزوجين ولا يخفاك انك بلغت سن الزواج واليك تتطاول اعناق النبلاء والشرفاء وتمنطقك انظار الاعيان والادباء كل منهم يصبو الى الحصول عليك لدواع واسباب انت اعلم بها من سواك »

وما بلغ الارل هذه الدرجة من كلامه حتى اقتضب الحديث بطلب الراحة والتهيوء للوصول الى النتيجة . اما ادلين والانسان يرغب دائماً في رفض التامل بما يقبح وهي فطرة طبيعية ـ فعاودها لونها ظناً منها ان والدها يمهد السبيل ليعرض عليها طلب احد النبلآء فقالت

« حسن سيدي ان هذه الامور جميعها معلومة عندي ولكن ما الموجب لهذه المقدمة وهذا التمهيد ؟ »

« ان ما يوجب ذلك فتىً لا انكر عليه ما اتصف به من علو الهمة وامتاز به من الاقدام والشجاعة وهو يحبك و يتهالك في هواك وقد سالني ان اسمح له بطلب يدك للزواج واستناداً على اسباب وظروف شخصية عديدة انكرت عليه ذلك ورفضت طلبه ثم جئت انبئك برغائبي واطلعك على واقعة الحال »

فتحول احمرار وجه ادلين الى اصفرار و بعد تردد طويل قالت

« ما اسم هذا الطالب ياسيدي الوالد ؟ »

« لم يخفَ عليّ اضطرابكِ وقلقك واصفرارك الا انه يجب عليّ اتمام واجباتي مصرحاً باسم الراغب فهو . . . . »

« من هو سيدي ؟ »

« هو الجنرال فيكتور »

فحدقت ادلين بوالدها نظرات كالسهام او امضى من حد الحسام ثم امتقع لونها وبسطت يدها الى والدها تحاول النطق فخانها الجنان وعصيها اللسان وخانتها القوى فسقطت يدها المنبسطة على الكرسي . وما لاحظ الارل هذا التاثير حتى قال

« ما بالك تظهرين ضعفاً طبيعياً ماعهدته يصدر من مثلك؟ »

فعاد اليها الدم البريطاني الشريف لدن طرق سمعها كلام والدها الحماسي فقالت بصوت ينقطع حرقةً ويرتجف كيداً ذاهلة انها بحضرة والدها الارل اوف . . .

« اعالم انت ياسيدي الارل بحبي الشديد لهذا الجنرال ؟ »

« نعم علمت ذلك ولكن الظروف حكمت عليّ ففعلت ما فعلت ورايت مخالفة عواطفكِ »

« اذا فعلتَ ذلك على حين انت عارف تمام المعرفة حاسابي غير ناظر الى مراعاة عواطفي وحركات قلبي واماني؟ ثم اراك قضيت بامر هو من اهم ادوار حياتي وذلك بدون مشورتي مطلقاً ضارباً صفحاً عن امالي غير ملتفت الى مقاصدي ؟ »

« نعم . وكابنتي يجب عليك ان تخضعي لحكمي »

« لاتخشَ ياسيدي الارل مني نقضاً لحكمك او رفضاً لامرك ولا اني اغاير ما ترضى او اخالف ما ترسم . ولا ترهبنّ محاولتي العصيان اوميلي الى تدنيس شرف عائلتك بالاقدام على امر تنكره او ان اذكر امراً تاباه انت . بل حفظاً لشرف تلك العائلة ونسبها السامي ساطأطئ الراس خاضعة لامرك . الا انني ارجوك قبل انقضاء هذه المقابلة وبت هذا الامر ان تصيخ سمعاً لكلماتي

— انك رفضتَ حبيبي وانكرت عليه طلب يدي للاقتران وهو

نصيبي من الحياة وغايتي في المعيشة. فسحقت بعملك هذا قلباً رقيقاً تحوّلت قطعه المنسحقة بقساوتك الى قطع اصلب من الفولاذ او الصوان ثم انضمت جميعها الى صفيحة قاسيه لاتقوى على سحقها صروف الايام. والان كابنة الارل اوف.... اخطرك ان قلبي من الان والى آخر حياتي لي وحدي وملك يدي وانا في حركاته صاحبة التصرف المطلق. فاياك اياك ان تبايعه لاحد... ولا تتوهم ان كلامي هذا صادر عن بغض لك او رغبة في مقاومتك: كلا: كلا؛ ان كلامي هذا صادر من صميم الفؤاد وانا ناطقة بما يوحيه اليّ قلبي الذي اضرمت فيه نيران الكآبة. وقولي صادر عن مبدا لا ارى لي مقدرة على مقاومته وانا اعتبر الزواج تآلف قلوب صبت الى الاتحاد ومال احدها للانضمام الى الاخر تؤلف عقداً باهراً من الكمال. والزواج الذي لاتقيِّدهُ هذه السلاسل الفضلى اعده خيانة ادبية. فالان كادلين ابنة الارل اوف ... لا اريد ان اكون خائنة في عيني نفسي......»

« هدئي روعك ادلين والا حسبتك عاصية »

« قلت لك في معرض كلامي السابق انني لا ارغب العصيان عليك اما اذا شئت تفسير كلامي على الصورة التي رايتها في ذاتك فزد على فعلك الذي انحط على قلبي الكسير كالجبال. ان تكذبني..»

قالت ادلين هذا وانسحبت من الغرفة بدون ان تنظر الى ما ورائها ثم صعدت الى غرفتها الخصوصية والقت بنفسها على فراشها تستجير بالدمع وما من مجير: وتنشد العيون ان تنصرها بسيل يخفف من احزانها وما من نصير: وتسال العواطف تفضلاً ان تحرّك وابل الدمع وهي تنكر عليها هذا الفضل فكان ناراً اشعلت القلب والفؤاد اندلعت منها السنة اللهيب الى اقنية الدموع فجففتها. وياحبذا لو ساعدتها الدموع لكانت فرجت بعض غمها ونفت بعض همها ولكن الدمع

خانتها . ويالسوء مصير من خانته الدمع آن الحاجة اليه فانه يتعرض لمصائب اشد هولاً . وانني ضارب صفحاً عن وصف حاساتها رحمة للقاري اذ اي مصاب اشد هولاً وتاثيرًا على الاسماع من وصف ياس فتاةٍ اوفتيً جملها الله باحسن الاخلاق والصفات والمحاسن ومن دا يتصدي للملامة ادلين على قنوطها وتعاظم اسفها وقد هدمت اسوار امالها وانحطت ابراج تصوراتها وامانيها الى حضيض الخيبة والفشل

فصل حادي عشر

وكم من فتيً قاده القلب الى فعل امور تذل الجبابرة عندها تقصيرًا
(لاحدهم)

بريطانيا كثيرها من البلدان تكثر فيها المداولة في الامور السامية التي يفعلها اربابها بعد حدوث تلك الامور بزمن قصير. ولا يعود البشر الى ذكرهـا معظمين الا بعد موت الفاعلين هذا اذا كانت تلك الاعمال عظيمة تستحق ان تحفظ في تاريخهم . وهذه امور طبيعية لايمكن مقاومتها فكم من شجاع او كاتب او شاعر او سياسيٍ فيها اتوا باعمال تحدث بها الناس وملأت الخافقين بعد وفاتهم وتناقلتها الافراد كآياتٍ للفخر ونبراس للفضل بعد انقضاء اجلهم وكانوا وهم احياء لا يقابلون الا بالحسد ولا ينظر اليهم الا بانوف شامخة . وما ذلك الا لان في الكون قوماً عديدين لايصدقون بوجود النبغة ولا يفقهون كنه اعمالهم وما سبب ذلك الا ضعف في عقول وادراك اولائك . فعوضاً عن ان تربي في قلوب اولائك النبغة حاسة الاقدام وتعزز مبانيها

تعارض ايّ معارضة وتصد بايدٍ من حديد ولا يعلم المقاومون انهم بمقاومتهم لا يزيدون ابناء الفضل الا فضلاً ورجال العزم والمبادي الا همةً . وهكذا كان نصيب فيكتور. فكما كان لهُ اصحاب يحدثون باعماله ويهتفون بانتصاراته لاخلاص في محبة وطنهم رغبةً في تقوية افراده المستعدين. كان لهُ ايضاً اعداءٌ يرغبون في اخماد ما كان يذاع من شجاعته بين اقرانه فيصغرون اعماله ويقللون من حوادث كرمه وشجاعته . ولا ارغب ان يظن القاري ان فيكتور كان محاطاً بالاعداء ولكن شان ابناء البشر ان يقاوموا من نجح فلذا يخيل لذلك المسكين الناجح انه محاط بالاعداء وان ابناء الكون جميعاً يرغبون في فنائه وحطته. ولكن لاي الاسباب المدنية او الادبية او الدينية يرغب البشر في اسقاط بعضهم وفي ذلك العمل تقليل من عدد المتمدنين وحطة في شان من يريد بلوغ الفضل . ولماذا يفرح زيد بسقوط عمرو؟ والدهر دولاب يغير احوال البشر فمن تقدم يوماً لا يجب عليه ان يامن الدهر في يوم اخر. فلماذا اذاً لا يغرس كلٌّ في قلب غيره عاطفة المحبة فتعود عليه ايام النكبات والاحزان بالتعزية: او لا يدري البشر انهم اذا رغبوا في اسقاط غيرهم ليرتفعوا هم شعر رجال الفضل بمساعيهم واقاموا العثرات الادبية في وجوههم: فلماذا لا يرغب الكل اذاً في المسالمة وصفاء القلوب حفظاً لما لهم من الصوالح فانهُ اذا كانت غايات الافراد حميدة فليسعَ البشر في تقدمهم فالكليات من الجزئيات وبتقدم الافراد تتقدم البلدان والا فليبشر من خالف هذه المبادىء بعواقل عاجلاً او آجلاً . اما فيكتور فكان ذا همة لا تعارضها السيوف ولا تقاومها عصيٌ من حديد :و بقولي هذا لا اعني انهُ كان متكبراً شامخ الانف يريد ان يقابله الناس بالخضوع. كلاً فانه كان لطيفاً مسامراً رقيقاً ليناً وبئس من فسر رقتهُ ولطفهُ بغير الحقيقة واني للان لم ادرك السبب الداعي لصمت

البريطان عن تعداد فضائله. ألغاية الحسد؟. او لان كبراء البريطان لايذكرون مثله الاوقت الدفاع عن بلادهم وحقوقهم؟ او لان الجرائد تكف عن ذكرهم ايام سكوتهم. فلذا يلزم مثل كبار الانكليز ان يذكروا باعمال رجال الفضل هذا اذا كان لهم غاية في النسيان ....

فصلٌ ثاني عشر

ولما التقينا والنقا موعدٌ لنا　　تعجب رائي الدر حسناً ولاقطه
فمن لؤلؤ تجلوهُ عند ابتسامها　　ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه .
(البحتري)

اطاعن خيلاً من فوارسها الدهرُ　　وحيداً وما قولي كذا ومعي الصبر
واشجع مني كل يوم سلامتي　　وما ثبتت الا وفي نفسها امر
(المتنبي)

مضت مدة طويلة بعد الحوادث التي ذكرت في الفصلين السابقين ولم يحدث فيها الا زيادة قروح في صدر كل من ادلين وفيكتور وقاربت سنة ـ ١٨ ان تنتهي دون حدوث ما يستحق الذكر الا اعمال فيكتور في تحصين نهر التامس عند «الكرايفيس اند»(١) فانها كانت وسيلة لاتساع نطاق شهرته بمتانة التحصين. وهكذا مرّت الايام الطوال بين حرقة فؤاد وتقرح جفن حتى اتت السنة المذكورة في اول هذا الفصل لما عين فيكتور في مهمة على شواطىء الدانيوب صرف فيها سنتين ورجع في نهايتهما الى وطنه ليتولى في مهمة اخرى عظيمة جداً لم يكُ مستعدا لها. ولما كانت بدرجة من الاهمية المتُ اليها ـ وغير خالية من الخطر آل على نفسه الا ان يرى ادلين

(١) Gravesend

قبل ذهابه لاتمام هذه المامورية ذات الشان

(وكان قد مضى عليه اكثر من خمس سنوات لم يرَ فيها ادلين وذلك لاتفاق عقد بينهما)

ففي احد ايام سنة ـ ١٨ الباردة كما فيه الثلج لندن مع ضواحيها بثوبٍ نقي كثيف خرج فيكتور من بيته واستدعى عربة ركبها فسارت به الى محطة « فيكتوريا » ومن هناك خرج بكل سرعة الى محل بيع التذاكر فقال للخادم بلهجة« درجة اولى »ـ «واحد رجوع»(١) ولكونه كان بهيئة تدل على سمو مقامه واهميته هرول الخادم الى النافذة وقال

« الى اي المحطات سيدي ؟ »

« آه نسيت ان اقول الى اين اعذرني ـ الى« تتن هل كايت»(٢)»

« حاضر سيدي »

قال هذا ثم حرك آلته بسرعة فختمت التذكرة باسم ذلك اليوم وتاريخه فاخذها فيكتور وسال الخادم الموكل بفحص التذاكر عن الطريق الى محطة « تتن هل كايت» (٣)

« هذه سيدي » (انظر لطف الخدمة)

فاسرع فيكتور الى المحطة المذكورة وما وصل اليها حتى دخلها القطار فنظر الى الدرجة الاولى فوجدها في الوسط فركب عربة وسار القطار فلما وصل الى المحطة ـ التي عرفها من وجود الاسم على المقاعد

---

(١) First return.

(٢) محل يسكنهُ الشرفاء·

(٣) في لندن وضاحيتها نيف واربعمائة محطة والكبيرة منها كمحطة فيكتوريا منقسمة الى اقسام عديدة يمرُّ في كل قسم منها قطارات تذهب الى ناحية من نواحيها ويمرُّ في هذه الاقسام قطار في كل دقيقة فاذا لم يسال المسافر عن محل سفره راى نفسهُ عند نهاية السفر يبعد اميالاً عديدة عن مكان قصده

والقناديل والجدران — فخرج من عربته واعطى قسماً من تذكرته وسار كالبرق الى خارج المحطة واستدعى عربة فقال للسائق

« الى « ستوك فيله — كمدن هل » حالاً »

« نعم سيدي »

وما وصل فيكتور الى المحل المذكور حتى دفع للسائق اجرته وهرع الى الباب فقرع الجرس الاول (١) ومرَّ الى بوابة البيت حيث كان الخادم قد اسرع ففتح الباب العمومي فقال « ارجوك سيدي ان تتبعني الى قاعة الاستقبال فالكونتاس تكون هنا بعد ثلاث دقائق »

فتوجه فيكتور الى قاعة الاستقبال وبقي ينتظر قدوم من وعد بلقائها بقلب خافق ويدين مرتجفتين وكان في الغرفة بعض الكتب فاخذ يقلبها بيد ترتعش غير ناظر الى كلمة واحدة فيها

اما الغرفة فكانت ذات نظام تام قد كسيت جدرانها بالورق المذهب المنقوش البارز وفيها رياش فاخر ثمين جداً وكان يتدلى على نافذة من النوافذ تشرف على قسم من الحديقة ستائر بديعة من الحرير الازرق وغيرها مكسوة بستائر من الحرير التبني المنقوش وكان يتدلى على الجدران صور ازيتية وحفرية وفوتوغرافية بعضها موضوع في براويز من الخشب المنقوش المتقن وبعضها موضوع في براويز من «البرونز» او الفضة النقية القديمة وكان الحائط مزداناً ايضاً بسيوف هندية ويابانية من الجزائر البعيدة بعضها من الفولاذ وبعضها من الفضة والذهب وكان في القاعة ايضاً خزائن مطعمة بشغل دقيق من بر الشام وبعض الزخارف كانت من

---

(١) للبيوت الكبيرة في لندن اسوار تكتنفها على ابوابها اجراس تقرع اولاً فتنبه الخدام لفتح باب البيت قبل وصول الزائر

الجزائر الشرقية والغربية والافريقية وفي الغرفة ايضاً تماثيل عديدة من البرونز واخرى من الفضة بعضها موضوع على اعمدة من المرمر وبعضها على الاعمدة الصينية صنع ڤينيسيا. اما مقاعدها وكراسيها فكانت مختلفة بعضها روسية وبعضها ايطاليانية والباقي صنع بريطانيا اما ارضها فكانت من الخشب المقطع يكسو بعضها جلود الفهود والاسود والنمور التي بها اقارب الكونتاس اثناء رحلاتهم للصيد في الشرق. اما القاعة فكانت تقسم الى قسمين بقواطع يسهل نقلها بضمها الى بعضها وكلها مغشاه بالقصب الذهبي من جزائر اليابان (١) اما مجلس ڤيكتور فكان على مقعد من الخشب المذهب بجانب النافذة المذكورة ولم يطل جلوسه هناك وهو يقلب كتباً على طاولة بجانبه (٢) حتى دخلت الكونتاس الى الغرفة وهي بالثياب الثمينة الرسمية اعني ان قبعتها وجبتها «الڤيز يت» كانتا باقيتين عليها

«آه فيكتور حصلت عليها بعد الجهد الجهيد لان الموانع كانت عديدة في هذا اليوم وهي الان في غرفتي تخلع قبعتها و«الڤيزيت» و«كفوفها». تركتها على هذه الصورة واتيت لاخبرك بواقعة الحال لتكون على بصيرة بامرك»

«وهل اخبرتها انها ستلقاني هنا. وهل مهدت الطريق حتى لاتوثر مقابلتي في صحتها؟»

---

(١) هذه القواطع وتدعى (Screens) ثمينة جداً علوها من ثلاثة الى اربعة اذرع وطولها من ستة الى عشرة اذرع تستعمل لقسم الغرف الى قسمين

(٢) كانت القاعة ملآنة من الطاولات منها ملآنة كتباً ومنها مشحونة زخارف لم يسعها الحائط وعلى بعضها الصناديق الفضية فيها انواع عديدة من الحلوى وهي عادة اوربية

« نعم فيكتور قد اتخذت الاحتياطات اللازمة ولكن ٠٠٠٠٠آه الاوفق ان لا اقول ٠٠ »

« ماذا تعنين استحلفك بما هو عزيزٌ لديك ان تقولي ؟ »

« آه فيكتور كانت ونحن على الطريق كصنم رخامي و يداها كالجليد وكانت لما تحاول التكلم ترتجف شفتاها كثيراً فحال وصولنا الغرفة نشقتها قليلاً من الروائح العطرية فراقت حالها . آه فيكتور هي لاتصدق انها ستجتمع معك في بيتٍ واحد ونفس تفكرها باللقآء ياخذ بمجامع عواطفها »

« آه : ادلين : ادلين : ياذات الكمال والجمال ماقسى الزمان عليك آه : ادلين . ادلين »

« هذه شجاعتك يافيكتور وانت بطل المعارك . تقوَّ فكل الحياة انواع بلايا »

قالت هذا وخرجت من الغرفة وهي تقول « ساتركما مدة ولكن لا اقدر ان اسمح لتلك المدة ان تطول زيادة عن الساعة لان على ادلين ان تذهب الى بيت ابيها قبل الساعة السابعة »

«حسن . فهاانا منتظر دقيقة الاجتماع »

والآن يعذرني القاري الكريم اذا صمتُّ عن وصف وتبيان حالة فيكتور وادلين قبل دقيقة الاجتماع لا اقول هذا مبادرة مني الى ايهام القاري ان حالتهما كانت اصعب مما هي حقيقة لا لعمري بل لانني اشعر الآن ذاتياً بصعوبة سلوك هذه الخطة في مثل هذه الفترة فان القلم قد خانني لما دعوته الى اتمام هذا الامر ومن اجل هذا سألت المعذرة

على انني اسال القاري المجرّب هجر ولقاء الاحباب بعد طول الغياب ان يذكر ما لمثل هذا المقام من التاثير وما لذلك الموقف الصعب من النتائج . وغير المجرّب ان يتصور بحدة عقله حالة محبين يقدر احدهما

الآخر بمثابة الارض والسمآء وقد تفرق شملها حيناً من الدهر او خمساً من السنوات صرفاها بين عذاب قلب وتعاظم كرب يقاسيان ما يقاسيه المحبون ومما يزيد فضلها و يعظم اجرهما ما يراه القاري في خلال الحوادث من صبرهما وعفتهما ومحافظتهما على الشهامة والاداب

« لا : لا : لا : لا . : اهذه انت يا ادلين ام طيفك؟ لا : اراني انظر الى طيفك . تقدمي الى هذا الصدر واتحدي بهذا القلب — آه : ادلين يخونني جناني ولا استطيع كلاماً »

قال هذا وضمها بين يديه و بين ذراعين لا يودان من العالم الا احاطة جسمها فانهما كانا قد اقتربا بعضهما من الآخر وهما لا يدريان كيف اقتربا خصوصاً ادلين لانها بالجهد حملتها ارجلها اليه حيث طرحت نفسها بين ذراعيه وجسمها يرتعش بغرابة كلية وكانت تهب تارةً فيصبغ وجهها بالحمرة وترجع طوراً فيعود لونها الى الاصفرار دون ان تبدي كلاماً اما فيكتور فعادت اليه قواه ونشاطه بصعوبة مركزه فهب من غفلته وقال

« آه : ادلين : يانور الحياة كيف يحق لي ان اضمك ولست لي آه . ادلين : ادلين . »

اما ادلين فلم تتمكن من الكلام البتة بل اظهرت تاثرها من كلامه بزيادة الضغط عليه وضم جسمها بزيادة اليه فعاد فيكتور الى عادته الاولى الحلمية فقرّب فمه من شفتيها وقبلها قبلة طال زمانها وهما لا ينطقان بكلمة واحدة فصارا كانهما جسدٌ واحد وكانت اذرعهما قيود من حديد تضم احدهما الى الآخر . وهنا يعذرني القاري المحبوب على الشرح الدقيق لان هذا المنظر سيبقى محفوراً على فوادي الى آخر ايامي ليس لانني عاينته بل لكوني سمعت شرحه وانا اكفكف الدموع تاثراً من فعل ذلك المنظر عليهما ولا يُظن انني ابالغ في الشرح بل لو تمكنت من لغةٍ اقوى لكنت اشرح كثيراً

وما طال وقوفهما على هذه الصورة حتى شعر فيكتور بسكون نبضها ورأى ان قد تحول لون وجهها الى اصفرار اشد فوجف قلبه وضمها بزيادة الى صدره فكان حرارته اعادت الى القلب حركته ففتحت عينيها ونظرت اليه نظرة الملاك ولكنها داومت الصمت فقال

« ادلين: ما بالك لا تخاطبينني بكلمة. وجهي اليَّ كلمة لاذكر نطقك ايام اسفاري وغربتي الست تعلمين انني ...»

« آه فيكتور . نعم اعلم :نعم اعلم :افدني ماذا اقول وباي لسانٍ اتكلم وانت لي من الدنيا الكلام والروح والنفس وكل مقتنيات الحياة اعزمتَ على الذهاب يافيكتور فتتركني اتعذب بلظى الشوق واتقلب على مقالي بعادٍ احرّ من الجمر . آه ما اقسى الزمان»

ولفظت هذه العبارة بصعوبة كلية وهي تحاول جمع ما بقي فيها من القوة . فلما انتهت منها عاودها الاصفرار فارتاع فيكتور من تغير لونها واجلسها على مقعدٍ من المخمل للجهة الثانية من الغرفة ولونها يزداد اصفرارًا ونبضها يخفق كثيرًا فتلبك فيكتور في امره وبعد اعمال الفكرة تذكر ان في الغرفة كوّة سرية تحوي على منعشات لمثل هذا المقام فوضع راس ادلين على ساعد المقعد المخملي وهرع نحو الكوّة ففتحها بخفة واخرج منها بعض المنشقات وقليلاً من البراندي (الكونياك) وما طال الحال حتى عاد لون ادلين اليها وقالت بكل رقة وحلاوة (قال لي احدهم وهو صديق حميم لفيكتور ان كلمات ادلين ما زال صداها يدوي في اذنيه الى آخر ايامه)

« فيكتور يامصدر حياتي . لاتخف فان الموت لايجسر على مهاجمتي وانا بين يديك فارجوك معذرةً على الضعف الذي اظهرته غير انك واسع الاطلاع وعارف باحوال جنسنا فتعذرنا . آه فيكتور انت تمخص التصورات وانت ينبوع اللذة »

قالت هذه الكلمات الاخيرة والقت بنفسها بين يديه فضمها الى صدره واخذ يقبلها تكرارًا وقلبها يخفق حذآء قلبه وشفتاه قد مستا شفتيها وعيناه تنظران في عينيها. ولم يطل هذا المنظر حتى تركها فيكتور على المقعد وانتصب على رجليه واخذ مركزًا كانه يريد قيادة فرقة من الجيش وقال

« ادلين انتِ والوطن محط امالي واليكِ والى الوطن اوجه انظاري فربما كانت هذه الساعة آخر مقابلاتنا واجتماعاتنا غير انني لا ارى بدًّا من الامل بلقاء آخر فالحياة طويلة وثقتنا بالله عظيمة فاصغي يامنى قلبي الى كلماتي هذه القليلة

قد مضى على اجتماعنا الاخير سنوات عديدة كان فيها الفؤادان يتعذبان والخاطران يشتغلان واقول لك والحق تعالى شاهد ان محبتك لم تزل ولن تزل الكنز الثمين الوحيد لحياتي يزداد اكرامها في كل يوم فصار يخيل لي ان عظامي كوّنت على اسس حبكِ اما الان وقد دعتني واجبات ضرورية للرحيل عن هذه الديار فمن العسر علي ان احتم بالرجوع او عدمه فاعلمي انني لكِ كيفما كانت الظروف وكيف دارت رحى الزمان سواء علتُ من مخاطري او لم اعد حييت بعدها او مت. وصدقي انني اذا حييت الف عام بقيت في اثنائها اسير حبك الطاهر ومراقب طيفك المقدس . . . . يصعب عليّ ياادلين ان تصرف الحياة كلها دون الاقتران بك ولكن اذا حسبت ان هذه ارادة المولى عزّ وجلّ فها اني اقدم نفسي على مذبح ارادته واتركك تحت عين عنايته فشجعيني ياذات الجمال والكمال للهجوم على المخاطر فانني والحمد لله متكلٌ على من لا يتكل الا عليه عاقد النية على الاقدام في خدمة الانسانية فلا تخافي سوءًا ولا تخشي بوءسًا »

« الى اين يافيكتور الى اين ؟ . . . وانت للروح رفيق وذكرك للفواد

نديم هلاَّ عدلتَ عن الذهاب وصممتَ على البقاء في دار تتنسم هواء اتنسمه ونتنشق نسيماً اعطره باسمك.....؟ لا اريد صدك عن طلب المعالي ولكن هلا تمكنت من خدمة الانسانية في بلادك التي احببتها كنفسك »

« نعم فاتنتي، يمكنني: ولكن دون ذلك اهوال فاحب اليَّ الذهاب الى حيث تبذل الارواح في خدمة الانسانية بين بشرٍ قلوبهم كالصخور الصماء ودماء الناس عندهم كالمياه »

« آه يافيكتور لا: لا: لا تذهب الى مثل هذه البلاد. قل لي ما اسمها؟

« اسم البلاد ياعزيزتي .... وانا اذهب الى قلبها احكم على.... حيث تباع النفوس بيع الحسائس. عسى اتمكن بعون الباري من ابطال تلك العوائد السيئة التي عمت سطوتها انحاء تلك البلاد ... .وقد طلب مني الخديوي الذهاب الى تلك الاصقاع وسمعت ان ولي العهد تكلم معه بشاني ولهذا تريني جازم بالذهاب »

« اذهب ساعدتك العناية الالهية وعساك تعود كما عدت من قبل مظفراً غانماً ترفل في اثواب الفخر. اما انا فساجهد النفس اناء الليل واطراف النهار والله لايخزي المتكلين عليه »

قالت هذا وعلى وجهها علامات خوف ظاهرة تخالطها دلائل الثقة. اما فيكتور وكان لم يزل واقفاً على حالته الاولى فبقي كما كان ثم ادخل يده في فتحة صدرته وعاود الخطاب

« آه: ادلين: ادلين: لا اود اظهار علامات الجبانة لكني اخشى ان تطول الايام كثيراً قبل ان نلتقي مرّة ثانية وللعناية شوؤون واحوال فدعينا نلقي اتكالنا عليها ونثق بها انها خير ملجا امين. اجل: انني ذاهب الى حيث يباع الانسان بيع السلع وانا رقيق لا اود الانفكاك من عقال هواكِ وسلاسل حبك فما احلى الارقاء في بعض الشوؤون وما اطيب الاصفاء

لحركة قيودهم »

« فيكتور اتضرع اليك تضرع الطفل ان تحول عن عزمك وان تعدل عن حكمك فاراني اذا حاولت تقويتك كبى بي جواد العزم وعدت عن ذلك وتاثير القلب ظاهر لا اراك قادرًا على صد مطالبه فان كنت لاتقدّر حياتك قدرها لشجاعةٍ انفتَ الاالمسير بموجبها فاصغَ لمن قدّر حياتك قدرًا ارفع من نجوم السماء واحبّ من المـآء عند اشتداد الظماء »

« حبذا لوكان بوسعي ان اتحول عن عزمي وحبذا لو تمكنت من المعيشة هنا موملاً جزاء تتوق اليه النفس وتحن اليه الجوارح غير اني . . . والان اظن ان وقتنا قد فرغ وربما كانت هذه آخر فرصة تمكنت فيها من التمتع بمشاهدتك فخذي الروح اضعها بين يديك وتسلمي النفس رهينة امرك بين انامك وعسى ان القوة الالهية لاتحرمنا اجتماعًا آخر . ادلين . . . يافوادي . . . . اودعك الآن وداعًا لا ادري ان كان يعقبه لقاء . وداعًا تكاد تفارق النفس منه الجسد تاثرًا وانفعالاً والان تقدمي مرّة اخرى واقربي من قلبٍ يحن الى استماع دقات قلبك والى ذراعين سيحار بان الكون وقدرته الذاتية في سبيل نوالك »

اما ادلين فلم تقل شيئًا بل اخذت خاتمًا من احد اناملها ووضعته في خنصره وقالت .

« اذكرني كلما نظرتَ هذه الدائرة التي لابداية لها ولانهاية على حد قول الشاعر

محبتي لاتنتهي لعلةٍ تبطلها
كانهـا دائرة آخرها اولهـا

« اما انتَ فذكركَ حذاء فوادي احلم بك ليلاً وافتخر باعمالكَ نهارًا غير اني قبل الفراق اودّ خصلة من شعركَ حتى اذا متُّ آن غيابك متّ

ومعي شيءٌ من اثرك الكريم»

فاعطاها فيكتور مطلوبها وهي تذرف دمعاً غزيراً ثم ضمَّ احدهما الآخر وذهلا عن كل شيء نحواً من عشر دقائق ولم ينتبها بعدها الا وقد دخلت الكونتاس اليهما فانفصلا وقبل ان ينطق احد الثلاث كلمة واحدة ودّع فيكتور السيدتين بسرعة عجيبة وخرج من الغرفة بدون ان يعطي فرصة لاحدهما للكلام

فصلٌ ثالث عشر

يذلل اعناق الرجال بباسهِ ... واعناق طلاّب الندى بالعواصل
فما انقبضت كفاه الا لصارمٍ ... ولا انبسطت كفاهُ الا لنائل
(للاحنف)

يعجب الناس من تنقلي الفجائي من بلاد وفر تمدنها وسادت عليها يد العزة والفخر ودارت فيها الامور السياسية والمدنية كتقرب ساعة بديعة الاتقان الى بلاد يبعث فيها النفوس بيع الحطب والى بقعة من الارض تقاطر اليها التجار لبيع الناس واخضاع ابن آدم بطريقة غير حسنة . فقد سبق ذكر بعض الشذرات التاريخية عن السودان القديمة لغاية استعفاء صموئيل باكر المعروف بباكر باشا والان اوجه انظار القاري الى حاكم آخر عقبه . لا اقصد ان آتي على تاريخ مطوّل لاعماله وتفصيل دقيق لحركاته فلذلك كتب طويلة . ولست احب ان آتي على ذكر ما قاسى في الغاء بيع الرقيق والحروب التي اشهرها وهو في السودان والاسفار الطويلة التي سافرها على ظهور الهجن فزادت على الالوف . ولا آتي على ذكر كل حسناته التي جاد بها وهو في تلك الارض والعطايا التي بذلها بين الناس على اختلاف الاجناس . ولا اتوخى ذكر تفصيل اهمية السطوة التي نالها اثناء توليه السودان . ولا اذكر عفة نفسهِ

خصوصاً في رفضه عشرات الالوف من الدنانير وقبوله القليل منها ولا اتصدى لذكر فلسفة بيع الرقيق والتجارة في محصولات السودان في ذلك الزمان ولا اتي على تفصيل اعمال الحكومة وشكرها من سياسته ولا اذكر الاصلاحات التي اجراها في المدن المهمة في السودان. بل اقول ملخصاً ان سطوته امتدت الى الوف من الاميال وكان دارساً خبيراً باحوال السودان من حدود كردوفان والحبشة جنوباً والى حدود البحر الاحمر شرقاً ومصر شمالاً والنيل غرباً. وكانت كل حركاته مقرونة بفلاح وعزم لا تقاومها السيوف ولا تردعها اسد الشرى وكم قد خاضت بذكر اعماله الجرائد واستحسن سياسته رجال السياسة حتى سنة ــ ١٨ وفي غضون هذه المدة سكنت اكثر حركات العصيان والنخاسة كل السكون وبعد ان صرف مدة في السودان رجع الى بلاده سنة ــ ١٨

فصلٌ رابع عشر

وكم من شذرات تحسب قليلة الاهمية آلت الى جمع حقائق متفرقة

(الاحدم)

«ستوك فيله كمدن هل. لندن سنة ــ١٨ كانون الاول

« وصل فيكتور اليوم بعد سفر طويل وسيذهب سائحاً الى جنوبي افريقيا على وجه السرعة ومنها الى فلسطين ولا اعلم وقت رجوعه: لقد بكي بكاء الطفل عند المقابلة وندب حظه ياساً لاستحالة روءياكِ. وعدني انه يحرّر لي كل اسبوعين و بودي ان لا اقطع اخباره عنكِ. اخبريني عما جدّ بينك و بين الفيكونت درمسدايل؟ وهل لم يزل مصراً

على مضايقتك ؟ وفي الختام تأكدي محبة صديقتك المخلصة

« سيسيليا »

في كل صقع من اصقاع الدنيا افرادٌ لاتؤثر فيهم الاقوال ولا ينجع فيهم صد هذا ولا جفا ذاك ولكل اصدقاء ومعارف على هذه الصورة يذهبون بالصبر و يفرغون جعبته: اما الفيكونت درسدايل فكان آفة مهلكة لادلين زاد في سقمها وعظم من همها لانه علم بحبها فيكتور و برفض والدها اياه . فاغتنم الفرصة وطلبها منه فقبله بشرط قبول ادلين فاخبره الفيكونت بنفورها واتفقا على المزاولة في سبيل نوال رضاها عنه فاوقعها في شقاء دائم لان الفيكونت المذكور كان يتبعها حيثما ذهبت و يعيد عليها السوال كلما سنحت له الفرصة حتى بلاها بعذاب لايطاق ومن لايشعر معها وقلبها مقيد بقيود لاتفصم الى ذاك البطل المغوار والفارس المقدام

بورتلاند ،لايس لندن ـ كانون الاول سنة ـ١٨

« عزيزتي سيسيليا

« لا اقول لك عن تاثير الخبر بي . فمنذ وصول كتابك الفت « الفراش اطلب السلوى فيه حيث ابعد عن اثقال الزمان التي صارت « نكباته حملاً ثقيلاً عليّ لا استطيع الثبوت تحته . حبذا لو مرّ فيكتور « من مكان ما لاراهُ فابرد لظى الفؤاد بتلك النظرة . غير انني اثق انه « لا يقدم الا على ما في فعله الخير . لعله يظن ان في عدم رؤية احدنا « الاخر خير للاثنين . ضعفي العمومي يزداد كل يوم و يزيده الفيكونت « معذبي . وما يزيد بلواي انه انيس والدي يدعوه مرة في كل اسبوع « ليتناول الطعام بدعوى انه من حزبه السياسي لينقل افكاره الى « محافل السياسة اما المرة الماضية فتمارضتُ واستعفيت من الحضور : « كاتبيني كلما وردت لك اخبار جديدة واكثري من ذكر اعمال فيكتور

«المحبوب . تصلني اخباره العمومية مع الجرائد كل يوم ولكنني اتوق
«الى استماع اخباره الخصوصية فتكرمي عليَّ بها واروي غليل الفواد وفي
«الختام لك الف تحية من محبتك الى الابد

« ادلين »

وورد التحرير الآتي من فيكتور الى شقيقته بعد تاريخ التحريرين السابقين بنحو سنة ونصف

«عن اورشليم سنة — ١٨ الى لندن

«عزيزتي او....

«سمت نفسي منذ غضاضة الاهاب ولطافة الشباب وراء كتاب الله ودبَّ في فوادي منذ نعومة اظفاري حب للارض المقدسة لا يعادله حب . وصلت من افريقيا الى هذه الديار وقدمنا يافا وهي مدينة قذرة صغيرة اسواقها ملآنة من الاوساخ وارضها مكسوة بالغبار يكاد الناظر اليها ان لا يصدق انها كانت مينا الملك سليمان واختام مدن الفينيقيين . ذهبت الى كثير من المدن القديمة وكلها خراب ليس فيها ما يستحق الذكر الا بعض الآثار الحديثة وكل الامور التي نسمع بذكرها ليس فيها منها شيء . اما اورشليم فمكان اذكره والقلب يخفق لان ما يحيطها من الجبال والقرى يذكرني بكتاب احبه الحب القلبي التام . لم يزل الكتاب هديتك رفيقي وانيسي . سأذهب مرَّة ثانية الى السودان لان الحكومة تستدعيني وربما تسمعون عن المتاعب التي حصلت في مصر والاسكندرية وغيرها . صحتي جيدة جدًّا والطقس كذلك السلام من اخيك ومحبك الى الابد»

«فيكتور»

عن الاسكندرية الى بيروت سنة — ١٨

«سيدي الفاضل الدكتور ....

«طالما سمعنا عن الاشغال القديدةفي مصروعن المراكز الخالية فيها ولكن بعض المتاعب العرابية والاحوال الشهيرة التي جرت فيها خففت الاشغال وسكنت حركة الاعمال اماالاسكندريةفينعق فيها البوم وتذيب حالتها الفواد حزناً. ساذهب الى مصربقصد انهاء الدروس الطبية والا سعيت وراء ما فيه الفائدة. ارجوك ان تفيدني عن احوال بيروت وتعلمني بالمسائل الخصوصية التي تهمني فيها - ارجوك اهداء تحياتي للجميع وصدق انني صرت اريد البعدعن الوطن بعد حادثة افلين. هل انهمك بعض الاعداء في بيروت باتمام غاياتهم اذ علموا بما حدث؟ ولكنني فتى مملوء من النشاط الطبيعي والحب عندي اول كل الامور . ابقِ التحرير الواصل طيه عندك حتى تسمع بوفاتي او اعود فاطلبه ولكن اذا قدر ولم ارجع فاطلع على التحرير من شئت . من محبك الى الابد

« كريم معلوف »

مصر القاهرة سنة ــ١٨ الى بيروت

« عزيزي الدكتور ....

«بلغت القاهرة مذ بضعة ايام و بعد الفحص الدقيق غلبت الصعوبات على الفكر بانهاء الدروس الطبية. ولكنني وجدت عملاً اخر وهو التحرير في جريدة حديثة العهد ربما كان مركزي فيها مساعدة المحرر الاول السلام من محبك» « كريم »

عن بيروت الى القاهرة سنة ــ١٨

« عزيزي كريم

«لا يسعني الوقت ان اشرح لك احوال البلدة فكلها يانعة في اعين الحساد واكثر اهلها يكرهون طلاب التقدم ويشتمون كل ساعٍ وراء اسباب معيشته . يكرهون من نبغ ولو كان اميرا و يقذفون بمن يطمح الى العلياء ولو كان ابنهم . بعد ذهابك وفوزك كثرت اصحابك ولكن

وسع المجال لاعدائك فطاولوا عليك واشاعوا اموراً عديدة عنك مصدرها الحسد واصلها البغض. اولا تعلم ان اهل البلاد اذا ابصروا من احدهم تقدماً انقلبوا يبحثون عن عيب يجدونه فيه فيزيدون بما يخترعونه ذاك العيب المختلق اضعافاً وما فتئوا يرشقون من هم لهم يحسدون « بسهام تشق القلوب قبل الصدور » اولا تعلم ان اصل هذا الجهل والا فلماذا لا يتبصر القوم في اقوالهم وافعالهم حتى النهاية فكم من فتىً اوفتاة يظلمان ويقدح بهما وكلٌّ منهما يسعى وراء النجاح ويكب على الفضيلة والتقدم. ويسوءني ان اخبرك ان سبب كل هذه الاشاعات اديب كرمه فاراني به يهوى افلين ورغبةً في الفوز بنوالها يطعن بك ظناً منه انه ينال رضاها وقد سمعته يقذف بك في حضرتها لغير داعٍ ولم يدافع عنك احد رداً لمطاعن ذاك الحسود وتكذيباً لاقواله مع انك كنت تدافع عن كل مظلوم وتاخذ بيد كل حزين فالذين كنت تبكي لمصابهم صاروا يرقصون طرباً اذ ظنوا انك تسقط بيارحتك الوطن فيربحون اما اديب فعوضاً عن المناظرة الادبية المشكورة وعوضاً عن ان يقوم باعمال محمودة مذكورة يناظرك بغير تلك الواسطة ويصرف معظم جهده في القذف بك وهو بذلك يسقط نفسه في عيني من عرف الحق واتصف بالامانة .ولكن بلادنا كثيرها ينسى فيها الفضلاء وارباب الفضل بغتةً ويفرح السواد الاعظم بسقوط غيرهم غير انني اعلم حق العلم انك لاتخشى لومة لائم ولا تهاب تونيب مونب فثابر على سلوكك الحسن وابق ساعياً سعيك المشكور لعل الطبيعة تنيلك ما تشاء

الغريب ان اديب ظنَّ انك محب افلين وهو يصنع هذا فكيف لو علم بما قاسيت من اجلها. لاتدع اقوالي هذه ان تضعف عزمك بل اكد انني لا اخفي عنك كلمة مما يقال بشانك لتعلم من هم اصدقائك في هذه البلاد. اي وحرمة المحبة ايها الكريم انني سادافع عنك ما بقيت فيَّ روح

وابقى مدى الدهر محبك المخلص»

« الدكتور»

ربما تعجب قرّاء روايتي من وفرة التحارير في هذا الفصل فاقول انني نشرتها لديهم كما وصلتني وعلى الهيئة التي بلغتني فيطلعون منها على الاخبار المختلفة والحوادث الجمة والتقلبات العديدة ومن ثم يحكمون بانفسهم عما يرونه فيها

اما انا — واشهد على رؤوس الملا شهادة الحق وانطق بالصدق ان حبي لوطني عظيم جداً — فابدي رايي الخاص بشانها وذلك انني من راي حضرة الدكتور كما ذكر في تحريره السابق لانني تقدمتُ سنا فعركتُ الدهر وبلوتُ منه تجربة عظمى وقد كلل الشيب مفرقي فسقياً لريعان الشباب ومرحباً بوقار المشيب

والشيب للحلماء من سفه الصبي — بدلٌ تكون له الفضيلة مقنعُ
ان الشباب لهُ لذاذة جدة — والشيب منه في المغبة انفعُ
لا يبعد الله الشباب ومرحباً — بالشيب حين يرى اليه المرجعُ

ولا غروَ اذا عدلتُ الى تزكية شهادة الدكتور بعد ان لاقيت في السنين الطوال التي مرّت عليّ ما يبرهن لي صدق مقاله في تحريره

ولديّ تحرير اخر وهو الاخير في روايتي اوجه الانظار الى التدقيق في مطالعته وهذه صورته.

«عن بيروت الى الاستانة العلية سنة ــ ١٨

«عزيزي الخليل لا عدمته

«اعجب لهيئة افكار اهل بلادنا واقوالهم . فليس في البلدة اليوم الا ذكر مصاب العائلة الفاضلة . . . . المادي والادبي الامرين اللذين يظهر انهما السبب في موت رئيسها اما الاصحاب فقد استولى عليهم حزن مبرح لهذا المصاب الفادح اعني به الوهم بسقوط هذه العائلة الكريمة وكل من تستعر

في فواده نيران محبة وطنه يوءمل نهضة ثانية لافراد تلك العائلة غير ان اهل البلاد يتنباون بالخراب . فبحث المكارم . فعوضاً عن تنشيط افراد هذه العائلة الكريمة نرى القوم يبشرونهم بالسقوط وهذا امر يجلب الخراب من بعيد فعارٌ على البلاد ان لا تنشط اولئك الافراد ليسعوا وراء نجاحهم الشخصي و بهذا السعي يعودون على البلاد بالفوائد الجمة جزاءً لما قوبلوا به من التنشيط ولكن بدلاً من هذا نرى القوم يزيدون المصائب الخارجية و يعظمون في الويل المحيط حتى خيل للعموم الدمار وهذا مضر في اسم ذلك البيت السامي وعثر في سبيل بقاء امتداد شهرته فتظهر عليه دلائل للدمار .

ليس هذا فقط بل كنت اذكر لك مراراً عديدة عن صديقي الحميم كريم وعن امل اصدقائه بنجاحه ولكن بعد ذهابه الى مكان يعارك فيه مصائب الايام حيثما يعرض نفسه فتتهدده مخالب الموت انبرى عليه حساده خصوصاً اديب ونجيب ولط . . . وغيرهم وصاروا يسلقوه بالسنة حداد اما صديقنا فصابر على امره لايعبأ بما يقال فيه اوعنه يزيد من سعيه وراء التقدم والفلاح علماً منه ان القوم يصدقون فيما يختلفون . فلو علم هولاء الحساد ان افعالهم تخدمه لزيادة همته وعزمه ولترفعه عنهم بمنازل لسدوا افواههم وردوا كيدهم في نحرهم ولم يفتحوا على ذواتهم ابواب لوم العقلاء الفضلاء وعرضوا انفسهم لضحك اصدقاء الكريم وهو يشق عباب المخاطر و يعلو مناصب الخطباء والمنابر اما انا فاعشقه وله في قلبي منزلة عظمى ولكنه حزين لخسارته امرين خصوصاً وقد ذكرت له انها بالجهد تذكر اسمه بعد ذهابه فخف عليه الامر وحقه ان يحزن فحبه لها فاق كل حب . اخبرني عن دروسك وعن اصول الاستعداد عندكم . حضرت امس مرقص بيت . . . وكان هناك عدد من السيدات ولكن اهل الدكتور . . . لم يحضروا لسبب تعلمه في حينه اقبل تحياتي وتحيات الجميع هنا ودم لمحبك المخلص

«الدكتور»

القسم الثالث

الكتاب الاول

فصلٌ اوّل

لقد غمزوا مع العيدان عودي ليختبروا الصحيح من المريب
فلان الخروع الخوّار منا وبان تكرم النبع الصليب
(لاحدهم)

بشر من امتاز بالشجاعة الادبية والصبر على الكوارث بحاجٍ حاجل كيفما وجهت ركابه
(لبعضهم)

" لا وعزة النفس انني لا ارهب السيوف ولا تخيفني الاسنة فالنفس لديَّ ارخص من الهباء المنثور والروح اقل ثمناً من الهواء المنشور ولو بذلت النفس في سبيل العلاء لكان الامر سهلاً لدي فانني اذا عدت الى بلادي اعود لاقاسي ذل الحب وجور العباد فاشرف عندي ان تتلاشى نسمات وجودي تحت ظل القسطل من ان اعيد عنان الجواد الى ربوع صدَّني فيها قمري : ما قولك ايها الامين في حالة المعسكر وماذا اخبرك سليم عن بقية الاخوان ؟ "

"دع عنك يا كريم حالة المعسكر فوالله كدنا نهلك ظماً والدليل يسير بنا في قفار ليس فيها للانس اثر . اما من جهة باقي الاخوان فقد لاقيت بعضهم اليوم في . . . . وكان منهم من يشكو الجوع ومنهم من يشكو العرى والبعض الاخر الظما ولقيتهم يئنون من تعب المشي . وقد قال لي حبيب انه ترك بدون ناقته ما يزيد عن المائتي ميل فخارت قواه وانهد

عزمه ولو رايته في ثيابه السوداء القذرة ولحيته الطويلة وجزمته اللاصقة بجلده لبكيت حزنًا عليه . اما صديقنا . . . فيشكو من الضابط « برون » انه تهدده بالقتل اذ رفض ان يبتاع له قليلاً من اللبن والبيض كانه خادم بيته ؛ فما بالك تحرضنا على الموت في سبيل العلاء فاين نحن من العلاء واين العلاء منا ونحن تارة نهدد بالقتل واخرى بالشنق وغيرها بالموت جوعًا فدعنا من ذكر هذه الاحاديث الحماسية العالية ودعنا من الموت »

« اتخشى الموت اذًا يا امين ؟ »

« لا اخشى الموت ولكن دعني من التفكر به وانا لم ازل شابًا اود الرجوع الى وطني التي لي فيه عروسًا »

« قبحك الله ما اكثر جهلك . لاتزال تذكر النساء والعرائس وانت تحت حد السيوف وفي كل ساعة تكون عرضة لسهام الاعداء ورصاصهم فتهذب واستعد »

« قبح الله الاستعداد والتوبة فدعنا ــ اذا كان لابد من الموت ــ ان نقضي فرحين من ان نموت والصدور ضيقة والقلوب متعبة ؛ ولكن آه يا كريم ؛ من هي تلك السوداء اخت اسير الامس ؟ فوالله ان فوادي يحن اليها كانها ملكة . ان عيني لم ترَ مثل جمالها البارع وحسن قدها وكمال تقاطيع وجهها فوالله لو رضيت لتزوجت بها وتركت كل بيضاء »

« ما اجهلك يا امين الم ترَ كيف لم يؤثر بها كلام القواد فكانت تصد الطلاب بوجه مملوء من الهيبة والوقار : او لا تعلم انها عربية الاصل يجري في عروقها الدم الشريف ؟ فقد قال لي القبطان طربوش ان اكبر سيدة في بلاده تحسدها على مجد حركتها وهيبة قدها وحقق لي انها لو تزوجته لسعى في مبايعة اهلها في الحال اتظن انت انها تقبلك وانت صورة القباحة وآية للغلاظة : قم قبحك الله واغلِ لنا قليلاً من الشاي فذلك اوفر فائدة لنا من هذه الامور »

« والله ما غليت لك شاياً ولا جلبت لك طعاماً ولو مت من الجوع الا اذا وعدتني بنز ويجي حين الرجوع الى البلاد »

«هب وعدتك بما تشاء ؟»

وبينما هما يتحادثان داخل مضربهما دخل عليهما فتىً ملثم الوجه يعلوه الغبار والاقذار فتاملا به قليلاً ثم صرخا سويةً

« اهلاً بك يايوسف »

« من اتى بك الى هنا وكيف وصلت ؟ وماذا فعلت ؟ قصّ علينا خبرك »

« آه اين الموت فاطلبه واين القبر فاسعى اليه فقد ساقني الظالمون اميالاً على اقدامي اقاسي العذاب الاليم والحر يذيب جسمي بعد مخاطرات عديدة في الشلالات كدت اموت منها »

« كيف ولماذا ظلمك الضباط هكذا ؟»

« لست ادري غير ان القواد ظلموني وكانوا يقولون انه يجب عليهم معاملتي بقساوة لانني انال من الدراهم ما ينالون وليس عليّ من المسؤلية ما يذكر»

فقال امين «جازاهم الله على شر اعمالهم»

فاجاب كريم «حسن ولكن اين تركت فلاناً وفلاناً وفلاناً ؟»

« تركتهم يقامرون في مدينة .. لايعن على بالهم امر »

وبينما هم يتحادثون مرّ قرب مضربهم قائد فناداهم ليقودوا حصانه ويعقلوه قائلاً « هلاو (١) ياتراجمة خذوا هذا الحصان قودوه وخلوا عنكم الكسل : »

فلم يجبه احد منهم وزاد قلقهم من غلاظة حديثه فتقدم الى باب المضرب قائلاً

(١) كلمة كثيرة الاستعمال في الانكليزية للتنبيه مع عدم الاكتراث

« يو بلدي انتار پرترس (١) اما سمعتم امري ؟ » .

« نعم ايها القبطان سمعنا ولكن اعلم اننا في مقام تراجمة ولسنا في مقام خدمة واذا كان بيننا من يخضع لاوامرك الاستبدادية فاعلم اننا سوريون عثمانيون يجري في عروقنا الدم السوري فلانخضع بغير الحق لنفس بشرية ولو نزلت من السماء ! »

فصرخ امين و يوسف بصوت واحد « برافو » « برافو » كريم فبمثلك يرجى تشييد اركان عز مواطنيك .

اما القبطان الاحمر الوجه فاخذ يرفس الارض رفس ال ٠٠٠ وهو يتمتم و يدمدم وما سكن هياجه قليلاً حتى اقترب من كريم يريد لطمه ففاجاه كريم بلطمة القته على قفاه . و بينما هما على هذه الحالة مرَّ بهما صديق لكريم وقائد مشهور فرأى القبطان على الحالة المذكورة فاخذ يضحك خصوصاً لما رأى كريماً واقفاً بجانب المعركة كانه لم يحدث شيء مهم . فنهض القائد المغلوب من مركزه وهو يزداد هياجاً و يتهدد كريماً بالمجازاة العسكرية الصارمة قائلاً « ايها الكلب الشرقي سترى كيف تجازى على لطمك قائداً انكليزياً شريفاً : » زه ، زه !

فاجابه كريم برصانة « اذهب والا رميتك كعباً على راس افلا يكفيك التعثر باذيال الذل مرّة واحدة » فتداخل القائد بينهما وسالهما عن سبب المشاجرة فاطلعاه على الحقيقة فلام القبطان لوماً عنيفاً على معاملته السيئة واستبداده . فقال القبطان

« والله قبل ان ينتهي هذا النهار عقدت مجلساً عسكرياً و بينت لم قحة هذا السوري واظهرت له ان من هان شريفاً قتل بالرصاص شر قتلة »

فاغتاظ القائد صديق كريم من هذه العبارات المشحونة بالكبرياء

(1) You bloody interpreters وهي شتيمة انكليزية خبير بها من عاشر عساكرهم

فقال للقبطان

« انت الوقح وانت المعتدي واذا شكوته الى لجنة عسكرية شهد عليك رفيقاه بالتعدي وسوء المعاملة وزكيت انا شهادتهما في الحال فعد عن جهلك وارعو والا دارت الدائرة عليك . ثم تقدم لاصلحك مع كريم فهو شاب امين مقدام وللجيش فيه ثقة عظيمة لا تقدر : »

فاقتنع القبطان من حديث قائده وصالح كريمًا وافترقا فقال كريم لرفيقيه

« ان هذه المعاملة ناتجة عن جهل بعض التراجمة الذين يخدمون هولاء القواد بكل دناءة اما السوري العثماني الحقيقي فلا يخضع لمثل هذه الامور . فلنصبر الى ان يمن الله علينا بالفرج »

فصلٌ ثانٍ

لايونسنك من تفرّج كربةٍ خطبٌ رماك به الزمان الانكد
كم من عليلٍ قد تخطاهُ الردى فنجا ومات طبيبة والعوّدُ
(علي بن الجهم)

بينما كان الاصحاب الثلاثة يقصون على بعضهم ما يقاسون من ظلم القواد وما يلاقون من حرّ يذيب الاحشاء وجوع يتعب وظماء يذهب الرشد ، وبينما كانوا يتبادلون عبارات التعزية كلٌ يخبر صديقه عما شاهد من شجاعة السودانيين وبسالة العربان وبطشهم وعدم خوفهم الموت ، وبينما كان آخرون ينظمون القصائد الغراء في جمال النيل

ويصفون ضفتيه البديعتين بالاشعار الرقيقة ؛ وبينما كان بعضهم من تراجمة وقواد وغيرهم يقامرون في المدن السودانية والمصرية الجنوبية لاهين لاتهمهم الا الملذات والمسرات ؛ وبينما كان البعض الآخر مشتغلين ببيع الجنود الطعام يشددون عليهم ويزيدون في اسعار سلعهم ويضاعفون ؛ وبينما كان السواد الاعظم تحت خطر الموت يتهددهم رصاص العدو في كل ساعة . كان العالم المتمدن شاخصاً بكليته الى حركاتهم الحربية ومراسلو الجرائد الاوروبية وغيرها ينقلون الى البلدان العديدة ما يلاقون من الشدائد وما يقاسون . وكانت ايضاً سيدة مطروحة على فراشها في لندن قد بلاها السقم وفعل على فوادها البعاد يتهددها الالم بالسل ويحرم عينيها الرقاد ويبعد عنها الراحة . ففي احد الايام كانت تطالع جريدة انكليزية تقراها كل يوم للاطلاع على اخبار حبيبها فعثرت على هذه الفقرة

« المعارك السودانية »

« رسالة برقية خصوصية لمراسلنا الحربي الخصوصي »

« تقترب الجنود في كل يوم من الخرطوم وامل الوصول اليها عن »
« قريب شديد . تحدث مناوشات عديدة كل يوم بين عساكرنا »
« والسودانيين والعربان . والطليعة النيلية الان قرب مدينة .... اما »
« الاخرى فلست اعرف عنها شيئاً لان الاخبار بيننا وبين تلك الناحية »
« مقطوعة تماماً . ياتينا الجواسيس كل يوم ويخبروننا عن بقاء فيكتور »
« في قيد الحياة . وهذه آمال تزيد شجاعة العساكر والقواد للتقدم »
« الى الامام . صحة العساكر متوسطة والحر يزداد كل يوم . الحاجة الى »
« الماء تزيد عذابنا » انتهى

فلما انتهت الى اخر الرسالة برقت اسرتها قليلاً ونهضت من

فراشها فذهبت الى مكتبة ابيها تطالع بعض الكتب· ففرح اهل البيت لتقدمها في الصحة وزوال الخطر عنها وهم لايدرون لذلك سبباً· اما والدها الارل اوف ـ ··· فكان غائباً في البارلمانت (مجلس الاعيان) منهمكاً في مسالة مهمة اشغلت عقول الوزراء في ذلك الحين

فصلٌ ثالث

هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهلُ فما اختاره مضنىً به وله عقلُ
وعش خالياً فالحب راحته عناً واوله سقمٌ واخرهُ قتلُ
(للفارض)

« نعم ، نعم ، عزيزتي سيسيليا لم يزل فيكتور في قيد الحياة والامل بخلاصه قريب : آه سيسيليا افرحي معي : افرحي معي : »

« قرات هذا عزيزتي اليوم واتيتك انقل هذا الخبر المفرح فتنبي بالنجاح وبرجوع حبيبك فالله كريم· وقد سمعت ان رجال الاحزاب المحافظة سيضايقون الحكومة· واعلم عن ثقة انهم سيحرضونها على الزيادة في ارسال الذخائر والعساكر الى السودان حباً بانقاذ فيكتور وغيره من المشاهير ويسرني ان انقل اليك خبراً ما كنت انتظره· وذلك ان الفيكونت درسدايل مناظر فيكتور في حبك هو من المدافعين عنه فقد حركه الدم السكسوني وهيج من عواطفه الشريفة ما يعود عليه بالشرف· فخر الانسان بالمدافعة عن مناظره لأعظم من ذبه عن حقوق صاحبه فترين الفيكونت المذكور يلقي على مسامع اعضاء البارلمانت خطباً رنانة تاخذ بالبابهم وتهيج عواطفهم وقد علمت ان المئات من الالوف من ابناء الوطن يذرفون الدموع عندما يطالعون خطبه البليغة المؤثرة في الدفاع عن

حقوق ڤيكتور والطعن بسياسة الوزارة الحالية ولا بد اذا خاب امل عساكرنا في السودان من سقوط هذه الوزارة وذلك كله ينسب الى خطب الڤيكونت درسدايل فعليك بالسلوى عزيزتي ادلين ولا تسمحي ان يضعف عزمك وان تسقط همتك فعن قريب يعود اليكِ حبيبكِ مزداناً بعلامات النصر ومميزًا بآيات الفخر ولا بد اذ ذاك ان يسمح والدك بزفافكِ اليه لانه لابد عندها ان يرتفع الغشاء عن نظره فيعلم ان حبك له يفوق التصورات البشرية. كيف لا يسلم والدك بهذا الاقتران الشريف وقد عاد الد اعداء ڤيكتور (الڤيكونت درسدايل) يدافع عن حقوقه و يفتخر بشجاعته. والبلاد كلها ترقب اخباره بقلوب خافقة »

« آه ما اعذب كلامك عزيزتي سيسيليا فهو كالندى الرطيب يسقط على اذني فيبرد لظى الفؤاد المعذب بنار البعاد: آه ما اشرف الڤيكونت درسدايل جازاه الله فقد راى الآن فضل ڤيكتور وضرب صفحاً عن الغايات الشخصية وهكذا يجب على كل شريف والا فكيف يتميز عن الدني الساقط الهمة: »

و بينما هما يتحادثان وردت النسخة الثانية من جريدة مسائية كانت ترسل الى بيت الارل (١) فتناولتها ادلين بيد ترتجف واجالت نظرها في المكان المخصص للرسائل البرقية الحربية السودانية فرات هذه الرساله

« المعارك السودانية »

« لمراسلنا الخصوصي الساعة العاشرة ب ٠ظ٠ من المربع »

« نخشى هجوم العدو وننتظره في كل ساعة وتزداد حاجتنا الى الماء »

(١) في بريطانيا وغيرها من البلدان الاوربية (خصوصاً بريطانيا) عدة جرائد مسائية تخرج مرات كثيرة كل يوم اما ايام الحروب والحوادث السياسية المهمة فتصدر سبع او ثمان مرات كل يوم تنقل في النسخ الجديدة اخباراً جديدة ورسالات برقية متتابعة

« ولولا امانة «كريم» ترجمان المعسكر ومداواته الدليل السوداني الذي»
« يقودنا لكنا بلينا بنكبات عديدة »

« من المربع الساعة ١١ ب ٠ظ٠ قدم جاسوسان يقولان عن ثقة»
« بان خلاص فيكتور من المستحيل الا اذا شتتنا شمل الاعداء باسرع»
« زمان وزحفنا على الخرطوم عاجلاً »

« عن المربع الساعة ٣ بعد نصف الليل»

« قدم جاسوس آخر يفيد انه راى فيكتور بيد العدو و يقول انهم»
« يتهددونه بالاعدام. ربما قام المربع بمعركة هائلة تتهدده بشدة ٠»

قرات ادلين الى هنا وسقطت الجريدة من يدها فهرعت الكونتاس اليها وسندتها بيدها ولكن كان قد اغمي عليها فقرعت الجرس وهرع الخدام يسعون في طلب الطبيب وما غابوا طويلاً حتى عادوا به فاخذ ينشقها الادوية اللازمة فافاقت بعد ساعة وكانت النسخة الخامسة من تلك الجريدة قد وردت وفيها ما ياتي

«المعارك السودانية»

« لمراسلنا الخصوصي بجانب المربع الساعة ٥ بعد نصف الليل »

« سيؤخر الجنرال المعركة الى الساعة الواحدة غداً صباحاً لان الماء»
« قليل عندنا جداً. و يقول الدليل اننا اذا تقدمنا مسافة يوم قاربنا الماء»
«ومن الاخبار التي تصلنا دائماً ان اكثر السودانيين متجمعون على الماء»
« فاذا علم العساكر هذا وعرفوا انهم اذا جاهدوا في الحرب وفرقوا»
«السودانيين وصلوا الى الماء ابلوا البلاء الحسن في الحرب شان من ادركه»
« اليأس .الحر يزداد كثيراً »

« عن جانب المربع .الساعة السابعة بعد نصف الليل»

« قدم جاسوسان جديدان يقولان بامكان خلاص قوادنا واحدهم»

« يكذب خبر امس »

فهرعت الكونتاس الى ادلين واطلعتها على هذه الفقرة فعاودها الامل غير ان قوتها كانت ضعيفة بما لا يقدر. ثم نقلت ادلين الى فراشها الخصوصي وتفرّق الخدم يطلبون مهرة الاطباء للمشورة بشانها فاجتمع منهم عدد وتبادلوا الافكار فخرجوا من البيت وتركوا على وجوه والدي ادلين واصدقائها ملامح لاتدل على الرضى

« آه ميسيل عزيزتي ابقي انتِ وحدكِ عندي وليخرج الجميع من الغرفة :»

قالت ادلين هذا بصوت ضعيف جداً ودلائل الضعف ظاهرة فيها

« قد ذهب الكل حبيبتي فماذا ترغبين ؟ »

«ارجوك كتمان داعي انعكاس صحتي عن الجميع والا قطعوا عني اسباب الوصول الى ما يحدث لحبيبي :»

« لاتخشي بوءساً يامناي فقد تدبرت الامور اللازمة بهذا الشان ولا يحدث الا ما يعود عليكِ بالنفع :»

والحقيقة ان الارل والكونتاس والدي ادلين علما حقيقة خبر ادلين من الكونتاس صديقتها وذلك قبل التحذير الذي صدر من ادلين خصوصاً اذ كانا يلاحظان (خصوصاً والدتها)منذ امدٍ مديد انعكاس صحة ادلين ولما قدم الاطباء وتبادلوا مع والديها النظر بشانها قرروا وجوب منع اطلاع ادلين على الجرائد خشية حدوث امور منكرة وقالوا بلزوم منع الاخبار المحزنة اذا صودف فوردت : وكانوا قد حرضوا الارل والمرضات الموكلات بادلين على الاعتناء بها بالتدقيق خشية تاخر حركة القلب وبطلان عمله. وبعد الحادثة الاخيرة التي ذكرت بين ادلين والكونتاس وردت النسخة السادسة من الجريدة المسائية فهرعوا اليها وكان فيها ما ياتي

«الساعة ١١ ق . ظ عن المربع»

«قدم الجواسيس ومعهم اخبار تكاد تحتم بامكانية خلاص ڤيكتور»
«وقد شوهد عياناً بيد العدو وربما لم يقض عليه»

فهرولت الكونتاس الى صديقتها واطلعتها على هذه الفقرة فبرقت اسرتها وانتعش فوداها غير ان الضرر الذي حصل من الضربة الاخيرة لم يزل ظاهرًا على وجهها فلازمت الفراش وقلوب والديها واصحابها تقطر دماً حزناً عليها

«كيف انتِ الان عزيزتي ادلين اخبريني؟ قوّي ذاتكِ يافوادي:»

ويلاه ياعزيزتي سيسيل لقد تفاقم المصاب وعظم الخطر وصرت بينكم موجودة الى اجل محدود فيخيل لي ان روحي تكاد تفارقني في كل دقيقة وان حركة قلبي ابطأت وخالفت نظامها ثم انني لست اقوى على القيام بعمل ما فقوتي انحطت وذكر الموت يطوف حول مخيلتي. هو يتهددني وانا اترحب به. ادنو منه وهو يبتعد عني ولكنه لايغيب عن افكاري فكانه يروم عذابي قبل موتي ولعلهُ يبعد فيقوى الامل ان احيا. . . لا: لا: لاتصدقي ايتها العزيزة: ان ادلين التي تحبينها ستعود الى ماضي بهائها فانما المصاب قد جلّ ولا اشك ان رئتاي تفتتنا وحركات قلبي ضعفت ايضاً اما صدري وما يكنهُ من الاوجاع والالام فلا يعرفها عارف. والان ايتها العزيزة سيسيل اذا مت قبل ان يعود حبيبي فيكتور فلا تتأخري حال عودته الى هذه الديار ـ عندما اكون انا رهينة الفناء ـ ان تبلغيه عني الف تحية مسوقة اليه مع الف قبلة ينقلها لمقامه حبي الشديد وشوقي العظيم ثم متى قابلته اشرحي لديه شوقي وهيامي وبلغيه لواعج فواد عاش ومات لاهٍ بهواه رفيق غرامه واخبريه انني ما زلت حتى اخر دقيقة

اصبو الى استماع اخباره بقلب يفتخر باعماله لكنه يرتجف فرقاً للمخاطر المحدقة به فاتلقى الاخبار بانفاس متقطعة و ـ و ـ ٠٠٠

قالت ادلين هذا ثم اعياها الضعف فانقطعت عن الكلام وانطرحت على فراشها تذرف الدمع معها الكونتاس صديقتها المخلصة ثم قالت الكونتاس

« كفكفي الدمع وكفي عن البكاء فان الدهر كله مصائب والبسيطة بما عليها مجموعة تقلبات ومتاعب فمن كان اليوم في نعيم لا يامن ان يكون غداً في شقاء فعليك بالتسلي انك حديثة السن. افتخشين ضعف قوتك وانتِ في شرخ الشباب؟»

ها قد جاءت خادمة غرفتك مع الممرضة فتناولي ما تريدين تناوله

فصلٌ رابع

شر البلاد مكان لاصديق به　　وشر ما يكسب الانسانُ ما يصم

(المتنبي)

واجرأُ من رايت بظهر غيبٍ　　على عيب الرجال ذوي العيوب

(الصادق)

يعيب المرء الكذب والاختلاس والحكم في امور غيره بدون تبصر　(لذاك)

« سيدتي افلين اديب افندي كرمه في غرفة الجلوس (الصالون) واسيادي ليسوا في البيت. فهل ترغبين مقابلته ؟ »

« نعم ساره قولي له انني قادمة »

« اسعد الله صباحكِ سيدتي افلين رايت ان اسيادي اخوتك خارج البيت فتجاسرت على زيارة حضرتك فاعوض ما خسرته من رؤية

اسيادي اصحاب البيت: كيف سيدتي والدتك؟ »

« اشكرك سيدي على السؤال والاستخصاص عن العائلة فهي في غاية الانشراح وقد ذهبت والدتي تزور عائلة انيس افندي : »

« افلين : سيدتي افلين: قد علمت قبل وصولي الى البيت بغياب افراده فاغتنمت هذه الفرصة حباً بمشاهدتك على انفراد رغبةً في اظهار امور كتمتها في فؤادي منذ سنين : »

قال اديب هذا وهو يرتجف وعلامات النصربادية على محياه لان افلين لم تصده عن حديثه فتوهم منها الرضا بمناله والقبول بزيارته . اما افلين فلم تجب على حديثه بل حافظت على الصمت التام

« نعم سيدتي افلين لقد احييت الليالي الطوال احدس في ذاك الامر وقد كتمته عن كل بشر وسترته عن كل انسان : »

« اعذرني سيدي اديب افندي اذا الححت طالبة كشف هذا المكتوم فقد توقدت في قلبي رغبة شديدة للوقوف على هذا السر فشنف الاذان بحديثك : »

« آه افلين : سيدتي : مناي : عزيزتي : » قال هذا وهمَّ بقبض يدها فنفرت منه كالظبي الشرود يمنعها الغيظ عن معارضته في حديثه .

« انت موضوع تاملاتي : انت الشخص الوحيد الذي الهاني عن اعمالي: انت الملاك الطاهر الذي صرف عن فوادي الهم وهو يزورني في الاحلام: فرقي لمضنىً لا يود سواكِ ولا يرغب من الدنيا الاكِ : »

« كفى سيدي اديب فحديثك مبهم الموضوع ولكنه مفهوم لديَّ فثق انك اذا اقتصرت على هذا الحديث واكتفيت وذهبت بسلام عفوتك من الاصغاء لجواب ارى المقام يستدعيه . اما من جهة حبك لهذه الداعية فاشكرك عليه مزيد الشكر خصوصاً وقد احببت من لاترى نفسها كفوءاً لمحبتك : »

« لا ، لا ، سيدتي افلين لا تقطعي آمالاً طمح بها الفؤاد ولا تتركيني بدون رجاء . اناشدك الله ان تفيديني عما اذا كان الحائل دون رضاك بطلبي حب آخر او عدم كفوء في الداعي فارجوك الجواب لاطفي نار فوادي المحترق ارجوك ..

« خفف عني ثقلة الجواب وخلصني من التفوه بامور اودُّ ابقاءها ضمن خزائن الكتمان خصوصاً والواجبات الادبية تمنعنا عن الخوض بمثل هذه المواضيع فاهتدِ واذكر انك زائري ومن واجباتي اكرامك »

« سيدتي . الجواب ، الجواب : اذكريه ولو كان الموت الاحمر »

« رجوتك اولاً وارجوك ثانياً ان تعفوني واذهب بسلام »

« والله ما ذهبت الا بعد الحصول على الجواب »

« اذاً ستلزمني استدعاء الخدمة . فلو كنت شجاعاً كريماً تراعي حرمة المضيف لاكتفيت بما جرى : » وهمت ان تصفق استدعاء للخدام فحال اديب دون ذلك بان قبض على يديها وقال

« سيدتي ارجوك الجواب »

« انني ما قصدت الامتناع عن الجواب الا حباً بعدم مس حاسائك على اني اراك مصرًا عليه فاقول لك . انني امتنع عن الرضى باستماع حديثك لسببين مهمين . اولها انني احب سواك وثانياً لانه لايمكنني ان احبك لانك لاتستحق محبتي »

« ولماذا ؟ »

« لا يمكنني ان اجيب على هذا السوال فالشرط لم يقتضه »

« اذاً انا اجيبك : السبب في رفضك اياي حبك لكريم معلوف »

« سيدي ارجوك الصمت عن هذه القحة وان تضرب عن المداخلة فيما لا تقتضيه واجباتك لانني اذا احببت كريماً او غيره فانما تلك امورٌ شخصية تتعلق بي »

« ولكنني عالم بحبك له واثق بعلمي متأكد ما اقول . فقبل ذهابي اسمحي لي ان اهنئك بحب هذا الشخص ففي البلدة ثلاثة اشخاص بعد يودون استماع اسمه اما البقية ـ . . . .

« آه : قد وقفت الان ـ وشاهدي كلامك ـ على الاسباب التي حملتك على الطعن به في كل مقام ظناً منك انه يحبني وانني ابادله المحبة . لا عاش من يشنوك بإذا المبادىء الصادقة . . . . ان دفاعي هذا عن كريم افندي لا يثبت حبي له ولا ينفيه . ولكن كوطنية صادقة في حب الوطن يجب عليّ ان اسد فم كل معتدي على فتىً يتنقل في معامع الوغى وهو في كل آن عرضة لرصاص العدو وسهامه . فعارٌ عليك ان تستغيب شاباً صرف حداثته في الكد والجد والبحث والنقد فاذا كان فقيراً واحواله المادية متعسرة فالملوك والامراء تقع تحت الديون وتنسب اليها الخيانة وانا ارى ان الشرف والقابه لاتليق الا بمن عير بالفقر وكانت نفسه طامحة الى العلياء وهمته عظيمة تكاد تنطح السماء يحارب الرزايا ويهاجم الكوارث بقلب قدً من حديد »

« قد استطلتِ عليّ سيدتي واكثرتِ من ذمي وشتمي على حين انا لا استحق ذلك »

« لو لم ارك مستحقاً الشتم والذم ما جردت عليك لساناً كالسيف او امضى في كبح جماح امثالك وانا لا اود منه الا النزاهة في النطق والتكلم بمواضيع الفخر والفضل . ولو لم تعرض نفسك لما دارت عليك الدوائر »

« ولكن هذا لايليق بك فانا في بيتك وضيفك »

« لو كنت تعلم الامور اللائقة والغير اللائقة مادنست حقوق المضيف والضيف فارجوك ان تقتصر عن ذم احد في هذا المقام والا تستغيب فتىً نسبتَ اليّ حبه . فعلى فرض انني احببته هل ترغب مني مشاركتك في ذمه ؟ معاذ الله : »

« ولكن كثيراً من البشر يلهجون بذمه ولو علمت مساوئه كلها لكنت تقتصرين عن لومي »

« بين لي بعض تلك المساوىء التي يذم بها كريم افندي والا حسبتك مختلقاً حسوداً تماماً »

« لايمكنني ان ابين من سيئاته شيئاً عرفته بنفسي الا انني سمعت البشر ينطقون بذمه فلذا اتيت على ذكر المنقول »

« قد عرفت من مصادر عديدة انك انت منشأ كل ماصوب نحو كريم من الطعن والذم وقد عرفت الان غايتك من ذلك . فاذهب محملاً احتقاري واسفي عليك . عار عليك وانت تنتمي الى عائلة كريمة ان تبني سلوكك على اسس ينفر منها كل من خط على صفحات قلبه «حب قريبك كنفسك» . وقبل الفراق انصحك ان تعود عن ذم غيرك واعلم ان الرجال «بالعزائم لا بالعمائم» و بالفضل ليس بالمال . بل بقوة العقل والرشد والدراية . واعلم انني اذا عرفت انك طعنت على كريم مرة ثانية صوبت اليك سهاماً لايسرك وخزها فمثلك من لايستحق السكوت عن تعدياته والسلام »

« ارجوك : ارجوك : — . . . »

« لا رجوتك ولا رجوتني فهذا الباب انظره إن طريقك منه واجمل سلوكي معك الان ان يغير سلوكك و يحسن ادابك »

فانصرف اديب يتعثر باذيال الخزي تتجلى امامه مناظر العار التي انعكست عليه من مرآة طباعه . وكان الاجدر به بعد تلك المقابلة ان يضرب صفحاً عن عزمه و يطوي كشحاً عن الطعن على شاب مهذب كريم الا ان الطبع غلاب

الفصل الخامس

وان عناء ان تلم جاهلاً فيحسب جهلاً انه منك افهمُ
متى يبلغ البنيان يوماً تمامهُ . اذا كنت تبنيه وغيرك يهدمُ
(عمرو التميمي)

والبيتُ لا يبتنى الا له عمدٌ ولا عماد اذا لم ترس اوتادُ
وان تجمع اوتادٌ واعمدة وساكن بلغوا الامر الذي كادوا
(الافوه)

« قاتل الله اديب وقبحهُ ما اوقحهُ فهو على شاكلة عدد غفير من شبان بلادنا وشاباتها وسواهم من ابناء الفرنجة ينظرون «القذى» في عيون غيرهم «جسراً» و«الجسر» في عيونهم قذى بل لا يرون له اثراً ولا يعرفون لعيوبهم وجوداً واذا ماعرفوها انكروها او تظاهروا بالتغافل عنها

« على انني اذا عمدتُ الى ذكر عدد امثال هولاء في الكون لبلغوا مبلغاً عظيماً كلهم يرومون اتفاق التشابه بين افراد الناس في كل الصفات والاعمال ولسوء حظنا قد نكبت بلادنا بوجود عدد غفير من امثال هولاء فيها

« افلا يعلم الجمهور ان اختلاف الاذواق والمشارب ناتج عن تعدد مصادر التهذيب والتربية ؟ فبلادنا الآن مقتفية اثر الافرنج المقيمين بين ظهرانينا وهم على اختلاف الجنسيات والصفات والمبادي . فلذلك كل منهم يبثُّ في عقول ابناء بلادنا مبادئه فمتى شب غلماننا رايتهم قد انقسموا الى احزاب كل منها ينطق بفضل فئة من الفرنجة و يذهب مذهبها مفضلاً مبادئها على مبادىء سواها وكل منهم يعتقد العصمة في نفسه باعتقاد العصمة في الذين شبَّ وربي على آدابهم ذاهلين عن الحقيقة وهي «ان كل مدينة اوىملكة تنقسم على ذاتها تخرب» . وليس ما ذكرتُ السبب الوحيد في اختلاف المشارب وتباين الاذواق فان لذلك سبباً آخر الا وهو ان

بيننا الوفاً من الناس لا يعرفون من اسباب التمدن الا قص الاقاصيص الفارغة الخالية من كل معنى مفيد بين ادبي او علمي ٠وعليه صار هولاء اذا احسنتَ معاملتهم ولاطفتهم قالوا في لطفك غاية ولحسن سلوكك غرض تسعى وراءه ٠ .واذا عاملتهم ببرودة ذهبوا الى انك تترفع عنهم وتشمخ بانفك عليهم٠وهم لا يعرفون للملاطفة غاية وغرضاً الا المداهنة والتمليق. وللسكينة والبرودة الا الكبرياء والانتفاخ٠فيمدحون ويقدحون وهم يخبطون خبط عشواء في الليلة الدهماء فاقاموا بجهلهم على شفا خطر تتهددهم الغباوة بالقذف الى مهاوي ذل دمار اعمق من ٠٠٠٠٠

«فكيف يمكن مثلاً للذي درس السنين الطويلة تحت ايدي الفرنجة . . . ان يكون مثل ذاك الذي تلقن معارفه وادابه على يد الفرنجة ـ٠ ٠ ٠الذين يختلفون مذهباً ومشرباً عن الفئة الاولى .وكيف يمكن الاثنان ان يكونا مثل من تلقن عن يد اساتذة البلاد٠ اومثل ساكن القرى الجبلية غير الدارس ـ لااقول هذا الاخير منتقداً . فعندي من الاعتبار لابناء الفلاحة ما لايقدر لان بنموهم تنمو البلاد وتتقدم ـ . فلماذا اذاً لا يترك كلٌ لذوقه فيترك غيره وشانه. ولماذا لانقتصر على درس الكتب المفيدة في الشعر السامي والعلوم وغيرها ونحصر حديثنا فيها . ولماذا لانطالع الجرائد فنطلع منها على احوال الارض المتمدنة فننشط ارباب تلك الجرائد ونرى من الامور السامية ما يرفع درجة عقلنا فتعلو مطامح صدورنا٠ فلو وجهنا انظارنا نحو العلم والجرائد والبحث في الصناعة والزراعة لنشأت في صدورنا مطامح رفيعة وفقهت عقولنا فارتفعت عن المسائل الواطئة من مثل ما يحدث في كثير من بيوتاتنا٠

« ولماذا سار بي جواد الفكر الى هذا المقام؟ عد بي ايها العقل الى مـا جرى بيني و بين اديب : فماذا يعنيه من اموري ؟ولماذا يهتم بمن احب ومن ترغبه نفسي ؟ الست حرّة اتصرّف كيفما شئت ؟ولكن شواغله شواغل

فارغي الدماغ . الا انه كيف علم بمجي لكريم و بحب كريم لي ؟ ولم يفه احدنا بكلمة لاحد على ما اظن : هذه كلها لاتشغلني ولا اريد البحث عنها فشغلي الان بما يتاتى لكريم وهو في الحروب : وهل يرجع سالماً ؟ ام يذهب فريسة لسهام الاعداء ؟ آه : كريم : كريم :

« بين الاظاعن حاجة خلفتها اودعتها يوم الفراق مودعي »
« واظنها لا بل يقيني انها قلبي لانني لم اجد قلبي معي »

فصل سادس

هو ولدي اذا ارتفع زادني فرحاً واذا انحط اماتني حزناً . وكل والد يشعر معي (داك)

ما وصفنا والدي كريم بعد ولا رغبة لنا في وصفهما لان لاعلاقة لهما بحوادثنا ولكن لا بد من ان نقود القاري الى بيتهما قليلاً حيثما وجد عدد غفير من الاصدقاء يتحادثون في امر الكريم وما يحدق به من المخاطر في الحروب السودانية . اما والده فكان كاسف البال منكسر الخاطر المته شواغله عن الاكل بلذة خصوصاً و بعض الناس اتخذوا ولده العوبة وهو تحت اسنة الرماح يتقلب على حصىً من الجمر . فسال احد الحضور والده قائلاً

« هل اتاك كتاب من كريم بعد الذي قراته علينا ؟ »

« كلاّ فمنذ ذهابه الى ... وتعرض المربع الذي كان فيه للهاجمات الدائمة انقطعت عني اخباره وفؤادي وفؤاد والدته يكادان يتفطران حزناً »

فقال آخر « خلّ عنك الحزن والهم فالله قادر على كل شيء وانا

واثق انه يخلصه من الشدائد و يعيده اليك سالمًا »

فقال آخر « اما من جهة الاشاعات عنه فلا يعبأ بها من كان اديباً وجميعنا نعلم انه منذ الصغر يحب الادب و يعشق المبادي الحسنة . غيران البعض هنا يمقتونه نظرًا لبعض امور شخصية بينه و بينهم خصوصاً بعد الحوادث المدرسية وهذه امور ساعدت على المهيجات فكما لا يخفاك ان مقاوميه — على فوزهم عندنا — هم من الشعب المتوسط يعشون الى بلادنا بطلب الرزق ويدعون السمو علينا وذلك لجهلنا اصولهم ومتى وقف اهل البلاد على درجتهم الحقيقية ينكشف الحق و يتشتت شملهم باتضاح الحقائق »

فاجاب والد كريم « اما انا فوحق حبه لا يؤثر بي كلام اعدائه لانني عالم بصفات ولدي الحقيقية واعرف ما خوله الله من المبادىء السامية والاستقامة الداخلية وثباته الادبي غير ان مايشيع بيننا يبلغه فيهيج في قلبه الاحزان لانه يحب وطنه والبلاد التي رضع فيها لبان الادب وشبّ مع ابنآئها . ولولا هذه الامور الادبية وحدها لما كان يهتم بامر من امور الدهر فهو فتي نشيط يحصل ما تقتضيه المعيشة في كل مكان . اما ما يهمني الآن فسلامته الشخصية من الحروب السودانية وكل الامور الاخرى عرضية لانه تحت الخطر الدائم ولم يرد لي منه خبر منذ زمن »

فقال « الدكتور » صديق كريم

« وانا ايضاً لم يرد لي منه تحرير منذ كان في « سرس » . وكنت امس في سوق الطويلة فسالني عنه عدد غفير يرغبون في خلاصه من الشر ولا اخفي عنكم ايها السادة ان البلدة عموماً قلقة من جهته و باقي التراجمة اما انا فانتظر اخباره بشوق يزيد عن شغف سيدي والده »

لو علم والد كريم المسكين بما لدى الدكتور من اسرار ولده على حفظه مكاتيب تفتح اذا ورد خبر موته لاذرف الدمع السخين خشية تبوت الشؤم

———

فصلٌ سابع

معاقلنا التي ناوي اليها بنات الاعوجية والسيوف
(لاحدم)

طالما اشرت الى مربع العساكر الانكليزية الذي كان يوجه خطواته نحو الخرطوم لغاية انقاذ فيكتور وقد تركنا ذلك المربع وقواده يتفقون على كيفية مهاجمة السودانيين بقصد ابعادهم عن الماء فيروون ظماء العساكر . ويصعب على القاري ان يتصور صعوبة مركز اولئك القواد والعساكر . تتهددهم شرذمات عديدة من اولئك الاسود السودانيين فهود القفر وشياطين البر بقلوب لاتهاب الكوارث ولا تخشى عمل القنابل . ولما وصل المربع المذكور الى مرج واسع الاطراف يصونه للجهة الغربية تلٌ واطيء مكسو بالخضرة وفدت عليهم طليعة كانت تترقب اعمال العدو وتتفحص احوال حركاتهم واخبروا القواد ان الارض امتلات من السودانيين وانهم على مقربة منهم . فتهيج الضباط والقواد وعظمت الحركة بينهم . وكنت تسمع الجنرال الكبير يصرخ بصوت جهير

« قودوا الزريبة الى وسط المربع ومكنوا منها ما يمنع حركتها واعقلوا ارجلها واكثروا من المؤونة في ما وراء اجنحة المربع هلو: هلو : ايها الماجور » سكت » . حرك الجانح الايمن : وهيج قلوب العساكر . انبئهم بالفوز فالماء وراء التل الاخضر : هاي: هاي ايها الكولونل ضم الجانح الايسر الى الصدر واكثر الذخيرة في الزوايا : وانتم اكثروا من المدافع عند المؤخر واخبروا التراجمة والخدمة ان يتاهبوا للمساعدة في مناولة الذخيرة اذا مست الحاجة . »

وفيما كان القواد يهيجون بعضهم وينبهون العساكر لزيادة المؤونة في كل مكان وفيما كانت العساكر تاخذ مراكزها بالترتيب . وكان

الصف الاول ملقيّ على صدره والى ما ورائه صف آخر راكع والى ما وراء هذا صف واقف بانحناء وما وراء هذا آخر واقف تماماً. كان يتخلل اجنحة المربع ابواب تخرج منها العساكر وتصف آكياساً من الرمل امام الجنود وقايةً لهم من رصاص العدو ونباله. وفيما كانت القلوب ترتجف والعيون تبرق امتلات الارض على بعدٍ من المربع بشياطين سود يصرخون و يزأرون كالذئاب الخاطفة والفهود الجائعة ولما صاروا على مسافة مرمي الرصاص ارعدت بنادقهم ومدافعهم فانهال رصاصها وسقطت قنابلها على المربع فلم تؤثر كثيراً. اما قواد المربع فامروا العساكر الا يكثروا من اطلاق الرصاص الاحين صدور اوامر اخرى تستدعي ذلك. فامتلات الارض من الدخان وصمت الاذان والمربع كجبل لاتزعزعه قوة ولا تحركه صاعقة. وكان لما يسقط احد الجنود في صدر المربع تعلق في اطواقه شنابك من الحديد فتجره الى وسط المربع يداوي اذا كان جريحاً و يرفع على ظهر الجمال و يوضع محله جندي اخر كان وراءه مستعداً للمدافعة عند الحاجة. وما زالت المدافع تخرج من افواهها القنابل فتخرج معها اصوات كالرعود حتى خيل للقوم ان يوم الحشر قد قرب

وعند ذلك ارعد صوت الجنرال بالاوامر الآتية

«ايها الكولونل اخبر قوادك ان يامروا بالاطلاق السريع المتواصل. وانت ايها الماجور اذهب الى الجهة الشمالية واخبر القواد هناك بمداومة اطلاق البنادق الدوارة: وانت ايها القبطان اذهب الى الجنوب واخبر بمثل ما سمعت: هلو: تيقظوا تشجعوا ارسلوا ذخيرة متواصلة الى جهة الجناح الغربي واستمدوا مساعدة الخدمة والتراجمة وغيرهم في حل رزم الذخائر. قطعوا حبالها سريعاً»

فلم يمض على هذه الاوامر بضع دقائق حتى زاد دوي المدافع والبنادق بالاطلاق السريع وكان السودانيون يقتربون من المربع

لايخشون وقع الرصاص ولا ترد هجماتهم قنابل المدافع·وما زالت الجنود ترسل قنابلها ورصاصها الى كل الجهات والقلوب ساكنة وعلى العيون غشاء من الدخان وعواصف من الغبار تهب من ناحية المهاجمين الى ان ظلل القوم بستار كثيف لاتخترقه النواظر

« انظر: انظر: ياامين فقد هجم ذاك السوداني الى وسط المربع وتبعه آخر وآخر وقد شقوا وسط الجناح الغربي »

قال هذا كريمنا وهو يساعد في مناولة الذخيرة للعساكر ثم عاد الى حديثه

« انظر: انظر: ايضاً الى الجهة الشمالية فترى عدداً من السودانيين في وسط المربع تشق صدورهم السيوف ويدخل اجسامهم رصاص مسدسات الطلقات·والله ما ابصرت عيني اشجع منهم ولا اصبر على احتمال مصائب الحرب وبلاها·والله يا امين ان الرصاص يسقط علينا كالبرد وارى ان تحريك رؤوسنا بقصد النجاة منها جهل واضح انظر: انظر: قد سقط الجنرال الكبير بجانب ذلك الجمل وهذا قبطانه تبعه آه ـ ·····آه ـ ···

وعند ذلك وبينما كان السود يهاجمون جنود المربع عن قرب: ولما اوشكت ان تدور الدوائر على المربع: وفيما كانت العساكر وباقي القواد في ذهول عما حدث لقائدهم الكبير: زادت حماستهم وهاج في صدورهم دمهم البريطاني فتجددت النخوة وتعالت الهمة فافنوا من قاربهم من السود عن اخرهم·وعند ذلك ازدادت شجاعتهم وعظم الامل فزادوا اطلاق المدافع والبنادق فانهزم مهاجموهم اي هزيمة وتشتت شملهم اي تشتيت·ففرقت القواد المربع فرقاً وصارت الى مطاردة السود في كل الجهات حتى ابعدوهم عن النواظر وخلت كل تلك الارض من اثارهم الحية وتركوا من جثث قتلاهم مالا يعدولا يحصى

ولم يطل الزمان حتي تجمعت الفرق المتشتتة الى بعضها فعادت هيئة المربع كما كانت واخذ قيادته ضابط كان مساعدًا للجنرال الكبير المقتول ولما نعي ذلك الجنرال المنكود الحظ وباقي المفقودين من الكبار كثرت الانات وتصاعدت الزفرات حزنًا عليهم. وامر الضابط الاكبر ان يسير المربع الى الجهة الغربية الى ما ورا التل يبردون ظماءهم بالماء . فسار المربع الهوينا وقلوب افواده في شوق لايقدر لبلوغ الماء . فلما صاروا على مقربة منها حاولوا كسر المربع ليهجموا علي الماء فمنعهم القائد خشية الكمين. فلما تيقن بخلو المكان امر الجنود فاسرعوا الى الماء يروون الظماء. واي قلب لايتحرك من الفرح عند تصوّر حالة اولائك الجنود لما انتعشوا بالماء الزلال بعد ان صرفوا مدة لايشربون الا ما كدرته الاقذار وملأته الحيوانات الصغيرة السامة

فصل ثامن

دفعت بك الجليل وانت حيٌّ فمن ذا يدفع الخطب الجليلا
اذا قبح البكاء على قتيل رايت بكاءك الحسن الجميلا

(الخنساء)

«من اين اتيت؟ والى اين ذاهب؟ وما عندك من الاخبار؟»

هذه سوالات امين صديق كريم وجهها الى اعرابي وصل اليهم بعد ان شربوا وارتووا من الماء الزلال وارتاحوا من الحرب

«اسمي جابر وقد اتيت من الخرطوم لابلغ العساكر الانكليزية اخبارًا مهمة واردة من الخرطوم»

« هات ماعندك من الاخبار فكلي اذان لاسمع »

« ما اخبرتك شيئاً الا بحضرة الكومندان فالاوامر التي صدرت لي تقتضي ذلك »

فسار امين بجابر الى الكومندان وفيما هما على الطريق اخبر جابر امينًا انه كان في خدمة الحاكم ڤيكتور وانه كان في الخرطوم ومـا زال يقص عليه الاخبار العديدة حتى بلغا خيمة الكومندان المذكور فدخل امين واخبره بواقعة الحال فقال الكومندان

«تِ به سريعاً ياامين فربما تقل الينا من الاخبار ما غير في حركة العساكر كلها»

فدخل جابر يصحبه امين واختلى الثلاثة معاً نحوًا من ساعة كان فيها الامين ترجمانًا بين جابر والقومندان

. . . .

. . . .

مضت مدة على وصول جابر استراح فيها الجيش من متاعب امسهم ولما كان ثاني يوم صدرت لهم الاوامر بالرجوع الى الشمال فطار الخبر كالنسيم من طرف الى آخر من المعسكر ووقع الخبر كالصاعقة على الجنود وتلقوه بالعجب للتغير في المسير وكانوا قد عقدوا النية على الذهاب الى الجنوب بقصد انقاذ ڤيكتور. اما القواد الذين اطلعوا على حقيقة الخبر فكانت دلائل الحزن ظاهرة عليهم وقد اكتنف وجوههم سواد غير السواد الناتج عن حر الشمس

. . . .

. . . .

اما امين فكان منفردًا في خلوة بجانب الماء يتامل في رزمة من القرطاس كانت بين يديه. اما حاساته فيعذرني القاري على عدم ذكر

[illegible] سيشق الدكتور الجيوب ويحثو التراب على [illegible]زمة اليه ليفتحها »

. . . .

. . . .

فصلٌ تاسع

قد كان صاحب هذا القبر جوهرةً   نفيسة صاغها الرحمن من شرفِ
عزت فلم تعرف الايام قيمتها   فردَّها غيرةً منه الى الصدفِ

(لبعضهم)

كنت بعد عشرة ايام من وصول الاخبار — التي نقلها جابر — الى لندن مارًا في احد شوارعها المسمى بورتلند پلايس فرايت عن بعد عددًا من العربات السوداء لا يقلّ عن المائة وفي طليعة هذه العربات عربة سوداء مصنوعة من البلور الثخين الثمين المنقوش تتدلى من حولها الستائر المخملية السوداء يجرها ست من الافراس السوداء الكريمة يزيد طول غرورها عن الذراع واذيالها عن الذراعين تكسو ظهورها قطعًا من المخمل المزركش بالحرير الاسود. ورايت داخل هذه العربة تابوتًا من خشب السنديان البني تكسوه اكاليل من الزهور تملأ نصف العربة فسألتُ احد الحاضرين هناك عن اسم الفقيد فاجابني

« السيدة ادلين وحيدة الارل اوف — ... »

. . . .

. . . .

ومررت بعد سنتين من هذه الحادثة في لندن ايضًا فذهبت الى كنيستها المشهورة — كنيسة القديس بولس — اتفرج على عجائب بنائها و بعد

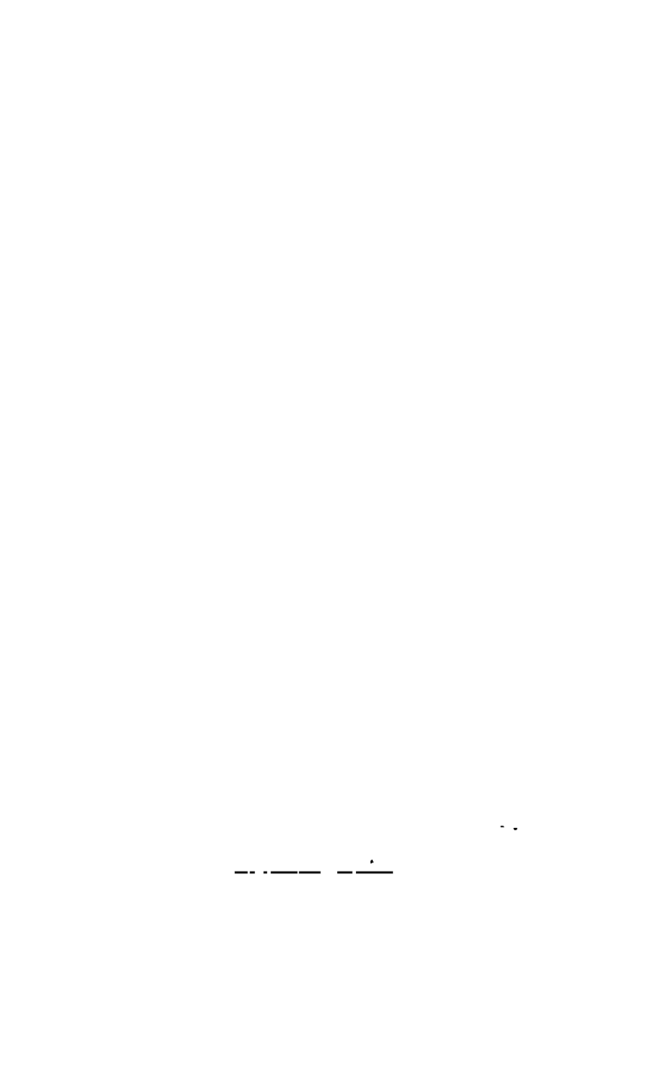
ان تنقلت قليلاً في زواياها اعجب من اتقانها مررت ازآء ضريح من المرمر عليه تمثال من المرمر ايضاً . وعلى التابوت عبارات لاتينية وانكليزية هذه ترجمة بعضها

« هنا تمثال يذكر ابناء المستقبل بعسكري بذل حياته في خدمة »
« الوطن والانسانية فسمي بطلاً . ويذكرنا بتقي مسيحي صرف الايام »
« ونار الحق الادبي والديني نبراساه يهديانه في كل اموره »

« الجنرال ڤيكتور »

« ولد سنة — ١٨ وتوفي قتيلاً في الخرطوم « سنة — ١٨ »

انتهت



253/A